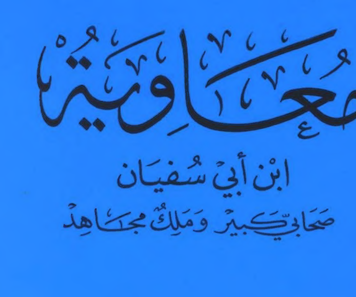
أعلام المسلمين

٢١



منير محمد الغضبان



مُعاوية بن أبي سُفيان

صحابيّ كبير ومَلِك مجاهد

تأليف

منير محمّد الغضبان

طبعة ثانية مزيدة ومُنقحة

الطبعة الثالثة
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرجل

انعقدت الكلمة على معاوية واجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين ، فلم يزل بالأمر مستقلاً إلى سنة وفاته ، والجهاد في بلاد العدو قائم ، وكلمة الله عالية ، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض ، والمسلمون معه في راحة وعدل ، وصفح وعفو .

الامام ابن كثير

معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين ، ملك الإسلام ، ابو عبد الرحمن ، القرشي الأموي ، المكي .

الامام الذهبي

ما رايت احداً أعظم حلماً ، ولا أكثر سؤدداً ، ولا أبعد أناة ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية .

قبيصة بن جابر

سئل المعافى بن عمران :

أيهما افضل : معاوية او عمر بن عبد العزيز ؟

فغضب وقال للسائل :

أتجعل رجلاً من الصحابة ، مثل رجل من التابعين ؟! معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحي الله !!

إن معاوية كان عود العرب ، وجدّ العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ، وملكه على العباد ، وفتح به البلاد .

الضحاك بن قيس

بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد :

ما أعتقد أن شخصية في تاريخنا الإسلامي ، ومن الرعيل الأول من الصحابة الذين تربّوا على يدي رسول الله ﷺ وعاشوا وحي السماء ؛ قد نالها من التشويه والدس والافتراء ما نال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . لقد أصبح كثير من المعلومات ثابتة في أذهان الناس لا تقبل الشك ولا تقبل الجدل ، لا تتناسب أبداً والمستوى اللائق بصحابة رسول الله ﷺ . وصورة معاوية في اذهان الناس انه طالب سلطة ، وسياسي بارع ، ونهّاز للفرص ، لا يرعوي عن شيء في سبيل الوصول إلى الحكم . صارع من أجل السلطة وسعى إلى قتل عشرات الألوف من الناس لكي يصل إلى الخلافة .

وهذه الصورة تتنافى مع حسّ المسلم وفطرته ؛ لكنه لا يجد لها بديلاً ، فكتب التاريخ تذكر ذلك .

وعندما جاء المؤرخون المحدثون وكتبوا عن معاوية ، زادوا الطين بلّة ، وكرّسوا هذه المفاهيم في اذهان الناس وزادوهم قناعة بها .

فكان لا بد من الكتابة عن معاوية بن أبي سفيان .

لقد أقدمت على هذا الأمر وانا اعلم وعورة الطريق واشواكه ، واعلم اني سأخوض في بحرٍ من الروايات ، هيهات ان ينال الدر من احشائها إلا من امده الله بعونه وعنايته .

واحب أن أعلن من أول الطريق اني لم أصل إلى الصورة الصحيحة الكاملة من خلال الروايات التاريخية ، ولكن حسبي أن أرود الطريق ، ولعل باحثاً يأتي من بعدي يرسم الصورة كاملة صحيحة .

ولماذا لم ارسم الصورة كما احب وأرغب؟

لاني كنت لا أجد في كثير من المواطن إلا الرواية الضعيفة أو المنكرة ، فأفضل أن أتجاوز هذا الموطن من أن اثبته برواية ضعيفة أو موضوعة .

وأود أن أوضح للأخ القارىء المنهج الذي سرت عليه من بداية البحث إلى نهايته ، وأن أذكر بعض المصادر والجهات التي أفدت منها ، وبذلك نسير معاً ونحن على بيّنة من خطة البحث وموارده :

أولاً : كان دليلي في البحث قبل الحوادث التاريخية ، الأحاديث النبوية ؛ تلك الأحاديث التي صحت عن رسول الله ﷺ وأنبأ بها ـ بما علّمه الله ـ عن وقائع ستحدث ، كان هذا هو الدليل الذي تحرّكت من خلاله قبل كل شيء .

فالحديث الصحيح هو بعد كتاب الله مصدر الحق في هذا الوجـود .

وإذا كانت الروايات التاريخية لم تمحَّص بعد ؛ فإن حديث رسول الله قد بلغ بفضل علمائه وجهدهم وتوفيق الله لهم المرتبة الثانية بعد كتاب الله تعالى .

فلو أن كل الروايات التاريخية في قضية ما خالفت حديثاً صحيحاً ؛ لأعرضتُ عن هذه الروايات كلها واخذت بالحديث .

ثانياً : وكان الخط الثاني الذي سرت فيه هوتمحيص الروايات التاريخية والكشف عن رجال اسانيدها في كتب التراجم والجرح والتعديل ، ولكن الفرق كبير كبير بين الرواية التاريخية ، والحديث النبـوي .

فما تشدّد المحدثون في الأخذ عنه في حديث رسول الله ؛ تساهل المؤرخون والإخباريون في الرواية عنه .

واضرب مَثالاً على ذلك :

لقد كان ابن جرير الطبري يكثر من الرواية عن : السري ، عن شعيب ، عن سيف . فماذا قالت كتب التراجم عن هؤلاء :

فالسري قال عنه ابن أبي حاتم : صدوق، وقالوا عن شعيب ـ كما أورد ذلك الذهبي ـ : راوية كتب سيف عنه ، فيه جهالة . وسيف قال عنه يحيى بن معين : ضعيف ، وقال ابو حاتم : متروك !!

لكن علماء الرجال شهدوا لسيفٍ في التاريخ والفتوح ووثقوه وقالوا عنه : كان إخبارياً عارفاً ، وقالوا عنه : ثقة في التاريخ ، ضعيف في الحديث .

فإذن لن نطمع أن نصل في الحدث التاريخي إلى مستوى الحديث النبوي . ولكننا نحاول أن نصل به بعيداً عن الكذابين ، وبعيداً عن المجهولين .

ثالثاً : الرواية التي نرفضها هي التي تحمل أسماءً لم يتعرض لها علماء الرجال بشيء ، ولم يذكروا عنها شيئاً ؛ وخاصة إذا كانت

تتعارض مع مستوى صحابة رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم ، فرواتها مجهولون . ولا ندري ماذا يدخلون على هذا التاريخ من زيف.

رابعاً : لا نقبل اية رواية خالية من السند . وهي التي يقال فيها : وزعم ، وقيل ، وروي .

خامساً : إن المدقق في تاريخ الطبري . وهو عمدتنا في البحث ـ لانه هو الوحيد الذي يحوي السند ويمكن تمحيص رواياته ـ يلاحظ أن أحد رواته وهو لوط بن يحيى والذي يكنى بأبي مخنف ؛ قد روى جزءاً كبيراً جداً من تاريخ هذه الحقبة ، بل يكاد لا يخلو حدث تاريخي إلا وله فيه رواية ؛ خاصة بعد وقعة الجمل .

ولا أبالغ إذا قلت : إن جلّ التحريف في وقائع هذه الحقبة من تاريخنا ـ إن لم أقل كله ـ مصدره أبو مخنف الشيعي الذي لم يتقبل إخبارياً ولم يقبل محدّثاً ، ولو أن روايات أبي مخنف حذفت من تاريخ الطبري لزال أكثر التشويه في تاريخنا الإسلامي .

سادساً : هناك كتاب آخر هو « تاريخ خليفة بن خياط » الذي نشر بتحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري. وخليفة بن خياط من شيوخ البخاري ، ومن طائفة رجال الحديث ، ومنهجه في التأليف هو منهجهم ، وعن هذا المنهج يقول محقق كتابه الدكتور العمري :

« وكان خليفة محدثاً اهتم بجمع الحديث وكتابة المسند ، فلا عجب أن يهتم بالإسناد حتى في روايته التاريخية ، ولم يكن خليفة أول من استعمل الإسناد في دراسة التاريخ ؛ فقد كان المحدثون الذين يهتمون بالأخبار ينقلونها بالأسانيد . وقد امتد الاهتمام بالإسناد إلى اهل الأدب ايضاً في هذه الفترة المبكرة ، على أن دقة

الإسناد آنذاك ظلت ملازمة للحديث ، أما الأخبار ؛ فقد ابـدى أصحابها تساهلاً في استعمال الإسناد ؛ ولذلك نجد خليفة بن خياط يلتزم الإسناد بدقة في الحديث ويتساهل باستعماله في الأخبـار والأنساب ، ويرجع ذلك إلى اهمية الحديث وتعلق الأحكام به ، فلا بد من التشدد في نقده قبل قبوله والاسناد هو المحور الأساسي الذي يدور حوله النقد .

اما الأخبار فلا تترتب عليها احكام تتعلق بمصالح الناس وأمور حياتهم ، لذلك كان التساهل في أسانيد الأخبار مما تعارف عليه المحدثون ؛ فرووا ما كان في إسنادها انقطاع او ارسال ، كما رووا عن بعض المجروحين الذين لا يقبلون مروياتهم في الحديث ، فلاغرابة أن ينقل خليفـة عن ابن الكلبي والواقدي مثلاً . وهـم متهمون عند المحدثين ...

وكذلك اهتم بذكر الإسناد كثيراً عند ذكر الأحداث التيتحتاج اخبارها إلى تدقيق ، لتأثير الأهواء فيها ، مثل : الفتنة زمن عثمان، موقعة الجمل ، موقعة صفين ، اخذ معاوية بيعة أهل الحجاز لابنه يزيد ، وقعة الحرة ، ثورة ابن الأشعث . ونجـده يعتمد في هذه الأخبار على المحدثين في الدرجة الأولى »(١) .

وأقول : إنني مدين ولا شك لهذا المؤرخ والمحدّث الكبير في بعض الفترات الهامة من تاريخنا الاسلامي ، فلقد أفدت منه كثيراً وكان بالنسبة لي كماء السماء يسقط على الأرض اليابسة ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، لقد روى لي ظمأ قلبي ، وأنا أنقب في التواريخ باحثاً عما يطمئن إليه قلبي وترتاح إليه نفسي .

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٤ ، طبعة دار القلم بدمشق.

سابعاً : ولا شك أن كتاب العواصم من القواصم ، وتحقيق وتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب عليه ومن بعده الأستاذ محمود مهدي استانبولي ؛ كان له أثر كبير في اتساع آفاق البحث ، ومدّي بمصادر جديدة أعطت إضاءات اوضح على الأحداث .

ثامناً : ولعل الفضل الأكبر في تدقيق هذا الكتاب وتصويبه كان لشيخنا وأستاذنا العلامة محمد سعيد طنطاوي ، الذي حصر العلم في قلبه لا في كتبه ، فقد قرأ الكتاب وابدى عليه ملاحظات كثيرة حملتني على إعادة النظر فيه ومراعاة جميع هذه الملاحظات ، ومع ذلك فأنا على يقين ان الكتاب لن يحوز على رضاه ؛ لانه ينشد الأكمل والأمثل دائماً . وهذا ما لا نملكه .

وارفعه نداء له باسم الشباب الإسلامي من على صفحات هذا الكتاب أن يتناول قلمه ، ويمد الشباب المتعطش بتراجم مركزة مستوفاة دقيقة عن شخصيات التاريخ الإسلامي ، فهي أمانة في عنقه . وقد يغضب لهذا النداء ؛ لكننا نحرص على كلمة الحق نقولها أكثر من حرصنا على مراعاة العواطف ، ولو انه كتب في هذه المجالات لا ستغنى الشباب الاسلامي عن كثير من الكتابات التي لم تنل الحظ الجيد من التحقيق والتدقيق .

تاسعاً : ولا انسى الجهد المشكور الذي بذله الأخ الحبيب محمد حسن بريغش والملاحظات القيمة التي قدمها على الكتاب ، وقد كان يرفض أية نقطة ضعف فيه ، ويجتهد في إبعادها عنه وهو أعرف الناس بخطتي في البحث ، ولا يمنعني هذا من ان اثبت رأيه في هذه المحاولة ، وهي اني جنحت إلى المبالغة في حق معاوية رضي الله عنه؛ حتى ليحس القارىء أن لو بايعه الناس

من بداية الطريق لتم تجاوز كل الأزمات والحروب العنيفة في تاريخنا الإسلامي !!

هذا رأيه . ولو اقتنعت به لأعرضت عن إصدار الكتاب .

أما رأيي فهو اني ارفع الحيف والظلم الذي وقع في تاريخ معاوية دون أي مساس ولو مرة واحدة بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أما لماذا لم اناقش آراء أمير المؤمنين علي ؛ فلأن الكتاب ترجمة لمعاوية وليس ترجمة لعلي ، فلا بدّ من عرض وجهة نظر معاوية بأمانة كاملة . ويكفيني وانا اذكر أمير المؤمنين علياً ان اقدم حديثاً صحيحاً يكون حكماً في كل القضايا التي جرت بينه وبين معاوية .

أنا اعتذر لمعاوية ، لأني على ثقة انه كان يقصد الحق . ولا يضيره بعد ذلك أن يكون أصاب الحقّ ام اخطأه .

أما انه كان يعرف نفسه انه على باطل ويقاتل عليه فهذا كلام مرفوض لأن رسول الله ﷺ شهد للطائفتين انهما يقصدان الحق ، وعلي رضي الله عنه والمسلمون معه أصابوه ، ومعاوية رضي الله عنه والمسلمون معه أخطؤوه . وذلك كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة » .

والحديث في رواية الإمام احمد له تتمة قيمة ، ونصه :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَقَ منهم مارقة،تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

والمارقة التي خرجت قد قاتلها علي رضي الله عنه وهم الخوارج.

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث فقال :

« قال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن الضحاك المشرقي ، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في حديث (ذكر قوماً يخرجون على فرقة من الناس مختلفة، يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق) أخرجاه في الصحيحين(١).

والحديث الصحيح الذي ورد في مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنـه :

« يا عمار تقتلك الفئة الباغية » . يؤكد أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، ولكنه لا يعني أبداً أن معاوية والمسلمين معه يعرفـون ذلك ويصرون على البغي .

وأعود لأقول ما قاله أهل السنة في هذا الصدد :

« أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعاً من أهل الحق ،وكانوا مخلصين في ذلك ، والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد . كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه . وهم لإخلاصهم في اجتهادهم مثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطىء . وليس بعد رسول الله ﷺ بشر معصوم أن يخطىء ، وقد يخطىء بعضهم في أمور ويصيب في أخرى وكذلك الآخرون .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٩٩ .

ومن مرق عن الحق في إثارة الفتنة على عثمان لا يعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ؛ لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان ـ كائناً من كانوا ـ استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم ؛ سـواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم الحد أو لم يستطع . وفي حالة عدم استطاعته ؛ فإن مواصلتهم القتال بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الاصلاح والتآخي ـ كما فعلوا في وقعة الجمـل وما بعدها ـ يعد إصراراً منهم على الاستمرار في الاجرام مادامو على ذلـك .

فاذا قلنا أن الطائفتين كانتا من أهل الحق ، فإنما نريد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين .

ونرى ان علياً المبشر بالجنة أعلى مقاماً عند الله من معاويةخال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين ، وكلاهما من أهل الخير .

وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإنَّ من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(1) .

وليس الكتاب إلا عرضاً لهذه العقيدة في الطائفتين من خلال الواقع التاريخي ، فإن وفّقت في ذلك فالحمد والمنة لله سبحانه ومنه العون ، وإن لم أوفق فحسبي أني شققت الطريق .

---

(1) العواصم من القواصم ، من تعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على الكتاب ص ١٦٩ .

عاشراً : واحب ان اسوق الشكر الجزيل لفضيلة الأستاذ المؤرخ الشيخ نايف العباس ، فقد افدت منه أموراً كثيرة ، ولقد أجرى قلمه في هذا الكتاب ، فصحح العديد من الأحداث والوقائع ، والروايات والأسماء ، وقوّم المائل من الآراء والأحكام والتعبيرات ، فجزاه الله عني وعن المسلمين كل خير .

كما احب ان أشكر الأخ الاستاذ محمد علي دولة المدير المسؤول في دار القلم وصاحبها ، فقد كان له الفضل في إصدار هذا الكتاب ، ولقد قرأ مخطوطته كلمة كلمة ، فصوّب ودقّق وأفاد.

وفي الختام :

أود أن اعتذر للأخ القارىء من بداية لقائي معه اني سأطنب في عرض الفتنة الكبرى التي حصلت في خلافة عثمان وأدت إلى استشهاده ؛ رغم أن الكتاب ترجمة لمعاوية رضي الله عنه ؛ وذلك لقناعتي انه لا يمكن ان تفسر الحوادث كلها في الصراع والحرب بين الطائفتين ؛ إلا بدراسة واقع العالم الإسلامي إثر مقتل عثمان ولأن هذه القضية هي محور الأحداث كلها فيما بعد .

أسأل الله ــ سبحانه ــ أن يجنبنا العثرة . وأن يغفر لنا ما أخطأنا فيه في اجتهادنا ، ويثيبنا على ما أصبنا فيه . وأن يكون عملنا هذا في كفة حسناتنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



مقدّمة الطبعة الثانية

طال غياب الكتاب، وتأخر طبعه، ولم أعثر على نسخة منه منذ سنين.

وكنت بانتظار ملاحظات الإخوة القرّاء، وأنا أخوض هذا البحث الشائك. ولكن الانتظار مضى دون جديد.

تُرى ألم يطّلع أحد على الكتاب؟

ما أعتقد ذلك. لكن لعلّ يداً امتدت إلى الكتاب فاستنفذت نُسَخه من الأسواق.

ومن خلال الصلة المباشرة جاءني ملاحظتان كان لهما أثر في بنيان الكتاب.

الملاحظة الأولى: من شيخنا وأُستاذنا الحبيب العلاّمة محمد سعيد الطنطاوي. الذي علّق على الكتاب بقوله:

هذا الكتاب عن الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وأنت بحاجة إلى كتاب آخر عن معاوية، تدرس جوانب العظمة في شخصيته وعبقريته و. . .

وهممت بذلك لكني رأيت همّتي تقصر عن العودة إلى هذا الصحابي الجليل لأصوغ البناء من جديد. ومع ذلك لم أدع الأمر. فوقفت عند معاوية أستجلي

جوانب العظمة في شخصيته وعبقريته من مواقفه من أهل بيته، ومواقفه من قادة الأمة. ومواقفه من خصومه، ومواقفه من الأمة، وجوانب الإبداع في هذه الشخصية. وأضفت هذه الفصول إلى الكتاب، على أمل أن أسدّ هذه الثغرة التي لم يتعرّض لها أحد.

فعشرون عاماً من المُلْك عامرة بالأحداث والمواقف، لم يرق فيها دم، أعادت العافية للأمة. لم تكن لتمرّ وسط عواصف العواطف الجامحة الجائحة ضده، لو لم يكن من العبقرية الفذّة بحيث يمتص هذه العواطف ويوجِّهها إلى الجهاد والبناء من جديد.

وأصدُقُ قارئي بعد ذلك. هل حازت هذه الإضافة على رضا شيخنا الحبيب؟ وأقولها صادقاً: لا. لكن حسبي أن أبذل جهد المقل. وحسبي أن أقول له: يا فارس الساحة، تقدم فليس لها سواك.

ولا بدّ لي أن أُشير إلى الجديد في المنهج الذي اتبعته في هذه الفصول المضافة؛ فالأمانة العلمية تقتضي ذلك.

لم أُركِّز كثيراً على تحقيق وتوثيق هذه النصوص، لأني لست أمام خلاف في الرأي أُرجح فيه. ولست أمام طعن في صحابي جليل أذود عنه الأهواء والفتن. ولست أمام حكم عقيدي أو فقهي، أخشى أن أضيع في متاهاته. فلا بدّ لي من الوقوف على صحيحه.

إنما أنا في هذه الفصول أمام دراسة تاريخية، وترجمة شخصية في أُمور ليست محل تنازع واختلاف. بمقدار ما هي موطن تأكيد لصحة الخط الذي ابتدأته

ووثقته. إنه بمثابة تعميق لهذه الخطوط، وإيضاح في اللون والصورة. وملء فراغات البناء الثابت الأركان.

وهذه الفصول هي: قيادات بني أُمية تحتج وتنذر، معاوية وأشراف أهل البيت، معاوية وموقفه من الخصوم، معاوية والرعية.

أما الملاحظة الثانية: فكانت من الأخ الهندي المفضال مقصود حسن الفيضي ومن العاملين في علم الحديث، فهي في الحقيقة ملاحظات علمية دقيقة لُحمتها في رجال الإسناد والجرح والتعديل. تقبلت هذه الملاحظات شاكراً. وحاولت جاهداً أن أُعدِّل كل ما اقتنعت بخطئه.

وإن كان بعضها قد توقفت عنده لأنه يدخل في إطار المتن لا السند. وهذا الأمر موطن حوار ليس بالضرورة أن يسلم بصحته من الأخ الكريم.

وله من أعماقي وافر شكري على هذه المساهمة العلمية.

وأخيراً بيني وبين الأخ الناشر، الأُستاذ محمد علي دولة، الذي كنت معه بين كرٍّ وفرٍّ. فهو يحمل هموم قراءة الكتاب وضخامته التي قد تحول دون إقبال القرّاء عليه، وسلامته التي حدت به أن يشارك المؤلف أحياناً في الرأي أو يخالفه.

وصبر عليَّ، وصبرت عليه، إلى أن آذن الله تعالى بأن تكون هذه الطبعة الثانية بين يدي الأخ القارىء. فله شكري ثانية.

راجياً الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يغفر ما فيه من زلل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المَلِكُ المجاهِـدُ وَالزّاهِـدُ المجاهِد

إنه الإسلام العظيم الذي يجمع في ساحته كل النماذج البشرية. لتؤدي طاقاتها كاملة .

ومن هذه النماذج : الزاهد المجاهد ... والملك المجاهد .

الزاهد المجاهد ابو ذر الغفاري الذي طلب الإمارة يوماً من رسول الله ﷺ ، فقال له :

« يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا لمن اداها في حقها » .

وبذلك وجه الرسول العظيم هذه الطاقة للتفرغ للدعوة ، والجهاد في سبيل الله ، وجهه إلى الزهد في الدنيا ، والتقلل منها .

فسار أبو ذر على هذا الدرب ، يرفع الناس إلى آفاق سامية ويذكرهم بالآخرة ، ويحثهم على الجهاد . حتى لقي وجه ربه .

والملك المجاهد ، معاوية بن أبي سفيان الذي قال له رسول الله ﷺ :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » .

فوقر في نفسه منذ تلك اللحظة انه سيلي امر هذه الأمة .

(فما زلت اظن اني سأبتلى) بالحكم .

فطاقات معاوية رضي الله عنه في الحكم والإدارة والسياسة طاقات هائلة ، ولا بد ان تمارس ، وتكون على المسلمين خيراً وبركة.

أبو ذر على زهد عيسى بن مريم عليه السلام .

ومعاوية على منهج سليمان عليه السلام .

ويحضرني دائماً وأنا أذكر الزاهد المجاهد والملك المجاهد نموذجان من انبياء الله ، لا تذكر قصتهما إلا معاً : من ابتلي بالضراء فصبر ، ومن ابتلي بالسراء فشكر .

« ولقد فتنّا سليمان ، والقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب . قال : ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك انت الوهاب . فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرّنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثاً واضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب».

سليمان عليه السلام قال :

رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي .

وكان بشهادة ربه له ، خير من يحمل المسؤولية .

« وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

وايوب مسّه الضر وابتلي بلاء لا حدّ له ، ونجح في ابتلائه بشهادة ربه له .

« إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب » .

والملك المجاهد ، معاوية رضي الله عنه قال : رضينا بها ملكاً .

وقال : ملك الله يؤتيه من يشاء .

وقال : اما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب منها وأصابت منه . وأما نحن فتمرغنا بها تمرغاً .

وقال لأحد الصحابة :

فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة أكثر مني ؟!

فوالله لما إليّ من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والاصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لا يحصيها إلا الله ، ولا تحصيها ؛ أكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو عنالسيئات.

والله على ذلك ما كنت لأخيَّر بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله على غيره مما سواه .

هذه هي نفسية الملك المجاهد رضي الله عنه .

اما الزاهد المجاهد ، فقال لأحد صحابة رسول الله ﷺ : ألا تنظرون إلى ما تأمرني به هذه السويداء ــ يعني زوجته ــ تأمرني أن آتي العراق ، فإذا أتيت العراق ما لوا عليّ بدنياهم .

وإن خليلي ﷺ عهد إلي ان دون جسر جهنم طريقاً ذا دَحْض ومزلة ، وإنا إن نأتي عليه وفي احمالنا اقتدار واضطمار ــ خفة ــ احرى أن ننجو من ان نأتي عليه ونحن مواقير .

وقال :

كان قوتي على عهد رسول الله ﷺ صاعاً ، فلا أزيد عليه حتى القى الله عز وجل .

تخفف من الدنيا وأعبائها رجاء مغفرة ربه .

والملك المجاهد :

حمل الدنيا على كتفيه ، ورجا مغفرة ربه .

إنه الإسلام ، الذي يحوي كل النماذج ، وكل الطاقات ، لتؤدي رسالتها في الأرض .

ولنعش مع أول ملوك الاسلام الملك المجاهد « معاوية » ، خطوة خطوة ، من قبل أن ترى عيناه النور إلى أن لقي وجه ربه .

• • •

أبو سُفيَان وَهنْد بنت عُتبَة

البيئة والمنبت اللذان نشأ فيهما معاوية رضي الله عنه يعطيانا صورة صادقة عن أهم العوامل التي أثرت في تكوينه وهو صغير من الناحية العاطفية والفكرية . ونستطيع أن نقف على وصف مسهب لأبي سفيان يوم رشحه عتبة بن ربيعة زوجاً لابنته هند فقال :

« إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك :

أما الأول ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجاً من غفلته ، وذلك إسجاح من شيمته . حَسَن الصحابة ، حسن الإجابة . إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك . تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك في ضعفه .

وأما الآخر ففي الحسب الحسيب ، والراي الأريب . بدر أرومته وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعّر بهم (١) . شديد الغَيرة ، سريع الطِّيرة ، شديد حجاب القبة (٢) . إن جاع ففير منزور ، وإن نوزع ففير مقهور .

---

(١) إن جانبوه توعر بهم : إن عصوه قسا عليهم .

(٢) شديد حجاب القبة : حريص على ستر نسائه .

قد بينت لكِ حالهما .

قالت : أمـا الأول فسيد مضياع لكريمته ، مؤات لها فيما عسى إن لم تعصم أن تلين بعد إبائها (١) ، وتضيع تحت جنائها .

إن جاءت له بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت . اطو ذكر هذا عني فلا تسمه لي .

وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوامقة (٢)، وإني له لموافقة ، وإني لآخذة بأدب البعل مـع لزومي قبتي وقلة تلفتي ، وإن السليل بيني وبينه (٣) لحري أن يكون المدافع عـن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها . غير مواكل (٤) ولازمّيل (٥) عند ضعضعة الحوادث (٦) . فمن هو ؟

قال : ذاك أبو سفيان بن حرب .

فقالت : فزوجه ولا تلقني إليـه إلقـاء المتسلس السلس ،

---

(١) « مؤات لهـا فيما عسى . . » : لا يثور لخطئهـا الذي يسيء سمعتها وسمعته .

(٢) وامقة : محبة حباً شديداً .

(٣) السليل بيني وبينه : الولد الذي ننجبه .

(٤) مواكل : معتمد على غيره ، عاجز .

(٥) الزميل : الضعيف الجبان .

(٦) ضعضعة الحوادث : وقوع المصائب .

ولا تسمه سوم المواطس الضرس . استخر الله في السماء ، يخر لك بعلمه في القضاء » (١) .

فصورة أبي سفيان عن كثب هي صورة الإنسان الذي حاز على مجموعة من الفضائل في المجتمع الجاهلي هيأته لزعامة عشيرته ، فهو في الحسب في الأرومة والذروة من قبيلته .

أبو سفيان بن حرب، بن أمية، بن عبد شمس، بن عبد مناف .

ولقد غدا بدر أرومته ، وعز عشيرته ، لأنه استطاع بقوة شخصيته أن يضبط أهله ، ويفرض عليهم وجوده ، وحين اسلسوا له عنان الطاعة ، اكرمهم ونمى فيهم جوانب القوة والمجد ، لكنه لا يسكت على هَنَة أو خطيئة تبدر منهم ، فهو وعر لا يصلون إلى رضاه إلا بالجهد .

وقد دفعه حرصه على أهله أن يكون غيوراً على نسوة عشيرته، قاسياً في فرض سلوك اجتماعي عليهن يتناسب وطبيعة هذا المجتمع، وقد حاز على شرف المال علاوة على شرف النسب ، وحاز على شرف الشجاعة وقوة الشكيمة ، فيرفض أن يستذل أو يهان ، ولا يسكت على ضيم ينزل به .

فيكاد يكون قد حاز على قيم المجتمع الجاهلي التي تؤهله للزعامة والقيادة .

غير ان عتبة بن ربيعة أشار من طرف خفي إلى خلق في أبي سفيان قد لا يرتضيه وهو (إذا جاع غير منزور) فجوعه ليس عن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٨ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ . نشر دار صادر ودار بيروت .

حاجة ، وما لم يكن الجوع عن حاجة فهو عن اقتصاد ، وهو الذي أشارت إليه هند بنت عتبة بعد إسلامها فقالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وأنا آخذ من أمواله الهنة بعد الهنة ، فهل هذه سرقة . فقال : خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف(١) .

لكن أبا سفيان كان يتكلف الجود إذا اقتضى الأمر يدفعه ضريبة وثمناً للزعامة .

هذه شخصية أبي سفيان كما يراها كبير مكة عتبة بن ربيعة .

ولم يتقدم أبو سفيان خاطباً هند بنت عتبة عرَضاً كذلك . فعتبة أبوها في اعتقاده سيد قريش بلا منازع ، وهو يريد أن يصل زعامته بزعامة عتبة بسبب ، نلحظ هذا من حوار جرى بين أبي سفيان ، وبين أمية بن أبي الصلت صديقه ونديمه :

« أمية لأبي سفيان : حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

أبو سفيان : إي والله .

ــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

إي والله .

ــ وكريم الطرفين وَسَط في العشيرة ؟

نعم .

ــ فهل تعرف قرشياً أشرف منه ؟

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة في ترجمة هند بنت عتبة وهو مخرّج في الصحيحين .

لا والله لا أعلم . . . » (١)

هذا شرف محتد هند بنت عتبة . فكيف تبدو لنا هند في هذا البيت ؟

انها قوية الشخصية ، وتبدو قوة شخصيتها من خلال موقفين يبرزان نفسيتها الأنوفة وشخصيتها القوية .

فهي تقول لأبيها في جراة لا تحد :

« إني امراة قد ملكت امري ، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه علي » .

إنها ترفض أن تقاد والاّ تملك من أمرها شيئاً .

كما يبدو ذكاؤها الوقاد ، وحصافة عقلها في حسن سبرها للرجال ، وتقديرها لهم يوم خيرت بين الرجلين .

فالمرأة العادية ترى في النوع الأول من الرجال منيتها . فهو سمح لين جواد ، حسن المعاملة لزوجته لدرجة الضعف والانقياد لها .

فهي تستطيع أن تحظى عنده بأوفر قسط من السعادة والمتعة، لا تحمل عبء غضبه لأنه سمح ، ولا تحمل عبء بخله لأنه جواد . ولا تحمل عبء نسبه لأنه حسيب نسيب . وماذا تريد المراة اكثر من هذه الوفرة من المزايا في المال والحسب وحسن المعاملة ؟!

بينما تخشى المرأة العادية من النوع الثاني من الرجال . فهو قاس في معاملته ، لا تستطيع أن تصل إلى مآربها لقوة شخصيته ،

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٢/٢٢٢ .

التي تقف سداً منيعاً دون أهوائها وملذاتها ، وتعاني من شدة غَيرته وتطيره الأمرّين في تأويل كل تصرف لها بسوء ، وقمعها عن كل تحرك عادي يمكن أن يرى به خروجاً عن الجادة .

أما المرأة الحصيفة التي يحركها المجد ، وتستهويها السيادة فترفض ذلك المطواع لها زوجاً ؛ لأن الناس سيتندرون به في مجالسهم ، وهي تقبل بسوط ذلك الوعر القاسي الذي يشهد له قومه بعزته ومنعته ، وتقبل مراقبته لها حتى لو وجدت في ذلك عنتاً ورَهَقاً ؛ طمعاً في جانب آخر تعتز فيه ، هذا الجانب هو أن يكون حامياً لنسائه ، يذود عنهن بالدم والروح .

وكانت هند من الطراز الثاني من النساء ، اللاتي يرين في حسن السمعة والأحدوثة وشرف المجد ؛ ما يضحى بكل شيء في سبيلها .

إن عمق تفكيرها وبعد نظرها ليبدو يوم تتخيل الولد الذي ستنجبه ، فعن أولاد النوع الأول تقول :

(فإن جاءت له بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت) .

بينما تراها تقول في أولاد النوع الثاني :

« وإن السليل بيني وبينه لحريٌ أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها ، غير مواكل ولا زميل عند ضعضعة الحوادث .

ويتبدى لنا بعد هذا كله ــ من خلال محادثة هند وأبيها ــ وعيها العجيب حتى في طريقة قبولها لأبي سفيان .

هي ترفض القبول السهل حتى لا يظن أبو سفيان أنه نال فتاة عادية ، ومن غير جهد ؛ فلا يشعر بكرامتها على أبيها .

كما ترفض التعنت حتى لاينصرف ابو سفيان عنها ؛ وهي وامقة لخلاله ، معجبة بخصاله . فكانت وصيتها لأبيها :

« ولا تلقني إليه إلقـاء المتسلس السلس ، ولا تسمه سوم المواطس الضرس » .

وبذلك تحفظ كرامتها ، وتحقق مأربها .

غير أن ختام حديثها يعطينا جانباً جديداً من جوانب شخصيتها فهي تقول : « استخرِ الله في السماء يَخرْ لك بعلمه في القضاء » . ومعنى الاستخارة في المفهوم الجاهلي هـو الاستقسام بالأزلام . وهذا يعني أننا أمام فتاة عريقة في جاهليتها ، محافظة على تقاليـد دينها ، وهذه التقاليد متغلغلة في أعماقها .

فرغم كل إعجابها بأبي سفيان ترى أن الاستخارة هي الحل الحاسم في الأمر ومعرفـة رضى الله في السماء يكون بالاستقسام بالأزلام في الأرض ، وهذا ما يضيء لنا معالم الطريق الوعر العنيف الذي سارت به هند وأبو سفيان ضد الدعوة الجديدة التي حمل لواءها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

والذي لا بد من الإشارة إليه هو أن هند بنت عتبة لم تصـل إلى هذا المستوى من النضج إلا بعد أن عركتها السنون وحنكتهـا التجارب ؛ إذ قد كانت زوجة للفاكه بن المغيرة قبل زواجهـا بأبي سفيان بن حرب وقد طعنها في أعز ما تملكه ؛ في عرضها وشرفها ، واحتكموا إلى كاهن باليمن ، فبرأ ساحتها من هذا الاتهام الظالم . وأبت بعدها أن تعود لزوجها الفاكه بن المغيرة الذي أقبل عليهـا بلهفة وشوق بعد براءتها ، ومرت ثمان سنين بين زواجها من ابي سفيان وتركها للفاكه بن المغيرة .

ولقد تركت هذه الحادثة ـ التي هزت كيان هند ـ أثراً عميقاً وعنيفاً في نفسها ، فهي تنضح بالكراهية والحقد للفاكه بن المغيرة زوجها السابق وهي تزداد انفة واستعلاءً يوم ترى اهل مكة جميعاً قد براوا ساحتها بعد تبرئة الكاهن اليمني لها .

لكن الذي يعنينا من الأمر هو تلك الإضافة الجديدة لقناعات هند في دين قومها وتقاليدهم ، فهي قد لمست في هذا الكاهن صدقاً لا يعتريه الشك يوم كشف الخبء الذي خبأه له أبوها عتبة ، ويوم براها نظيفة طاهرة من بين العديد من النسوة التي كانت بينهن .

نحن إذن مع امراة متمسكة بدين قومها وتقاليدهم أشد التمسك ، وعاشقة للشرف والشهرة اعظم العشق واقواه .

بينما لا نجد جانب التعصب والتدين لدى أبي سفيان . فهو الذي امضى حياته في التجارة والسفر ، ولقد راى اديانا غير دين قومه وعوالم غير عالم قومه ، والتقى مع عصارات الحضارات العالمية ؛ فلقد زار الشام والعراق ، ووصل إلى بلاط الغساسنة والمناذرة ، وبلاط كسرى وقيصر . لقد كان لهذه الخبرة اثر كبير في تفكير أبي سفيان . لقد كان تاجراً قبل كل شيء . يجمع ويطرح فما يحقق له الزعامة يتبناه ، وما يحقق له الثروة يسعى إليه ، وما يلبي أشواقه وعواطفه يهجم عليه دون أن يخل بمروءته .وهو مستعد ان يقدم ضريبة الشرف والسؤدد مهما كان الثمن غالياً .

فعندما بنى أبو سفيان بهند بنت عتبة حدث ما اثار انظار اهل مكة وكان حديث نواديها .

فلقد وصل مكة عشر جزائر (جمال) هدية من ملك اليمن ، وامر ان ينحرها أعز قريش ، ومضى الناس يتساءلون عمن سيقدم على نحرها ويغامر بحياته فيبلد يتنافس أهله على الشرف والزعامة؟!

وهند التي تمضي أحلى أيام شبابها وساعات أحلامها الرغيدة مع أبي سفيان ؛ لم تنس ما اهتزت له من قصة الجزائر العشر . فقالت لزوجها ابن حرب : لا يشغلنّك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك .

فأجاب وهو غارق في لذتــه :

يا هذه ، دعي زوجك وما يختاره لنفسه . والله ما نحرها أحدٌ غيري إلا نحرته .

وبقيت الجزائر العشر معقولة في مكة دون أن يجرؤ من التقدم إليها أحد ، وعندما انهى أبو سفيان يومه السابع خرج من بيته ، ومضى إلى الإبل فنحرها معلناً على الملأ انه اعز شباب قريش ، وراحت هند تفاخر بهذا الشرف الـذي أصابـه زوجها وجعلت تنفس على النسـاء أن تكون عقيلة أعز رجل من قريش .

ترى ، هل ينتهي طموح هند عند هذا الحد ؟!

لا ، أبداً . فعندما كان وليدها معاوية يحبو في فناء بيته نظر أبو سفيان إليه ، ثم قال لهند : إن ابني هذا لعظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه !!

فأجابته : قومه قط ، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة(١) !!

فهي ترى به علائم النبوغ وتتطلع من خلاله إلى ملك عريض واسع يكون هو الآمر الناهي فيه .



(١) رواه محمد بن سعد في الطبقات . كما أورده ابن كثير في البداية ١١٨/٨ .

الإسلام يغزو قلب معاوية

شاءت الأقدار أن يكون البيت الأموي عموماً - ولسنوات طويلة - في جانب والدعوة الإسلامية في جانب آخر ، وأن يدرج معاوية في هذه البيئة بعيداً عن الإسلام ورسوله .

وبعد غزوة بدر نما الحقد على الإسلام ورسوله وتمكن في بيت أبي سفيان،وحزن معاوية لمقتلجده عتبة ولمقتل خاله الوليد وأخيه حنظلة وزاد من حزنه شدة وَجْد أمه هند عليهم . ومضت سنوات ومعاوية يعيش في هذا البيت الذي نصب العداء شديداً للاسلام ، واحتوت ذاكرته صوراً ومشاهد كثيرة عن تلك الفترة لكن مشهداً منها هز كيانه كله وحفر في ذاكرته !!

هذا المشهد هو مقتل خبيب بن عدي رضي الله عنه في مكة وقد اخذ أسيراً إليها يوم الرجيع ، وها هو خبيب يرفع يديه للسماء قائـلاً :

اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا !!

كان أبو سفيان في مقدمة من شهد مصرع خبيب ، وكانمعاوية ابنه واقفاً جنبه . وعندما قال خبيب ضارعاً إلى ربه : اللهـم ، أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ؛ سرعان ما رأى أباه يهوي به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب !! يقول معاوية :

حضرته (أي مقتل خبيب) يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان. فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه (١) .

كان لهذا الموقف أثر كبير في نفسه جعله نهبة لكثير من الأفكار. ترى لو كان خبيب وصحبه مبطلين فما الذي حدا بأبيه أن يهوي به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب ألاّ تصيبه ؟! وإن كان محقاً ففيم لا تأتلف كلمة قريش برأي واحد ، وتنتهي الحرب مع محمد وأصحابه ؟! إنه لم يكن على ثقة تامة من صواب موقف قومه ومعتقداتهم .

ثم إن هذا المشهد ـ مشهد مصرع خبيب ـ قد زرع في نفسه قلقاً أخذ ينمو مع الزمن ؛ ليدفعه إلى موقف محدد بعد حين .

* * *

كان في الثانية والعشرين من عمره حين تجمعت الأحزاب من غطفان وقريش لغزو المدينة ، وكان يرى أن هذه المعركة ستكون حاسمة في مصير الإسلام والمسلمين . ولكنه عاد مع من عاد يجر أذيال الخيبة ، وأصغى إلى أبيه وهو يخاطب أهل مكة ليلة انسحاب الأحزاب :

« يا معشر قريش : إنكم ـ والله ـ ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكرَاع والخف (٢) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام . مقتل خبيب وأصحابه (سرية الرجيع) .

(٢) الكراع : الخيل ، الخف : الإبل .

نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون : ما تطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإني مرتحل » ثم رأى أباه قد قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه . ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم (١) .

وتوترت أعصاب معاوية وهو يرى الحرب وقد أعطت ثمارها المرة ، إذ استهلكت الأموال ، ومحت الآمال وبدا له أن تحقيق نصر حاسم على محمد بعيد المنال .



وعندما فاجأ رسول الله ﷺ أهل مكة في العام التالي برغبته في زيارة البيت الحرام اعتبروا ذلك إهانة بالغة لهم ، وأعلنوا أنه لا يدخلها عليهم عنوة أبداً . وتمضي الرسل بينهم وبين المسلمين ، وتسفر المباحثات عن عقد صلح الحديبية بين الفريقين .

وليّن هذا الصلح شيئاً من الجمود الذي ران على النفوس ، ومحا شيئاً من الحقد الذي غلّف القلوب ، وتفتحت نوافذ النور على قلوب القرشيين فبصرت الحق : فهذا خالد بن الوليد قائد الفرسان تتزعزع نفسه عقب هذا الصلح ، ويرى أن أمر محمد يعلو علواً منكراً . ويرى أن الله بجانب محمد وأصحابه ولن يتخلى عنهم !! وهذا عمرو بن العاص يتغير موقفه ، وهذا الفتى اليافع الذي دخل في الرابعة والعشرين من عمره « معاوية » ابن زعيم مكة « أبي سفيان » يتفتح قلبه للنور أيضاً .

* * *

---

(١) السيرة لابن هشام (غزوة الأحزاب) .

كان يعرف هول الموقف إذا اعلن إسلامه وهو يرى اباه يقود الحرب ضد محمد وأصحابه . لقد دخـل اليقين إلى قلبه . ولكن هذا اليقين مالم يعلن ويتحمل صاحبه عواقبه لاجدوى منه . وفكر في أن يعرض على امه هذه القناعة . .

كان يعلم مدى حقد امه على المسلمين آنذاك . فمقتل أخيها وأبيها وعمها وابنها لايزال غضاً في قلبها ؛ لكن علاقته بأمه كانت من العمق بحيث لم يكن يرى أن يخفي عنها ما يعتمل في نفسه . وحبها له من القوة بحيث تغتفر له كل ما يصدر عنه مما تكرهه .

وتشجع معاوية ذات يوم ، وقصَّ عليها قناعته بهذا الدين ورغبته بالهجرة إلى يثرب .

وغضبت هند وقالت له مهددة متوعدة : إن خرجتَ قطعنا عنك القوت (١) .

وغدت هند تخشى أن تستيقظ في أي يوم فلا ترى ابنها إلى جانبها . فتسأل عنه فيقال لها : هاجر إلى يثرب .

وصارت كالذي يقف بين نارين فلايدري أيهما اخف فيقحمها : هل تكتم الخبر عن أبي سفيان حتى لايؤذي ولدها الحبيب معاوية . أو أن تلقي إليه بالخبر فيحول دون هجرة ولدها إلى المدينة ؟

وعانت من هذين الموقفين الكثير . غير أنها رجحت في النهاية الموقف الأول وبلغ أبا سفيان ما يعتمل في فؤاد ابنه معاوية ــ وكان هو نفسه يعاني بعض ما يعاني ابنه لكنه مضطر لكظمه ــ فقال له :

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج٣ ص١٤ .

هـذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه .

فأسرّها معاوية في نفسه ولم يبدها له . وقال : لم آل نفسي جهـداً .

* * *

يحدثنا معاوية رضي الله عنه عن إسلامه فيقول :

لقد أسلمت قبل عمرة القضية ، ولكني كنت اخاف أن أخرج إلى المدينة لأن امي كانت تقول لي : إن خرجت قطعنا عنك القوت .

ويقول :

ولقد دخـل علينا رسول الله ﷺ مكة في عمـرة القضاء وإني لمصدّق بــه .

ثم لما دخل عام الفتح اظهرتُ إسلامي فجئته فرحب بي (١).

* * *



(١) البداية والنهاية ج٨ ص ١١٨ .

الإسلام يدخل بيتَ أبي سُفيَان

دخل رســول الله ﷺ مكة فاتحاً في العـام الثامن للهجرة ؛ وعاني يومها أبو سفيان من آلام الاستسلام والهزيمة مالايوصف ، وهو وإن كان قد أعلن في ظاهر الأمر دخوله في الإسلام ؛ إلا أن طعم الهزيمة مر . وهاهو ينظر إلى رسول الله ﷺ والناس قد اجتمعوا حوله . فعرض له خاطر استسلم له قليلاً ، وقال في نفسه : لـو جمعت لمحمد جمعاً .

إن إمكانية النصر في هذا الجمع وإن كانت بعيده ، لكنها ليست مستحيلة .. إنه لو انتصر لكانت هذه الجموع من الناس كلها تتجه نحوه ، وتنتظر كلمة من شفتيه ، تقرر مصير الألوف من الناس . ها هو الآن امرءاً عادياً لايلتفت إليه أحد ، ولا يعبأ به أحد . ومـا أغنى عنه فخر البارحة ــ من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ــ .

وراح يراجع رصيده من جديد . أيمضي إلى أقاربه من ثقيف يجمع الجموع . أم ماذا يفعل ؟ .

وبينا هو على هذه الحال إذا بيد تصكه بين كتفيه ، فينتفض كمن لسعته حية ، ويستيقظ من ذهوله وينظر ؛ فإذا هــو محمد رسول الله ﷺ ، فيتكلف له الابتسامة ، لكن الذي أفقده صوابه هو قول الرسول ﷺ :

« إذاً يخزيك الله » (١) .

وفي أسرع من لمح البصر ربط بين قوله في سريرة نفسه : (لو جمعت لمحمد جمعاً) وبين قول رسول الله له : (إذاً يخزيك الله).

فعرف يقيناً أنه بين يدي نبي مبعوث من السماء ، عرف مايجول بخاطره بوحي من الله . فقال وقد رفع رأسه إليه :

ـ ما ايقنت انك رسول الله حتى الساعة .

وأنا أستغفر الله واتوب إليه ، والله ما تفوهتُ به ، إلا شيءٌ حدثت به نفسي .

ودخل أبو سفيان في الإسلام صادقاً موقناً . وفي المساء والناس يكبِّرون ويهللون أحب أبو سفيان أن يدغدغ مشاعر هند زوجه . فقال لها وأصوات التكبير من المسلمين تصك آذانها : أترين هذا من الله ؟

قالت : نعم هذا من الله .

وهكذا بدات معالم الصورة الحاقدة على رسول الله تمحي شيئاً فشيئاً . إن هؤلاء الذين حاربتهم هند ، وتقربت إلى آلهتها بحربهم . لم يغمض لهم جفن ليلتهم وهم يكبرون ويهللون ، ولقد عبرت عن إعجابها بهم حين قالت لزوجها : (ما رأيت اللهَ عُبد حق عبادته حتى اليوم) .

---

(١) أصل الرواية عند ابن سعد عن الواقدي ، وقد أوردها ابن كثير في البداية ج٢ ص ٣٠٤ . ولها شاهد عند البيهقي قريب من ذلك .

وعندما بلغها أن الناس يبايعون على الإسلام جاءت تقود نسوة مكة إلى رسول الله ﷺ وذلك عند الصفا ، وعمر بن الخطاب يأخذ البيعة منهن .. كانت متنقبة متنكرة تخشى أن يعرفها النبي فيأمر بقتلهـــا .

لقد ولغت من قبل بكبد حمزة عمه وشوهته ، ولقد اثارت أعمق مافي نفسه من آلام !!

كان قلبها يخفق خفقاً رهيباً فهي بين الأمل بالعفو ، والخوف من الانتقام .

ويقول رسول الله ﷺ للنسوة :

ـ بايعنني على أن لاتشركن بالله شيئاً .

هند : والله إنك لتأخذ علينا مالاتأخذه من الرجال (وبايعت على ذلك) .

رسول الله : ولا تسرقن .

هند : والله إني كنت اصبت من مـــال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا .

أبو سفيان : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟!

هند : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك .

رسول الله : ولا تزنين .

هند : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟!

رسول الله : ولا تقتلن أولادكن .

هند : قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كباراً (ويضحك عمر من قول هند حتى يستغرق) .

رسول الله : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن .

هند : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

رسول الله : بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم .

وتقبل هند على رسول الله وتقول له :

يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من أهل خبائك . ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يعزّوا من أهل خبائك .

ويجيبها رسول الله ﷺ : وأيضاً والذي نفس محمد بيده (١).

وانتهت بذلك مرحلة من الصراع استمرت ما ينوف عن عشرين عاماً .

وأصبح أبو سفيان وزوجه هند بنت عتبة جنديين من جنود الدعوة الإسلامية ، ومسح الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه الجراحات بيده الحانية ، وغض النظر عن الاساءات الكبرى ، والأحقاد الهائلة التي أجج أبو سفيان وزوجه أوارها حين قال لهند :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص ٣١٩ . وقد أخرجه مسلم والبيهقي عن عائشة .

وايضاً والذي نفس محمد بيده .

وعادت إلى بيتها والإيمان يعمر قلبها ، فوقع نظرها على الصنم في زاوية من البيت فاندفعت بغضب شديد إلى الصنم تهشم وجهه وتحطمه قائلة :

كنا منك في غرور !!

* * *

أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على ظهر الكعبة .

وكان أبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام قد خلوا ثلاثتهم بفناء الكعبة ، فلما سمعوا النداء قال عتاب :

لقد أكرم الله اسيداً الاّ يكون سمعهذا فيسمعمنه ما يغيظه. وأجابه الحارث : أما والله لو أعلم انه حق لاتبعته .

لكن ابا سفيان قال : والله لا أقول شيئاً . ولو تكلمتُ لأخبرت عنيهذه الحصباء !!

وخرج عليهم النبي ﷺ ، وفاجأهم بقوله :

« **قد علمت الذي قلتم** » ثم ذكر لهم ذلك .

وصاح الحارث وعتّاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك (١) .

* * *

---

(١) السيرة لابن هشام : ج٤ فتح مكة ص٢٧ . ط كتاب التحرير ١٣٨٤ هـ .

ومضى أبو سفيان ومشيخة قريش مـع رسول الله ﷺ إلى هوازن ، وحضر الحرب دون قتال [1].

ثم تابع السير مع الجيش الإسلامي إلى ثقيف ، وقد رأى بأم عينه كيف أنجز الله وعده، ونصر عبده محمداً ﷺ على هوازن، وآلمه أن المعركة انتهت دون أن يشارك فيها ولو بسهم . فجاشت نفسه إلى لقاء العدو ، ومن أجل هذا ما إن توجه رسول الله إلى ثقيف حتى اندفع أبو سفيان يقاتل وينازل . وبينا هو كذلك إذا بسهم يهوي إليه فينال منه أغلى ما يملك ، ينفرز السهم بعينه ، فتخرج سائلة على وجهه . ومضى أبو سفيان إلى رسول الله يقول لـه : هذه عيني أصيبت في سبيل الله .

وأجابه عليه الصلاة والسلام : إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فالجنة [2].

وصاح أبو سفيان : الجنة .

ورأى أبو سفيان في لحظة واحدة تاريخ جاهليته يطوى بهذه المأثرة التي ساقها الله إليه ، وأيقن أنـه قد مشى على الطريق ، طريقِ الجهاد الذي سوف ينتهي به إلى الجنة !!

---

(١) روى ابن اسحاق أن أبا سفيان قـال في حنين عندما فر المسلمون في بداية المعركة : (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وإن الأزلام لمعه في كنانته) . وقد ساقها ابن اسحاق دون إسناد عن أحد ، فلا ندري مقدار صحتها ، ومن أين استقى خبرها ؟!

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ، رواه الزبير عن طريق سعيد ابن عبيد الثقفي ج٣ ص١٧٣ .

وعاد الجيش الإسلامي من حصار الطائف ، ونزل رسول الله بالجعرانة يريد قسمة الغنائم الهائلة التي غنمها المسلمون في معركة حنين ، ولم يدرِ أبو سفيان هل سيناله منها شيء أم لا ؟

وتقدم أبو سفيان على استحياء من رسول الله وقال له :
(يا رسول الله أنت اليوم أغنى قريش) .

فتبسم رسول الله ﷺ ، وأدرك ماذا يعتمل في خاطر الرجل.

وقال أبو سفيان : حظنا من هذه الأموال .

وأمر رسول الله بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضـــة .

فقال : حظ ابني يزيد .

فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية .

فقال : فأين حظ ابني معاوية .
فأمر له أيضاً بمائة من الإبل وأربعين أوقية .

ورأى أبو سفيان انه قد حصل له من الغنائم شيء لم يخطر له على بال ، وأن النبي قد بالغ في أعطائه، فقال:بأبي وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب والسلم هذه غاية الكرم،جزاك‌الله خيراً (١).



أسلم سيد ثقيف عروة بن مسعود صهر أبي سفيـــان فقتلته

(١) مختصر السيرة لعبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣١٨ .

ثقيف عندما دعاهم إلى الله وقال فيه رسول الله ﷺ :

مثله في قومه كمثل صاحب « يس » في قومه .

وتسلل أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود ليلاً من ثقيف ويمما صوب المدينة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاها على شيء أبدا .

فسلما على رسول الله بتحية الإسلام .

فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما .

قالا : نتولى الله ورسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان .

قالا : وخالنا أبا سفيان بن حرب .

ثم جاء وفد ثقيف بإسلام القبيلة كاملة . وكان رسول الله ﷺ يحب أن يكرم أبا سفيان،ويفجر طاقاته في سبيل الله، فكلفه مع المغيرة بن شعبة بهدم اللات صنم العرب الأكبر الذي كان في ثقيف .

وبطبعه السياسي الأريب لم يشارك في هدمها خوفاً من ثورة ثقيف عليه كما قال ، أما المغيرة بن شعبة فقد قام قومه بحمايته أثناء عملية الهدم .

وكان أبو سفيان يستشعر حياته الطويلة في حرب الإسلام ، ويراجع رصيده وكيف كان يعظم اللات حتى ليقسم بها قبل العزى، وهاهي الآن تندكئ بمعاول الإسلام بيد المغيرة كما دكت العزى على يد خالد بن الوليد .

فينظر إليها ساخراً منها ومن نفسه ، شامتاً بها وبنفسه يوم

كان يعبدها وقال : واهاً لك ، واهاً لك !!

وسرَّه مابها من حلي وجواهر كانت له وللمغيرة . وإذا برسالة رسول الله ﷺ له أن يدفع دين ولدي أخته أبي مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود قائلاً له :

إن رسول الله قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دَينهما فقضى عنهما (١) .

وراح المـــال يصهر الحقد الذي حمله على الأيـــام على محمد رسول الله وصحبه المجاهدين .



أحس أبو سفيـــان أن النـــاس لا يزالون ينقبضون منه ، ويزورّون عنه . فلم ينس الناس له بعد حربه الطويلة لله ورسوله. فجلس ذات يوم يستعرض هذا الواقع الذي يتجرع منه الغصص المرة ، ويذكره بأيامه السود الكالحة التي جبّها الإسلام ، ولكنها لم تغب عن أذهان الناس بعد،وضاقت به الدنيا وهو يستعرض الحلول التي يطوي فيها من أذهان الناس تلك الصفحة القاتمة . وبعد تفكير عميق وكد ذهني اهتدى إلى الحل . فمضى على جناح السرعة إلى الرسول ﷺ فاستقبله ورحّب به وأدناه .

فقال أبو سفيان : يا نبي الله ثلاث أعطيهن .

قال : نعم .

---

(١) مختصر السيرة ص٣٢٥ .

قال : عندي أحسن نساء العرب وأجملهن عزة بنت أبي سفيان أزوجكها .

رسول الله : إن ذلك لايحل لي (١) .

قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك .

قال : نعم .

قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين .

قال : نعم (٢) .

وانفرجت أسارير أبي سفيان ، وملأت الغبطة جوانحه ، وملكت عليه فؤاده ، ثم حمل البشرى إلى ولده معاوية ، الذي دخله من السرور مالايوصف أن صار كاتباً بين يدي البشير النذير ﷺ .



---

(١) الذي ورد في رواية مسلم هو زواج أم حبيبة وليس زواج عزة . والرواة مجمعون على وهم راوي الحديث ـ عكرمة بن عمار ـ لأن أم حبيبة رضي الله عنها زوجها النجاشي من رسول الله قبل فتح خيبر بأمر رسول الله وبقيت في بيت رسول الله ﷺ منذ ذلك الوقت، ونزل عليها أبوها أبو سفيان وهو مشرك يوم جاء المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة . وطوت عنه فراش رسول الله . وقد اختار ابن كثير هذا الرأي وهو زواج أختها . واعتذار رسول الله ﷺ عن ذلك لأنه لايجوز الجمع بين أختين ، وهو الأقرب للصواب .

(٢) رواه مسلم .

معاويـة في مدرسـة النبوّة

اقام معاوية في المدينة وكان اسعد مايكون ساعة يستدعيه رسول الله ﷺ ليملي عليه الوحي غضاً كما سمعه من جبريل عليه السلام. فينبلج قلبه بالنور ، ويغمر فؤاده اليقين ، وكان احب شيء إليه أن يمضي وقته عند أم حبيبة اخته. فهو عندئذ في بيت النبوة، فام حبيبة زوج النبي ﷺ . وكان يحرص أن يجلس إلى النبي ﷺ في المسجد ينهل من معين النبوة ، ويرتشف من منهلها فينصرف مروياً بعد صـدى .

لقد صار كل همه أن يتلقى العلم والحكمة من الرسول صلوات الله عليه فلقد فاته خير كثير . وغدا لايأتي إلا والقلم معه ، ينتظر أن يسمع المنادي يناديه ليكتب لرسول الله ﷺ .

وذات يوم وقـد عرف أن رسول الله سيدخل على أخته أم حبيبة ، وكانت عائشة أم المؤمنين تلحظ آنذاك حجرة ام حبيبة ؛ فرات معاوية يستأذن على أخته ، والقلم على اذنه .

اقبل يومها ثم طرق الباب وقلبه يخفق خوفاً أن لايؤذن له ، فقال النبي ﷺ :

ــ انظروا من هذا ؟

ــ قالوا : معاوية .

ــ قال : ائذنوا له .

فدخل وعلى أذنه القلم ، فقال (عليه الصلاة والسلام) :

ـ ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟

ـ قال : قلم أعددته لله ورسوله .

فقال له : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله .

(وكانت أم حبيبة تستمع إلى ثناء رسول الله على أخيها فتطرب من الفرح . فأصغت إلى رسول الله ﷺ حيث تابع قائلاً) :

وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله ..

وتابع يقول :

كيف بك لو قمصك الله قميصاً ؟

وما أن صكّ هذا الكلام أذني أم حبيبة . حتى بادرت تسأل النبي :

ـ يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً ؟؟

ـ نعم ، ولكن فيه هنات وهنات .

ـ يا رسول الله فادع الله له .

ورفع رسول الله يديه يدعو لمعاوية :

ـ اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى) (١) . وخرج معاوية كأنما ملك الدنيا كلها بعد الذي سمعه من دعاء رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه السري بن عاصم وهو ضعيف. انظر المجمع ٣٥٦/٩.

وما من مرة كان رسول الله ﷺ يستدعيه إلا وكان أسرع مايكون بين يديه عليه السلام ، إلا تلك المرة التي حدثنا عنهـا ابن عباس قائـلاً :

« كنت ألعب مع الصبيان فجـاء رسول الله ﷺ . فقلت : ماجـاء إلا إليّ ، فاختبأت على باب ، فجاءني فخطاني خطـاة أو خطاتين (١) ، ثم قال :

اذهب فادع لي معاوية .

قال : فذهبت إليه فدعوته له ، فقيل : إنه يأكل .

فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنه يأكل .

فقال : اذهب فادعه .

فأتيته الثانية فقيل : إنه يأكل . . فأخبرته .

فقال في الثالثة : لاأشبع الله بطنه » (٢) .

---

(١) خطاني : صفعني على رقبتي .

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عباس .

قلت: أورد مسلم حديث «لا أشبع الله بطنه» ثم أتبعه بحديث رواه البخاري أيضاً ، وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قـال : « اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه ، وليس لذلك أهلاً ، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة » وهكذا ركّب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية . وهذا من فقهه العظيم رحمه الله ، وأقره على ذلك العلماء .

(الناشر)

ولشد ما تألم معاوية عندما بلغه أن رسول الله دعاه ولم يلب ، ولعل أهله لم يخبروه بذلك .

وكان كل ما يخشاه أن يكون رسول الله قد غضب منه أو تغير قلبه عليه ، فكان يحرص على أن لايفارقه ، وكان ينظر في وجهه هل يعتب عليه بشيء ؟ . ولم يكن ليستقر له قرار في ليل أو نهار ، بل كان يوصي أخته أم حبيبة أن تذكره أمام رسول الله . لتعلم هل في قلبه شيء عليه أم لا؟

إلى أن جاءته البشارة ذات ليلة أن رسول الله دعا له .

وكان ذلك حين دخل العرباض بن سارية المسجد النبوي في السحر ، فرآه الرسول فقال له : هلم إلى الغداء المبارك .

يقول العرباض رضي الله عنه :

ثم سمعته يقول :

اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب (١) .

* * *

وشغلت كلمة رسول الله التي قالها له من قبل (كيف بك لو قمصك الله قميصاً) بال معاوية وجعل يتساءل : هل سيلي أمر المسلمين ذات يوم ؟

كيف يكون ذلك وهو الشاب الغَمْر ، وقد سبقه السابقون في الجهاد والتفقه في دين الله .

---

(١) أخرجه الامام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه والبزار، وفيه الحارث بن زياد ولم أجد مَن وثقه وبقية رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف. انظر المجمع ٣٥٦/٩.

وجعل يطرد هذا الهاجس من رأسه ويقول في نفسه : الم يقل له رسول الله ذلك ، ولا يقول النبي إلا حقاً !! فلم يبحث عن الكيفية؟ ولكن ما هذه الهنات والهنات .

إنه لايجرؤ أن يرفع بصره في وجه رسول الله ﷺ فكيف يتمكن إذاً أن يسأله عن هذه الهنات والهنات ؟!!

لايمكن أن يكون ذلك إلا اذا انفرد به صلوات الله وسلامه عليه ومع ذلك فهل يجرؤ أن يفاتح رسول الله فيه .

وحانت له الفرصة ذات يوم .

فلقد اشتكى أبو هريرة ــ وكان يحمل الأداوة لرسول الله ﷺ ــ فأسرع معاوية وأخذ الأداوة ليوضىء بها رسول الله ، وجعل قلبه يخفق إجلالاً لرسول الله .

هاهو يسكب الماء على يديه عليه السلام . والهواجس تدور في خلده وتعتلج في صدره . فماذا يسأل رسول الله ؟

ونظر رسول الله ﷺ نظرة فاحصة إلى معاوية ، فأغضى معاوية حياءً وهيبة من رسول الله .

وأعاد رسول الله نظره إليه وهو يبتسم وقال له :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » (١) .

---

(١) أورده ابن كثير عن أبي يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا وابن منده ، ورواه الإمام أحمد عن روح عن عمرو بن يحيى عن جده. ورجاله ثقات.

وامتلأ معاوية سروراً بما سمع ، وتابع صبه الماء على يدي النبي ﷺ .

ونظر رسول الله ثانية إليه وقال :

(أما إنك ستلي أمر أمتي بعدي ، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم)(١) .

وأيقن معاوية بعد ما سمع هذه الكلمة الصريحة من النبي أنه سيبتلى بأمر المسلمين .

بَيْدَ أنه لم ينس كلمته عليه السلام: « فيه هَنات وهَنات»!!

ترى ألا يتعرض لدعوة ينالها من رسول الله فتذهب هناته وتريح نفســه ؟

وانتظر معاوية هذه الدعوة ، وجاءت فيما بعد ، وقال لــه يوماً ـ وعبد الرحمن بن أبي عميرة عنده ـ : « اللهم اجعله هادياً واهد به » (٢) .

وأقبل معاوية على رسول الله يتعلم منه ، ويقتبس من هديه ، وزاده شغفاً بالعلم تلك الكلمة الرائعة التي سمعها من رسول الله يحض بها على طلب العلم والتفقه في الدين ، لقد سمعه يوماً يقول:

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله

---

(١) ابن كثير عن غالب القطان صدوق عن الحسن. ورواه الحسن. ورواه البيهقي وفيه إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر وهو ضعيف. بلفظ : إذا ملكت فأحسن.

(٢) رواه الترمذي .

عزوجل يعطي . ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) [1].

لقد أخذ من الدنيا ما فيه غناه ، فلقد قسم له رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

وما عليه إلا أن يجتهد اجتهاداً عظيماً في صحبة رسول الله والأخذ عنه .

وكان أشد ما يشغل باله أن يتخلص منرواسب جاهليته كلها.

لقد كان في جاهليته يشرب الخمر ويلبس الحرير ، ويهوى تقاليد الجاهلية ، والآن يريد أن يخلع كل جاهليته ، وجعل يصغي إلى كل حديث يتحدثه الرسول ﷺ ، ويسارع إلى تطبيقه .

أما بالنسبة للخمر فقد عرف تحريمها من كتاب الله . لكـن لفت انتباهه ماسمعه من رسول الله ﷺ في هذا الصدد وهو :

كل مسكر حرام على كل مؤمن [2].

فلا بد له إذاً أن يتجنب كل مسكر ، أو فيه شبهة الإسكار . حرصاً على مرضاة الله .

وثار في ذهنه سؤال عن اللباس ، فهو يجد معظم المسلمين بعيدين عن التنعم ، حتى ولو كانوا أغنياء . وراح يسائل نفسه : هل هو رغبة منهم في الزهد في نعيم الدنيا ، أم هو محرم يجتنبوه .

---

(1) رواه البخاري .

(2) أخرجه ابن ماجه عن معاوية بـن أبي سفيان . كتاب الأشربة. رقم الحديث ٣٣٨٩. وقال البوصيري: إسناده صحيح ورواته ثقات.

إنه يود ان يعرف الحلال والحرام في هذا المجال .

وذات يوم سمع رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الحرير والتختم بالذهب ، فأدرك الحكم الشرعي ، بيد أنه فوجىء يوماً برسول الله ﷺ يقول :

لا تركبوا الخز ولا النمار (١) .

فعلم ان الأمر إذاً أوسع مما كان يتوقع ، فليس النهي منصباً على اللباس فقط .

لكنه منصب كذلك على الاستعمال والتباهي به سواءً كان على الجسم أم على البرذون أم في البيت . وبذلك عرف حكم الله في اللباس وعرف الحد بين الحلال والحرام في هذا المجال .

وسمع معاوية ذات يوم النبي يذم التمادح ، فاضطرب لما سمع فهو ممن يحب المديح والثناء ، ويحب كذلك أن يثني على من هم أهل للثناء .

أجل قرع سمعه رسول الله ﷺ يقول :

« إياكم والتمادح » .

ويردف هذا التحذير بقوله : « فإنه الذبح »(٢) .

---

(١) سنن ابي داود اخرجه عن معاوية بن ابي سفيان ج٢ ص ٣٨٨ . باب في جلود النمور والسباع .

(٢) سنن ابن ماجه اخرجه عن معاوية بن ابي سفيان . ص١٢٣٢ . رقم الحديث ٣٧٤٣ . وهو حديث حسن .

وخلا إلى نفسه ملياً يفكر في هذا النهي والحكمة منه ، وانتهى بعد لأي إلى أن النهي منصب على المديح الكاذب ، والتملق الذي ينبت النفاق في القلب . والثناء على الباطل وأهله طمعاً في المال ، ورغبة في المجد . حيث عرف من إخوانه أن رسول الله ﷺ قال:

« احثوا في وجوه المداحين التراب » .

وهم الذين يتسكعون على أبواب الأمراء والملوك وزعماء القبائل يكيلون لهم ألوان المديح بالحق والباطل ليصلوا إلى أموالهم .

لكنه عرف كذلك من قول الله جل شأنه أن القيمة الحقيقية للإنسان ليست في رأي الناس فيه وإنما في منزلته عند ربه ؛ وذلك عندما تلا قوله تعالى : (فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) وتعلّم من رسول الله أدب الإسلام في الثناء وذلك في أن يقول لمن يود مديحه:

احسبه كذا ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحداً .

وعرف المقصود من الذبح أنه يولّد في نفس الممدوح غروراً قاتلاً أشبه مايكون بذبحه،حيث قد سمع شبهاً لهذا المعنى من بعض إخوانه الذي روى له عن رسول الله ﷺ قوله لأحد المادحين لأخٍ له :

« قطعت عنق صاحبك » .

إنه يحس أن نفسه تطهر يوماً بعد يوم ، وتزكو ساعة بعد ساعة وهو يغبق من رحيق النبوة ، ويسعى جاهداً أن يقوم بكل مايسمعه من رسول الله بدقة متناهية . بل ويبلغه لإخوانه ليقوموا به.

لقد كان أسعد ما يكون يوم يرى الناس يقفون إجلالاً له . أما الآن ، وما أن يقف له بعض اتباعه حتى يأمرهم بعدم الوقوف ،

وذهلوا لذلك ، وسألوه : فقال لهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار (١) .

وانتقل معاوية من السلبيات إلى الايجابيات . لقد حرص على تنفيذ أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) . فاجتنب كل ما نهى رسول الله عنه ، وصفّى نفسه من آثار الجاهلية ، وها هو الآن يتجه إلى أن يمضي قدماً في تزكية نفسه بالعمل الصالح . ويحرص على أن يكون أساس العمل طيباً زكياً لأن الله تعالى لا يقبل إلا طيباً . خاصة وقد سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إنما الأعمال كالوعاء . إذا طاب أسفله طاب أعلاه ، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه » (٢) .

فخرج يوماً إلى المسجد وجلس بنفس هادئة رضية يذكر الله عز وجل مع إخوانه فخرج عليهم رسول الله ﷺ . قال : ما يجلسكم ؟

قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومنّ علينا به .

فقال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟!

---

(١) سنن الترمذي اخرجه عن معاوية بن أبي سفيان باب كراهية القيام رقم ٢٩٠٣ وهو حديث حسن .

(٢) سنن الترمذي أخرجه عن معاوية بن أبي سفيان، أبواب الدعوات ، وقال عنه : حديث حسن غريب .

قالوا : آلله ما اجلسنا إلا ذاك .

قال : أما إني لم أستحلفكم تهمـة لكم ، إنـه أتاني جبريل واخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته (١) .

وحفظ في فقه الصلاة عن رسول الله ﷺ :

« لا تبادروني بالركوع ولا بالسجود . فمهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني به إذا رفعت ، ومهما أسبقكم بـه إذا سجـدت تدركوني به إذا رفعت . إني قد بدّنت» .

وحفظ عنه قوله عن المؤذنين :

« المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » .

وحفظ أحاديث كثيرة ، لكن ثلاثة أحاديث كان لها أعمق الأثر في نفس معاوية وبدا أثرها واضحاً خلال خط حياته كلها :

الحديث الأول : حديث الطائفة الظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله .

الحديث الثاني : « الا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هـذه الأمة ستفترق على ثـلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة . (وزاد ابن يحيى وعمرو) وإنه ستخرج من أمتي اقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولامفصل إلا دخـله .

---

(١) سنن الترمـذي أخرجـه عن معاويـة بن أبي سفيـان، ابواب الدعوات ، وقال عنه : حديث حسن غريب .

الحديث الثالث : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

لقد كان معاوية رضي الله عنه حريصاً أشد الحرص على أن يكون من هذه الطائفة القائمة على الحق . كما كان حريصاً على أن يكون من الفرقة الناجية . ولا شك أن هذه الفرقة الناجية هي الثابتة على الحق القائمة بأمر الله . ويسعده أن يكون أميرها لأن رسول الله ﷺ بشره انه سيملك ، وسيقمصه الله قميصاً .

ولكن بينه وبين الحكم أشواط وأشواط . فذاك وائل بن حجر يفد إلى رسول الله ﷺ ـ بقية أبناء الملوك في اليمن . وسارع معاوية ليراه . وشدّ انتباهه ترحيب رسول الله ﷺ به حتى ليبسط له رداءه ليجلس عليه . وما ودعه حتى دعا له وأقطعه أرضاً يعرف معاوية قيمتها . وجاء أمر رسول الله ﷺ له بأن يذهب مع وائل بن حجر ليعطيها إياه . فاغتبط معاوية لذلك . ورجا أن يسعد بصحبته . لكنه عاد يجترّ مرارة تلك الصحبة . فقد شوت الأرض قدميه ووائل يركب على ناقته . فقال له : أعطني نعلك : فأجابه وائل : انتعل ظل الناقة . فقال له : أردفني خلفك . فقال له وائل : لا تكون من أرداف الملوك[1] . تجرع معاوية غصص تلك الصحبة ، وعرف أن الملك لا يأتي لقمة سائغة .

ولا يمكن أن يأتي إلا عن طريق الجهاد ، وأن يمضي قدماً في بلاد الله يغبر قدميه في سبيل الله . مهاجراً من ارض إلى أرض ، وينتقل من معركة إلى معركة .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٩١. وقد رواه أبو داود والترمذي وصححه ح/١٠٨١ .

ومن أجل هذا ما إن قبض رسول الله، ونهل من علمه ما نهل. حتى كان صافاً قدميه في عداد المجاهدين في سبيل الله .

ووطن نفسه على أن يطوي صفحة حياته السابقة كواحد من أهل مكة المعاندين للدعوة ، وعلى أن يخوض غمار الجهاد غير عابىء بكل ما يجره عليه من متاعب وبلاء وتضحيات ، فلقد وقر في قلبه حديث رسول الله ﷺ :

« لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة » .

* * *

أمراء في سبيل الله

بدأت الكتائب الغازية في سبيل الله تنطلق إلى ساحات الجهاد. وكان لا بد لشباب مكة أن يتقدم ويحمل مسؤولياته ، فقد كفاه ما قام به من صدٍ عن سبيل الله ، ولا بد له أن يكفِّر عن سيئاته ، ويصارع الشرك كما صارع الإسلام .

وطالما أن قيادة مكة كانت كلها بيد أبي سفيان ، وقد غدا شيخاً مسناً ؛ فكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى يزيد ابنه ليكون واحداً من الأمراءالذين اوكل إليهم جانب مهم من الفتوح الخطيرة .

واختار الصدِّيق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان لفتح دمشق عاصمة بلاد الشام ، وكان جمهور الناس مع يزيد ، وخرج الخليفة الصديق يودعه ماشياً إلى خارج المدينة ويزيد امير الجيش راكباً ، فقال للخليفة :

إما أن تركب وإما أن انزل .

فأجابه : ما انا براكب ولا انت بنازل ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله . ولم ينسَ أن يشيعه بوصيته التاريخية المشهورة، والتي نذكر منها :

« يا يزيد إنك شاب تذكر بالخير قد رئي منك ، وذلك لشيء خلوت به في نفسك . وقد اردت أن أبلوك واستخرجك من أهلك .

فانظر كيف انت ؟ وكيف ولايتك ، فإن أحسنت زدتــك ، وإن أسأت عزلتك (١) .

وعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك. وإياك وعبية الجاهلية ؛ فإن الله يبغضها ويبغض اهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ... وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا مــن عسكرك وهم جاهلون به ... وامنع من قِبَلك عن محادثتهم ، وكن انت المتولي لكلامهم .. واسمر في الليل في أصحابك تأتك الأخبار.. واكثر حرسك وبددهم في عسكرك ... ستجدون قوماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا انفسهم له »(٢) .

ولم يجد أبو سفيان غضاضة في أن يمضي مع هــذا الجيش الغازي ، فهو يحس ان الراية لا تزال في يده طالما أن ابنه يزيد هو الذي يحملها ، وشكر للصدّيق صنيعه هذا فدعا له بخير ، وقال : وصلته رحم .

ورأى بأم عينه كيف تنقلب الموازين رأساً على عقب، فالصدّيق ـ الذي كان كما قال عنه في بداية خلافته : من اذل حي في قريش وأقله ـ يصبح اليوم صاحب الكلمة العليا في الدولة الإسلامية . وغدا كبار قريش جنوداً تحت لواء ابنه يزيد ، وكان الخطر يقترب رويداً رويداً ، والمسلمون يواجهون كل يوم جموعاً من العدو إلى

---

(١) حياة الصحابة نشر دار القلم ج٢ ص ٢٦٧ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير دار صادر ودار بيروت .

أن آذنت ساعة اللقاء الحاسم معه . واجتمع القادة الكبار : يزيد وشرحبيل وعمرو وخالد وأبو عبيدة لبحث الموقف ، وبلغ ابا سفيان الأمر ــ وقد تحركت في قلبه ذكريات الماضي القريب يوم لم يكن يقطع براي ولا يبت بمشورة دونه ــ وترك هواجسه نهبة لهذه الأفكار ، ومضى ليلتقي مع القادة ليخططوا لأشرس لقاء وأعنفه بين المسلمين والروم .

استقبله يزيد بحفاوة ، وعمرو وخالد كذلك ــ وهم من رفاقه السابقين فيما مضى من حروب ــ وهنا قدّم الراي التالي : وهو أن يتجزأ الجيش إلى ثلاثة أجزاء ، فيسير ثلثه فينزلون تجاهالروم، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر ، ويتأخر خالد بالثلث .

وحان موعد اللقاء ، وكان الروم في العدد اضعاف المسلمين ، فكان لا بد من تحريك العواطف ودفع الطاقاتإلىاقصى مدىًممكن.

وخطب عدد من القادة ، وكان لا بد لأبي سفيان أن يخطب وهو شيخ القوم ، فقال ــ وهو يستعرض في ناظريه اربعين الفاً من المسلمين تحت لواء الإسلام ــ :

يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد اصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ،نائين عن امير المؤمنين ، وامداد المسلمين .

وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، قد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم . والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة . الا وإنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم بينكم وبين امير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ليس

لأحد فيها معقل ولا معول إلا الصبر ؛ رجاء ما وعد الله فهو خير معوّل . فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون (١) .

ثم ذهب إلى النساء فوصاهن ثم عاد فنادى :

يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم (٢) .

وكان معاوية جندياً من جنود المسلمين يتأهب لأول لقاء مع الروم ، وقد وجد في نفسه راحة يوم راى أخاه يزيد على راس الجيش الإسلامي .

إنه في هذه المعركة يحس بحماس عجيب واندفاع عميق ، إنه يقاتل ببسالة وشجاعة في هذه الحرب ، اليوم يحس بانسجام كامل بين الهدف العظيم الذي يقاتل من اجله وبين أغوار نفسه . فلقد انتهى من ذلك الازدواج المقيت الذي كان يعانيه يوم آمن بالإسلام ، ولم يجرؤ على إظهاره خوفاً من امه وابيه . يوم كانت امه تهدده بأبيه الذي سيقطع عنه القوت ، ويوم كان أبوه يعيّره بأن أخاه يزيد خير منه وهو على دين أبيه .

كم كان يعاني في تلك الفترة من قلق نفسي وصراع داخلي ، بين ما آمن به وبين ما فرض عليه من سلوك ، لكن ما أسعده اليوم فها هو وأبوه وامه وأخوه جميعاً جنود في سبيل الله .

وكان أكثر ما سره وهو يستمع إلى خطبة أبيه أن المسحة الجاهلية قد ذهبت نهائياً منه . إن المعاني التي يطرقها والقيم التي

(١-٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٩ .

يوضحها إسلامية صرفة، فحديثه عن امير المؤمنين وجماعة المسلمين. لقد انتهى إلى غير رجعة هبل الذي نادى باسمه يوم أحد بعد أن تحطم يوم فتح مكة . ومضى إلى غير عودة حديثه عن قريش وآلهتها ، والعزى التي اعتز بها يوم أحد حين نادى المسلمين : لنا العزّى ولا عزّى لكم . إنه اليوم أمام الروم أعداء الله يحدد للمسلمين أعظم أمانيهم : رسول الله والجنة ، ويحذرهم من عدوهم الرهيب من الشيطان والنار .

ولم يكتف أبو سفيان بهذا ، بل إنه كلما حامت غمامة حروبه ضد رسول الله على فكره ، لاذ اكثر وأكثر بالإسلام ، ويود لو يقضي شهيداً إلى ربه ليكفر عن سيئاته تلك ، فكان يمضي إلى كل كردوس على حدة يخطب ويعظ قائلاً : (الله ، الله ، إنكم ذادة العرب وانصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وانصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك)(١) .

كانت المعركة ضارية رهيبة ، وكان القتال عنيفاً لا هوادة فيه، وأبو سفيان يرى هول القتال فلا يقر له قرار يريد أن يوجه كل طاقات المقاتلين ليبرزوا كل ما عندهم من إمكانات . لقد اضطرت ضراوة القتال عمرو بن العاص ان يتراجع حتى ليصل إلى النساء ، وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه .

فأتاهم وَعَظَ خالدٌ هزّ كيانهم كله وسمعوا قولالله عز وجل:

« إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٩ .

والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

وراع هذا التراجع أبا سفيان ، وخشي أن يتراجع ابنه يزيد فيصير إلى العار والنار . وتقدم نحوه ، وشق الجموع حتى صار بقربه وراح يعظه قائلاً :

(يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمر المسلمين ؟! أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ، ولا أجرأ على عدو الإسلام منك) (١) وكان يزيد من أسعد الناس بأبيه ، وهو يذكره بالله . فقال وقد قرت عينه وتمالك أعصابه : أفعل إن شاء الله .

وثبت يزيد ثباتاً حسناً ، فكان عند حسن ظن أبيه فيه ، فقاتل قتالاً شديداً وكان في ناحية القلب .

وهدات الأصوات ولم يبق هناك إلا صوت تلاقي الأسنة ، وارتطام الأجساد بالأرض ؛ وكان كما قال المسيب ــ والد سعيد ــ: هدات الأصوات يوم اليرموك ، فسمعنا صوتاً يكاد يملأ المعسكر يقول : يا نصر الله اقترب . الثبات الثبات يا معشر المسلمين .

قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ .

وابلى الأبطال بـلاء حسناً وتقـدم عكرمة بن ابي جهل إلى المسلمين يناديهم : من يبايعني على الاقدام والموت . .

وعاهده اربعمائة من المسلمين على ذلك، ونادى أبطال المسلمين قائلاً :

قاتلتُ رسول الله في كل موطن ، وأفر منهم اليوم . مـن يبايعني على الموت ؟؟ وكان هذا الحشد مـن الأبطال هو الحصن الذي تكسرت على أعتابه هجمات الروم وارتدت على أعقابها خاسرة، ليتابع المسلمون هجومهم بعد ذلك ويأذن الله بالنصر .

* * *

يزيد أمير دمشق

حين غادر أبو سفيان المدينة ، بعد أن ودّع الخليفة العظيم أبا بكر الصديق ؛ وعده إن فتح الله على المسلمين دمشق ان تكون إمرتها لابنه يزيد. ويوم كان الحصار مضروباً على دمشق من كل جانب كان نصيب يزيد وعسكره في الحصار باب الجابية الصغير ، ومن أجل هذا ما إن فتحت دمشق حتى أوكل امرها ليزيد رضي الله عنه.

لم يركن يزيد إلى الدعة، فالأرض حوله لا تزال كافرة، تلك التي لم تصل إليها بعد فتوح الإسلام ، فوجه (دحية بن خليفة الكلبي إلى تدمر في سرية ليمهدوا امرها، وبعث ابا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران وصالح أهلها) (١) ولم يقف الأمر عند حوران وتدمر . فكما قال ابو عبيد القاسم بن سلام(افتتح خالد دمشق صلحاً وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحاً دون أراضيها. فعلى يدي يزيدبن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وابي عبيدة) (٢) .

كان على يزيد أن يحمي دمشق وما حولها غرة مدن الشام ، وهي التي كان يقيم بها قادة الروم وعظماؤهم . ولقد احسئُوا بأمرٍ من الشوك يوم غادروها ، وكان خالد رضي الله عنه قد مضى بخيله إلى حمص ليفتحها .

(١ و ٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٤ .

أما « توذرا » قائد جيش الروم فكان يعض أصابعه ندماً وغيظاً على هزيمته المنكرة من المسلمين، وراح يمعن فكره ، فرأى ان الحامية التي بقيت في دمشق قليلة، وبرز له الراي الذي يغسل به عار هزيمته كما تصور ، وهو أن ينهد إلى دمشق فيحتلها ثانية ويبيد حاميتها ، ولكن عين يزيد الساهرة لم تكن لتغفل عن مثل هذه المفاجأة ، فأعد للأمر عدته ، واحتاط اكثر فأكثر ، وأخبر خالداً بتوجه توذرا قائد الروم نحـوه . وكانت فرصة من اثمن الفرص للإجهـاز على جيش الروم . برز يزيد وجيشه من المسلمين للروم من الأمام ، وانقض عليهم خالد من الخلف،واعملوا فيهم قتلاً وضرباً (حتى اناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد ، وقتل خالـد « توذرا » واخـذوا من الروم اموالاً عظيمة فاقتسماها ، ورجع يزيد إلى دمشق ، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة) (١) .

* * *

لايزال معاوية الصامت يرنو إلى مجال يبرز فيه طاقاته ومواهبه والفتوحـات تمتد يمنة ويسرة ، ولايجد لنفسه فيهـا إلا الجندية الخالصة . بينما كـانت اعين الخليفة العظيم في المدينة تتطلع لأمثال هؤلاء الشبان ، وتتلهف لسماع أخبارهم ، وتعمل لاستثمار المكنوز من طاقاتهم . وكان من بين هؤلاء الشباب معاوية بن أبي سفيان الذي كانت الأنظار تتجاوزه فتنظر إلى ابيه واخيه ، لكن امير المؤمنين عمر لم يغفل عنه ، فقد اختاره في تجربة فريدة هي فتح قيسارية وكتب إليه رسالة هذا نصها :

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص٥٢ .

(أما بعد فقد وليتك قيسارية ، فسر إليهــا ، واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير) (١) .

لقد كانت الرسالة ضرورية وبهذه الصورة لشاب كمعاوية .

كان لابــد منها لكسر غرور الشباب الذي يمكن أن يتحرك من جراء إمرة جديدة ، ثم إذا ما تحقق النصر فلن يطال هذا الغرور ؟ .

كان البناء النفسي الذي يقوم به أمير المؤمنين ضرورة لازمة ، لابد للقائد من أن يعتمد على الله ، ولو فقد القائد المسلم هذه المعاني لكان أحد شيئين :

إما غرور بالنصر ، وهذا يقود إلى الكبر .

وإما انهيار بالهزيمة ، وتحطم للأعصاب في أول معركة يقودها ؛ خاصة وهو يواجه عدواً شرساً لاقبل له به في مقياس العدد والعدة ، وهذا يعني انحساره وانتهاءه لأن يكون امرءاً ذا شأن في التاريخ .

إنه الإسلام العظيم الذي ربط نفوس الشباب باللهفي كل خطوة، وقيد أنفاس المقاتلين برجاء الله في كل لحظة .

وبذلك يتضح المفهوم الإسلامي المنبثق من العقيدة : أن النصر من عند الله « .. واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ، فنعم المولى ونعم النصير » .

ومضت هــذه الكلمة ترن في ضمير معاوية وهو يقود زحفــه الكبير على العدو فحاصر مدينة قيسارية ، لكن اعصاب أهلها كانت

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ ــ ٥٤ .

قوية متينة ، فزاحفوه مرات عديــدة ، وجرى الاشتباك بالسيوف والسنان ، وكان اللقاء الأخير الــذي ارتجت به الأرض ، وتساقط الفرسان ، وكادت الهزيمة أن تنال من المسلمين ، لولا ثبات معاوية وصبره ، وتصميمه على النصر ، ومقارعته الأبطال وإذان الله بشمس جديدة لتشرق على هذه الأرض .

بدأ المشركون يتزعزعون ويتراجعون، ثم ولّوا الأدبار،وسيوف المسلمين تقع عليهم من كل صوب ، وإذا بالآلاف من القتلى تهوي ، فيشتد الهول على المشركين، وترتفع نبضات الإيمان في قلوب المؤمنين فما ترى في المشركين إلا فاراً يبغي النجاة أو قتيلاً ذاق كأس المنية ، وكثر عدد القتلى كثرة عظيمة ، حتى لقد انجلت المعركة عن ثمانين ألف قتيل من المشركين ، بل لقد ارتفع العدد (وكمل إلى المائة ألف من الــذين انهزموا في المعركــة ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه) (١)

وكان هذا الفتح العظيم على يدي معاوية رضي الله عنه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة.

وكان يمكن لهذا الحادث لو كان فريداً أن يكون شغل الناس الشاغل (٢) . لكن الشباب الإسلامي يفتح في كل يوم أرضاً جديدة ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٤ .

(٢) لو لم يكن لمعاوية إلا هذه المعركة التي افتتح بها حياته العسكرية لكفته فخراً على مدى الدهر ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . إنه قاتل في فلسطين ، وفتح قيسارية ، وكان صرعاه مائة ألف من العدو . ومع هذا بقي الجندي الأمين الذي ينتظر أوامر قائده إلى لقاء جديد . والمسلمون اليوم ثمانمائة مليون مسلم وهم عاجزون عن تحرير شبر من أرض فلسطين . فمن هؤلاء ؟؟؟

ويخوض معركة عنيفة ، ولئن كانت الفتوح قد هدأت في الشام ، لكن العراق ما تزال تشتعل بالقتل والقتال ليل نهار في حرب ضارية مع الفرس . وتوجت فتوحات الشام بالفتح الأكبر ؛ فتح بيت المقدس على يدي الخليفة العظيم عمر رضوان الله عليه .

ومرت السنة السادسة عشرة هادئة لحدٍ ما في الشام ، بينما كانت الأرض الإسلامية تموج بالسرور لانهيار المدائن عاصمة الفرس على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

★ ★ ★

معاوية الأمير

واقبلت السنة السابعة عشرة وكانت تحمل في ثناياها المصاعب والمحن بالنسبة للمسلمين ، فلقد اتجه الروم من جديد إلى أبيعبيدة ليحاصروه كما فعلوا مع يزيد من قبل ، واحتاط أمين الأمة للأمر ، فطلب الأمداد من عاصمة الخلافة (المدينة) ، وتحرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ليحمي المسلمين ويذود عنهم ؛ بعد أن ولّى على المدينة علي بن أبي طالب ؛ لولا أن ثناه المسلمون عن الخروج بنفسه . واضطر أبو عبيدة رضي الله عنه أن يخوض الحرب فخاضها غير عابىء بأخطارها ، وحقق الله النصر قبل وصول أمداد المدينة وأمداد العراق .

وكان المدد من العراق قد تحرك في فرقتين عظيمتين : على رأس الأولى منها القعقاع بن عمرو ، وعلى رأس الثانية منها عياض بن غَنْم ، بينما وصل أمير المؤمنين إلى الجابية ،واستطاعت حمص المسلمة أن تصد الهجوم وتفك الحصار .

أما المحنة الثانية التي شهدتها هذه السنة فهي طاعون عَمَواس الذي نزل بالمسلمين نزول المطر على الأرض ، فكانوا يتساقطون صرعى منه ، ولما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيباً فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبيعبيدةحظه.

فطُعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل . فقام خطيباً بعده فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن معاذاً يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم .

فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا لنفسه فطُعن في راحته ، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقلّب ظهر كفه ثم يقول :

ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا (١) . .

وكانت دمشق تشهد المحنة نفسها ، وكان أميرها يزيد بن أبي سفيان .

وكان عمر رضي الله عنه يشعر بالألم على وفاة أمرائه ، فلقد حاول جاهداً إنقاذ أمين الأمة أبي عبيدة رضي الله عنه ، لكن أبا عبيدة رفض مغادرة الشام أسوة بإخوانه المسلمين ، وعندما كان الخليفة العظيم يقرأ كتاب أبي عبيدة إليه اغرورقت عيناه بالدموع . فسئل :

أومات أبو عبيدة ؟؟

فأجاب : وكأن قد !!

وما هي إلا أيام قلائل حتى تناهى إليه نبأ وفاة أحب أمرائه إليه : أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيدبن أبيسفيان . وأصبحت الأردن ودمشق بلا أمراء .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٧٨ — ٧٩ .

أما الأردن : فولى عليها شرحبيل بن حسنة ، الذي كان أحد الأمراء ، وساهم في فتوح الشام مع إخوانه الآخرين .

وتطلعت الأنظار إلى دمشق من سيكون أميرها ، وفكر الناس في صاحب هذه الكفاءة العالية الذي سيختاره عمر ، فما عرف عنه إلا أنه يختار الأمراء الذين هم من هذا القبيل .

أما عمر رضي الله عنه فلم ينس لمعاوية بطولته ، وأنه صاحب الفتح العظيم في قيسارية ، ولم ينس له بلاءه في فتوح الشام ، ولم يغب عن ذهنه ــ وهو العبقري ــ كفاءة معاوية العظيمة، وفاجأ الخليفة المسلمين بمعاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق وخراجها ، بعد أن كان قد اضطلع بعبء القيادة وأثبت أنه ابن بجدتها ، وسيقت إليه الإمارة سوقاً حين أثبت كفاءته لها . وآن الأوان لابن أبي سفيان أن يبرز مكنون طاقته وهو على كرسي الإمارة .

لقد كان موطن ثقة أمير المؤمنين ، وموطن ثقة أمه هند بنت عتبة وأبيه أبي سفيان .

لما ولّى عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من الشام ، خرج إليه معاوية ، فقال أبو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعاً لابني!

فقالت : إن اضطربت خيل العرب ، فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني .

(وكان يزيد ولد أبي سفيان من غير هند)(١) .

فلما جاء البريد إلى عمر بموت يزيد . ردّ عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيه يزيد .

---

(١) البداية والنهاية ١١٨/٨ .

(ثم عزّى ابا سفيان في ابنه يزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين من وليت مكانه ؟

قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتَ رحماً يا أمير المؤمنين) (١) .

أماهند بنت عتبة ــ أم معاوية ــ فلقد جاء اليوم الذي كانت تتطلع إليه ، ورات أن ابنها قد صار أميراً ، وأيقنت أنه سوف يسود العرب قاطبة كما تنبأت له عندما كان يحبو .

فبعثت له وصيتها الخالدة، ليكون عند حسن ظن أمير المؤمنين، وعلى المستوى الرفيع الذي يريده له . فكان مما قالته :

(.. والله يابني إنه قلّ أن تلد حرةٌ مثلك . وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر . فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت)(٢) .

أما وصية ابي سفيان الذي حنكته التجارب وعجمه الدهر فكانت :

(يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصَّر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعاً ، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم ، فإنك تجري إلى أمد فنافس ، فإن بلغتــه أورثته عقبك) (٣) .



(١ــ٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١١٨ .

واخذ معاوية ينتظر سانحة أخرى ليخوض غمار الجهاد في سبيل الله . ولقد فاته خير كثير أيام رسول الله ﷺ ، ولكن الحرب تبطىء عليه ، ووجد في الإمارة متسعاً لأن يتحبب إلى الناس ويتحبب الناس إليه .

وقحط المسلمون في بلاد الحجاز ، وبلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً ، واستغاث الخليفة بمعاوية وعمرو وأسرع معاوية في تلبية نداء الخليفة ، وساق إليه الابل الموقرة بالطعام ، وساهم عمرو بن العاص في مصر في كشف ازمة المسلمين التي أخذت بخناقهم عام الرمادة حتى رحم الله الناس وسقاهم من عميم فضله .

وكانت تتناهى إلى سمع معاوية انباء الفتوحات في العراق ، فيطرب لها ، ويود لو أن له فيها أو في غيرها نصيباً .

ومرت سنة بعد سنة، وجاءت سنة واحد وعشرين، وتحركت كتائب المسلمين بقيادته لغزو الصائفة فأوغل في أرض الروم ، وقد انضوى تحت لوائه العديد من أصحاب رسول الله الذين لم يعرفوا للراحة مذاقاً إلا على متون الخيل ؛ كلما سمعوا هيْعة طاروا إليها .

وعاد ابن الثامنة والثلاثين من غزوه مظفراً منصوراً ، وقد غنم ورجع سالماً ليرى زوجه وقد وضعت له وليده الحبيب ، فسماه يزيداً تيمناً بعمه يزيد بن أبي سفيان .

وجدّ معاوية في امتطاء الخيل وركوب المخاطر ، وساق الجيوش في غزو الصائفة عام اثنين وعشرين ، وكذا في عام ثلاث وعشرين ، وانضوى تحت لواء الجهاد الذي رفعه جملة من سادة الصحابة ، فهذا عبادة بن الصامت ، وهذا أبو ذر الغفاري ، وذاك شداد بن أوس في جملة من صحابة رسول الله ﷺ وكلهم اتجهوا إلى

ارض الروم فتحاً وجهاداً في سبيل الله .. وتنساح الأرض امامهم ويتقدمون ويوغلون في موعود الله في الأرض التي وعدهم إياها حتى طرقوا أبواب عمورية ، ثم عادوا بالفتح والنصر والخير . واخذ المال يتدفق على المسلمين ، وشعر المسلمون في الشام بأن فضلاً عميماً من الله قد أصابهم فالانتصارات تتوالى على الثغور ، والمال قد أصبح وفيراً في أيديهم ، واميرهم معاوية خير الأمراء شجاعة وسياسة وكرماً وحلماً .



كانت الأنباء تتوالى على المدينة بالانتصارات الميمونة على يدي معاوية ، وعزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ان يزور الشام وساق معه جماعة من جلة الصحابة .

وتناهى الأمر إلى معاوية ، فأعد موكباً ضخماً لاستقبال أمير المؤمنين ، وخرج خارج دمشق مع الموكب لاستقباله ، وبينما هو ماضٍ مع موكبه ما راعه إلا احد خاصته يناديه : ايها الأمير ، ايها الأمير . فالتفت إليه فقال له :

إنك جاوزت أمير المؤمنين .

وكانت مفاجأة محرجة ، فعاد سريعاً ليلتقي مع عمر رضي الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف راكبين على حمار ، فما ان رآهما حتى نزل عن فرسه واسرع نحو الخليفة .

وكان الغضب بادياً في وجه عمر . فقال له :

انت صاحب الموكب ؟!

قال معاوية : نعم يا امير المؤمنين .

قال : هــذا حالك مــع ما بلغني مــن طــول وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟

قال :هو ما بلغك من ذلك .

قال عمر : ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت ان آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز .

قال معاوية وهو رابط الجأش ثابت العزيمة :

يا أمير المؤمنين ، إنّا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم به.

(ثم صمت هنيهة) وقال : فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت .

قال عمر (وهو ينكث بُدرّته بعد صمت قليل) : يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس ، لئن كان ما قلت حقاً إنه لراي اريب ، ولئن كان باطلاً إنه لخدعة اديب .

قال معاوية : فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت .. قال عمر : لا آمرك ولا انهاك .

والتفت عبد الرحمن بن عوف إلى عمر والســرور بادٍ على وجهه وقال : ما احسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه .

فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه(١).



---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٢٤ .

عرف الروم أن الأمر جد ، وأن غريمهم معاوية لن يرجع حتى يوسع أرضهم غزواً وفتحاً . فهاتان سنتان متتاليتان تمران وفي كل سنة يسوق معاوية إليهم الجيش الغازي ، ويوغل في أرضهم ، وراح الروم يرقبون تحركاته ، ويعبئون الكتائب تلو الكتائب لهجوم شامل على أرض الإسلام .

ومضى معاوية من نصر إلى نصر ، فما إن انتهى من أرض الروم في الصائفة حتى توجه إلى فلسطين ثانية ، فلا يزال له معها موقف آخر فلم يكد أهل عسقلان ينعمون بالراحة ويطمئنون حتى وجدوا الجيش الإسلامي يحاصرها ، وسألوا عن أمير الجيش فعرفوا أنه معاوية .

معاوية ذاك الذي ذاق أهل قيسارية على يديه الأمرّين . معاوية صاحب المائة الف في قيسارية بين قتيل وجريح وأسير . وعسقلان بيد الروم ، ومعاوية يريد أن يزلزل الأرض من تحتهم . فبعد أن دك أرضهم في الشمال كان لا بد من التفاف جديد من الجنوب ، حيث تقوم عسقلان ولم تفتح بعد .

وعرف الروم قائد جيش المسلمين فدب الوهن في قلوبهم ، وتضعضعوا ، وخارت عزائمهم رعباً من أن يحل بهم ما حل بأهل قيسارية . فأذعنوا ومضوا خفافاً يطلبون الصلح من معاوية ، فأجابهم إلى ذلك ، ونزلت كتائب الإسلام في الأرض الجديدة لتعلن فيها كلمة التوحيد .

لم تكن مهمة المسلمين إذاً أن يبيدوا الناس أو يحطموا الآمنين، لقد كانوا أصحاب رسالة ، فما إن نزل العدو على حكمهم حتى

استجابوا للصلح راغبين ، ليزيلوا القوة والسلطان والطاغوت الذي يحول بين الناس وشريعة الله . حتى تبلغ شريعة الله كل نفس وتمس شغاف كل قلب . وبعدها ـ بعد أن يتبين الرشد من الغي ـ فلا إكراه في الدين . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

* * *

وتاقت نفس الأمير معاوية إلى مدينة الرسول ﷺ ، وإلى روابي مكة والبيت الحرام ، فما إن اهل موسم الحج حتى توجه مع بعض اكابر المسلمين إلى المدينة ، وعلى عادته ، فلقد كان موكبه مثيراً للأنظار ، وكان أهل المدينة ونسوتها يتحدثن عن هذا الوافد العظيم .

يقول أسلم مولى عمر رضي الله عنه :

قدم علينا معاوية وهو ابيض نص وباص ، أبض الناس وأجملهم .

ودخل على عمر وعليه حلة خضراء .

فاستلفتت نظر الصحابة جميعاً لجمالها وفتنتها .

أما عمر أمير المؤمنين فماذا فعل ؟

وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها !!

وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين الله الله في !!

(لم تخنه حكمته ، وضبط أعصابه والدرة تنهال على رأسه أمام الناس جميعاً) .

ورجع عمر إلى مجلسه ، فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين ؟ وما في قومك مثله ؟! فقال : والله ما رايت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رايتم .

ولكن رايته ـ واشار بيده ـ فأضع منه ما شمخ(١) .

وساد الوجوم والصمت على القوم ، وعرف الناس أن امير المؤمنين هو مؤدب الأمراء فاطرقوا واجمين .

لقد كان عمر أدرى الناس بمعاوية وكما شهد له : والله ما رايت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولكن يريد ان يذلل منه كبرياءه حتى لا يتعالى على رعيته ، ولا يدفعه العجب والغرور إلى الباطل .

آب معاوية إلى الشام بعد أن حج مع عمر ، واستغل الروم هذه الفرصة ، وجمعوا أكبر حامية ليغزو بها ارض الإسلام . لكن معاوية الأمير الشاب لم يكن ليغفل لحظة واحدة عن مثـل هـذه التحركات ، فما إن علم بالجمع الكبير الذي يجمعه الروم حتى بعث برسالة على جناح السرعة إلى عمر رضي الله عنه يطلب منه الغوث.

وكان خريفاً ساخناً بالنسبة للمسلمين .

لقد مضى عمر أمير المؤمنين إلى جوار ربه في عام ثلاثةوعشرين للهجرة ، واختار المسلمون عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفـة من بعده ، وكانت أول مشكلة واجهها عثمان رضـي الله عنه هي الكتاب الذي انتهى إليه بتأهب الروم لغزو الشام .

لقد كان معاوية يمتاز بالحيطة والحذر ، لذا اخذ للأمر أهبته، إذ أخبر المدينة بالأمر قبل ان يستوي الأمر ناضجاً ويستفحل ،

---

(١) البداية والنهاية ج٨ ص ١٢٥ .

ووجه عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى العراق لواليه الوليد بن عقبة يأمره فيه أن يمد أهل الشام على حرب الروم ، وفي الكتاب :

إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم في الشام .

« فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وندب الناس وحثهم على الجهاد ومعاونة معاوية وأهل الشام . وأمَّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام . فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف ، فبعثهم إلى الشام وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري »(1) .

لقد انتهت قيادة الجيش المتجه إلى الروم إلى حبيب . وكان معاوية على ثقة بهذا القائد . وكان حبيب أهلاً لهذه الثقة .

ها هم الأعداء قد اقتربوا في ثمانين ألفاً من الروم والترك ، فلم يجزع حبيب ولم يهن (فعزم على أن يبيّت جيش الروم ، فسمعته امرأته يقول للأمراءذلك) .

فباتت ليلتها ساهرة تفكر في مصير زوجها الحبيب .

قالت له : فأين موعدي معك ؟

ورنا زوجها ابن مسلمة بعيداً إلى الأفق وقال لها كلمته الخالدة :

---

(1) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠٥ .

موعدك سرادق الموريان أو الجنة . (والموريان قائد جيش الروم) . وبينما كان الروم غفاة يحلمون في نصر هنيء ، لم يشعروا إلا وكتائب المسلمين تحيط بهم من كل جانب ، وارتفعت الله أكبر فزلزلت بهم مقامهم من كل جانب . وكان موعد اللقاء في سرادق الموريان .

دخل حبيب إلى السرادق فراعه لأول وهلة إنسان هناك ، وهو يعلم أن الموريان ذبيح ؛ وما إن ركز بصره حتى أفاق من الذهول . إنها امرأته سبقته إلى سرادق الموريان ، فكانت رمز البطولة العظيمة للمراة المسلمة .

ومضى حشد الروم مبعثراً طريداً يطلب النجاة ولا يدركها ، وكان درساً قاسياً للروم في الشام خضّد شوكتهم إلى الأبد .

وذهب القلق الذي ساور أمير الشام من أعدائه ، وتابع معاوية سيرته الحسنة في ولايته انطلاقاً من مبادىء الإسلام العظيم الذي يدين به . وتتابعت سنوات أربع لم يكن فيها فتح يذكر ، ولكن الفتوحات الأخرى ملأت الأرض بالخير واوسعت المسلمين عطاءً . ونظر معاوية ذات يوم إلى الدنيا ، وقد أقبلت عليه فانفتح لها صدره ، ثم عاد بذاكرته وراء وراء فشهد عمر رضي الله عنه وقد جاءه على حماره ذات يوم ، واتعبه وهو يركض وراءه ، ويذكر أبا بكر وما خلّف لعمر ، وينظر حوله في قصره ونعيمه وسرره . فيتنهد قائلاً :

اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، واما عمر فارادته ولم يردها ، واما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن (١) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٣٤ .

هذه السنوات الأربع التي مرت على معاوية لم تكن لتقنعه بأن يركن إلى الدعة. لقد كان صاحب الهموم الكبار والآمال العراض. وكان على رأس تلك الهموم، تفكيره بأعظم جزيرة في البحر مجاورة إليه. ولم يكن يريد أن يرى حوله إلا بحراً إسلامياً تعلو فيه كلمة التوحيد، وبقاء هذه الجزيرة بأيدي الروم يؤرقه. لقد استأذن عمر رضي الله عنه في فتحها فلم يأذن له، ولم يرض بأن يخاطر بالمسلمين في ركوب البحر. واستأذن عثمان فلم يأذن له. ورغم رفض عثمان لكنه ما زال يحن إلى ذلك المجهول، فأعاد الكرة، وألح والحف في الطلب فأذن له.

قبل سنين خلت قد تكون عشرين عاماً أو تزيد، دخل رسول الله ﷺ على أم حرَام بنت ملحان فنام عندها، ولم يكن أحد في الدنيا أسعد منها أن يقيل عندها رسول الله، ثم استيقظ عليه الصلاة والسلام وهو يضحك. فقالت: يا رسول الله ما أضحكك؟

فقال: أناس من أمتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة.

وخفق قلب أم حرام خفقاً شديداً، وتاقت نفسها أن تكون بين هؤلاء المجاهدين فقالت:

يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم.

فقال: أنت منهم.

وأحست أنها ملكت الدنيا بأسرها.

ثم نام رسول الله ﷺ فاستيقظ وهو يضحك. فقال مثل ذلك. فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال : انت من الأولين(١) .

وتصرّمت السنون ، وام حرام تنام على احلامها أن تكون غازية في البحر إلى أن كان وتحقق موعود رسول الله لها في غزو قبرص .

* * *

لم يكن إذنْ عثمان ليأتي دون قيد ، فلا يزال موقف عمر رضي الله عنه من البحر وقوله فيه يرن صداه في اذنه يوم كتب إلى معاوية هذا الكلام :

« والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا احمل فيه مسلماً أبداً ، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض ، فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض . فكيف احمل الجنود على هذا الكافر (المستصعب) ؟! وبالله لمسلمٌ (واحد) أحب إلي مما حوت الروم ، وإياك أن تعرض إلي (وقد تقدمت إليك) فقد علمت ما لقي العلاء مني (ولم أتقدم إليه بمثل ذلك) . »(٢) .

لم يكن لمثل هذا القول أن يمر دون أن يجعل لدى أمير المؤمنين عثمان بعض الحيطة والحذر في أمر هذا الغزو .

إنها مغامرة جسورة باسلة تلك التي يدعو إليها معاوية أن يركب المسلمون للمرة الأولى في البحر . فكتب عثمان رضي الله عنه إلى معاوية : (لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه) (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٧ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٤٠ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٨ .

ووصل الكتاب إلى معاوية فلم يفت ذلك في عضده ، ودعا الناس وحثهم على الجهاد ، فتراكض بين يديه كبار الصحابة يلبون النداء ؛ منهم : أبو ذر الغفاري،وعبادة بن الصامت،وزوجته أم حرام بنت ملحان ، والمقداد بن عمرو ، وأبو الدرداء ، وشداد بن أوس . ومضى الجيش على السفن لأول مرة كما وصفهم رسول الله ﷺ كالملوك على الأسرة . ولأول مرة في تاريخ الإسلام يركب المسلمون البحر في الشام بقيادة اميرهم معاوية حتى يصلوا إلى قبرص ويحاصرونها ، وتوجه عبد الله بن سعد من مصر . فالتقى الجيشان على حصونها ، وفوجىء القبرصيون بالحصار فصمدوا ، وصمدوا ، ثم بدات أعصابهم تنهار ، وزادهم ينفد . فلم يكن لهم بدّ من الاستسلام والمصالحة .

قبل المسلمون ذلك ، وكانت الجزية سبعة آلاف دينار كل سنة ، وكما كانوا يؤدون إلى الروم .

ولكن أضيف إلى الصلح شرطان أساسيان :

« ١ ــ عليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم

٢ ــ ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم »(١) .

وعاد المسلمون بالنصر والغنائم والأسرى ، ووقع نظر جبير بن نفير على ابي الدرداء رضي الله عنه ، فراعه انه يبكي . فتقدم منه وقال له :

(ما يبكيك في يوم اعز الله فيه الإسلام واهله ، وأذل فيه الكفر واهله ؟)

---

(١) الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠ .

ورفع أبو الدرداء راسه ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتقدم من جبير فضرب منكبه بيده وقال له :

(ثكلتك أمــك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى ، فسلط الله عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة) (١) .

وبدأ الجيش الإسلامي يتحرك ليؤوب إلى الشام ، وتقدمت أم حرام بنت ملحان من بغلتها ، وهي سعيدة أن حقق الله لها موعود نبيّه ، وشهدت بأم عينيها نصر المسلمين العظيم . وأتت لتركب البغلة ، وتنضم إلى الجيش القافل الميمون طائره ، وما إن استوت عليها حتى انتفضت البغلة ، والقتها عن ظهرها فأهوت على عنقها على الأرض فإذا هي جثة هامدة. وبلغ الخبر زوجها عبادة بن الصامت فهاجت شجونه ، وبلغ الخبر المسلمين فخيم عليهم الحزن العميق فترة وجيزة لوفاة هذه المجاهدة العظيمة ، ثم اجتمعوا جميعــاً ليشهدوا جنازتها وواروها الثرى في قبرص ؛ لتبقى ذكرى خالدة للمسلمات المجاهدات في سبيل الله ، وما زال الناس يتبركون بهــا كلما زاروها ، ويطلقون على قبرها : قبر المرأة الصالحة .



---

(١) الكامل ج٣ ص٤٠،البداية والنهاية لابن كثير ج٧ص١٥٣ .

غـيُـوم في الأفق

عاش المسلمون ما مضى من سنوات خلافة عثمان في عافية ورخاء ؛ فالغنائم قد فتحت عليهـم أبواب الخير ، وهيأت سبل الثراء ، وشاع الأمن والغنى في صفوفهم ، وتحركت الضغينة في قلوب الأعداء ، وباتوا لا يقر لهم قرار لما يرون من وحدة الكلمة ، وشيوع الطمأنينة ، وانصراف المسلمين إلى الجهاد .

تحركت أصابع اليهودية التي ذاقت شر هزيمة في خيبر ، وكان هذا في العام الثلاثين للهجرة ، وذلك بتخطيط رهيب وعجيب ، واختارت دمشق لتبيض فيها وتفرخ ، وذلك لما تعرفه من سماحة حاكمها معاوية وحلمه . وكان على رأس هذه الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادّعى الإسلام .

وعاد أبو ذر رضي الله عنه بين من غادوا من الغزو ، وراعه انكباب الناس على دنياهم ، وفيض الثروة بين أيديهم . وكان رأيه أن هذا المال يجب أن ينفق كله في سبيل الله ، وهو يخشى عـلى القلوب من التغير ، والانصراف إلى الدنيا ، فمضى ينذر الناس ، ويذكرهم بالآخرة ويقول لهم :

يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم .

وكان هناك القاعدون المتخلفون عن الجهاد ، والمتخلفون عن العمل ، والمتسكعون في الطرقات ؛ يرون في هذا الرأي ما يهيىء لهم ثروة وهم نائمون . فأعجبهم هذا الراي ، واستطاع عبد الله بن سبأ أن يهيىء الجو المناسب في الظلام لتحويل المسلمين من دعاة إلى الله إلى متصارعين على الدنيا . فأخذ يزين لهم هذا القول ، ويستغله كما يهوى ، فتحرك الفقراء يطالبون الأغنياء بأموالهم .

وبينا أبو ذر يتحدث ذات يوم إذ يقف له واحد من المتحمسين ويقول له :

يا أبا ذر الا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله . الا إن كل شيء لله ؛ كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين !!

وينظر ابو ذر إلى هذا الرجل ويصمت ــ وكان الرجل ابن سبأ ــ وعرف ان هذا باب من ابواب الفتنة ، قد يستغله هذا الرجل ، فأجمع امره ، وقرر المضي إلى الأمير معاوية يحذره مغبة الأمر .

رحب معاوية بأبي ذر وأدناه . ثم قال أبو ذر له :

ــ ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال الله ؟

يقول معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، السنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟!

كان أبو ذر لا ينكر من قول معاوية رضي الله عنه شيئاً . ولكنه علم أن هذا القول سيستغله الموتورون . فأجابه قائلاً :

فلا تقــله .

وقال معاوية بعتب نزولاً على راي أبي ذر :

سأقول مال المسلمين .

واطمأن ابو ذر رضي الله عنه ، ومضى راضياً من اميره .

لكن معاوية لم يكن ليغفل عما يجري في المجتمع ، فقد أتته الأخبار عن ذلك الشغب الذي يريد المفرضون إثارته ، وافضى إلى عبادة بن الصامت بتلك الأخبار ، وراح يرقب الجو باهتمام .

كان أبو ذر الغفاري يرى أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من قوت يومه ؛ كان هذا مذهبه وهذه صورة عيشه التي رأى عليها النبي ﷺ ، فتابعه عليها وبقي لا يغير ولا يبدل زمن خلفائه من بعده أبي بكر وعمر وعثمان ، وكانت آراء أبي ذر تثير الناس على الأغنياء ، وكان هناك من يفسد في الظلام .

ووجد ابن السوداء أن عبادة بن الصامت في زهده وتقلله من الدنيا صورة صادقة عن أبي ذر ، وطمع أن يستجيب له كما طمع من قبل بأبي الدرداء ، فأعرض أبو الدرداء عنه . فأتى إلى ابن الصامت على أمل أن يحرك عجلة جديدة في الفتنة .

لقد استطاع أن يتملص من بين يدي أبي الدرداء حين اكتفى بأن يقول له :

من أنت ؟ اظنك والله يهودياً !!

وحسب أن الأمر إذا انتهى بإثارة الشبهة عليه فسيختفي منه وينسل من بين يديه كما انسل من بين يدي أبي الدرداء .

ولكن مثل عبادة لا يمكن أن يفلت منه اليهودي الخبيث، فحين قال له ما قال ، قبض عليه وساقه إلى معاوية قائلاً له : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .

فلقد ربط عبادة رضي الله عنه بين القولين .. بين ما احتج ابن سبأ به على معاوية امامه ، وبين ما ذكر له معاوية من أمره مع أبي ذر أمامه .

وما تحرك ابو ذر إلا لقمع فتنة هذا اليهودي .

مضى ابو ذر في دعوته يحدو الركب إلى الله ، ويدعو الناس إلى التقلل من الدنيا والزهد فيها . وحار معاوية في النتائج الخطيرة التي تنتج عن هذه الدعوة ، ففكر في محاولة معينة يجعل بها أبا ذر يكف عن دعوته حتى لا تستفحل ، إنه لا يجرؤ على أن يمنع أبا ذر عن الدعوة إلى الزهد .

بعث معاوية بألف دينار إلى ابي ذر ، ليرى كيف سيتصرف بها ، ثم انه أمل أن يهدّىء من هذه الفورة لديه ، ولعله لم يكن يعرف جوهر هذا الصحابي العظيم .

وصلت الدنانير لأبي ذر ، وكان قـد آلى على نفسه أن يلقى حبيبه رسول الله على الحالة التي تركه عليها ؛ ومن اجل هذا ما إن وصلت الدنانير الألف ليديه حتى فرقها من ليلته ، ولم يبق منها دينارٌ واحدٌ في بيته.

ومع الغَلَس دعا معاوية رسوله قائلاً له : اذهب إلى أبي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه ارسلني إلى غيرك وإني اخطات بك .

وصل الرسول إلى ابي ذر وعرض عليه أمره ، فقال الزاهد العظيم :

يا بني قل له : والله ما اصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها .

وعاد الرسول بجواب ابي ذر ، فاذهل ذلك معاوية ؛ إذ لم يكن يتصور أن يكون احد من الناس يستطيع أن يكون على ماكان عليه أبو ذر ، فقوله يصدق فعله ، وإنه ليرفض أن يحتفظ بدينار واحد لحاجته ، بل يفرق الألف دينار غير عابىء بكل مايمكن أن تحقق له من متاع ورياش ونعيم . ومثل هذا السلوك سوف يفتن الناس ، يوم يرون الداعية إلى الزهد على هذا المستوى ، ومن عادة الناس أن يؤخذوا بالعظماء ويفتنوا بهم . فلم يكن امام معاوية رضي الله عنه بدٌ من أن يبعث إلى أمير المؤمنين عثمان يطلب منه أن يستدعي أبا ذر إليه ، ويخبره بآثار دعوته ؛ خصوصاً وانه بين اناس كلهم دونه فقهاً وورعاً وزهادة ، وبين أناس آخرين مستغلين يريدون أن يستحكم الخلاف ، ويتصدع الصف من الداخل . وبهذا يتجهون جميعاً إلى معاوية يطالبونه ان ينفق كل ما لديه من مال المسلمين ، وفي ذلك هلاك الأمة وضياع الثغور . فكتب إلى عثمان أنّ أبا ذر قد ضيق عليه ، وقدم له شرحاً مسهباً للوضع الذي أخذ يفكر به الفقراء .

فكتب عثمان رضي الله عنه ــ وكان يراقب عن كثب تأثر بعض الناس بأقوال مثيري الفتنة في المدينة ــ إلى معاوية يقول له :

« إن الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا ان تثب فلا تنكأ القرح ، وجهز ابا ذر إلي وابعث معه دليلاً (وزوده وارفق بــه) . وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت (١) » .

---

(١) الطبري . ج٣ ص٣٣٦ .

ووجد أبو ذر نفسه أمام أمر أمير المؤمنين له بالتوجه إلى المدينة، فمضى مع الدليل متوجهاً برعاية الله إليها ، وخلّف لمعاوية اثقالاً كباراً في الشام سرعان ما استطاع معاوية السياسي الأريب أن يزيحها عن كاهله ، وبمهـارة فائقة تمكن من أن يرأب الصدع ، ويوحد الكلمة ، ويقضي على فتنة ابن سبأ في المهد . ولم يكن يغيظ العدو شيء كما تغيظه وحدة كلمة المسلمين ، وتغيظه شخصية معاوية القوية التي تجمع الطاقات كلها ضد العدو المشترك .

* * *

إسفين في قمّة النصر

أصبح معاوية منذ اربع سنين الشخصية الأولى والوحيدة في بلاد الشام كلها . لقد رزق كفاءة ممتازة ، وموهبة نادرة ، وظهرت آثارهما منذ أن تسنم الأمر في دمشق بعد وفاة أخيه يزيد رضي الله عنه ، وكانت معه الأردن كذلك . أما كيف انضمت حمص إلى دمشق ، فحديثها عند عمر رضي الله عنه يوم نزل المرض بالصحابي العظيم عمير بن سعد ، فاستعفى عمر من الولاية ، فقبل الفاروق رضي الله عنه استعفاءه ، وتوجهت الأنظار إلى من يكون خلفاً للصحابي العظيم عمير بن سعد . وكان عمر يقلب الأمر من كل وجوهه ، ثم أعلن عزمته العمرية أن معاوية هو أمير حمص كذلك .

كان معاوية يتوقد ذكاءً وحيوية ، وكان شيوخ الصحابة لا يرون هذا الاختيار لمعاوية ؛ لحداثة سنه ، ولأن في المسلمين من هو أفضل منه ، وأقدم سابقة ، وارسخ جهاداً منه . فبدات الأفواه تهمس وما لبثت أن تعالت قائلة : ولّى حديث السن !!

فقال عمر رضي الله عنه بصوته القوي :

تلوموني في ولايته وانا سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به (١) .

---

(١) رجح الحافظ ابن كثير ان القائل هو عمر رضي الله عنه وليس عمير بن سعد انظر البداية والنهاية ج٨ ص١٢٢ . وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن ابي عميرة مثله وقال : حديث حسن غريب . البداية والنهاية ج٨ ص١٢١ .

فهل يتلكأ عمر وقد سمع مثل هذه الدعوة لمعاوية من رسول الله ﷺ في أن يوليه كل الشام ؟؟!

لا يمكنه ان يفعل ذلك، وهو لا ينسى كذلك يوم دعا رسول الله معاوية واشهده مع أبي بكر وعمر وشيوخ الصحابة أمور المسلمين واستشاره فيها، وقال في وصيته الخالدة بمعاوية : احضروه أمركم وأشهدوه أمركم فإنه قوي أمين (١) .

وعندما بدأ الناس يتحدثون متبرمين ويقولون :

عزل عميراً وولى معاوية .

قال عمير بن سعد :

لاتذكروا معاوية إلا بخير . فإني سمعت رسول الله ﷺ قال لمعاوية : اللهم اهدِ به (٢) .

وكلما امتد الزمن بمعاوية ، كلما استتب الأمن أكثر ، وتحقق الهناء والرفاه والراحة للمسلمين في ولايته .

وتشاء قدرة الله أن يتوفىعبد الرحمن بن علقمة واليفلسطين، فلا يتردد عثمان أمير المؤمنين أن يضم فلسطين إلى معاوية ، وبذلك يغدو ابن أبي سفيان سيد الشام كلّها بلا منازع . وعرف الروم أن استقرار معاوية في هذه الأرض هو كالشجى في حلوقهم ، فقرروا أن تكون العملية الانتحارية الأخيرة ، فإما أن يستردوا الشام ،

---

(١) أخرجه الطبراني ، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ .

(٢) رواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني ، ثم رجح ابن كثير انه من رواية عمر لاعمير البداية والنهاية ج٨ ص١٢٢ .

وينهوا الإسلام في هذه الأرض ، وإما ان يكون حتفهم فيها .. وهكذا كانت غزوة ذات الصواري ، واوكلت قيادة جيش المسلمين فيها إلى عبد الله بن سعد بن ابي سرح .. وجاء اوان اللقاء ، وتزاحف الجيشان .. (ولما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلّبون، وبات المسلمون يقرؤون ويصلون . فلما اصبحوا صف عبد الله بن سعد اصحابه صفوفاً في المراكب وامرهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

قال بعض من حضر ذلك : فأقبلوا إلينا في امر لم ير مثله من كثرة المراكب وعقدوا صواريها ، وكانت الريح لهم وعلينا ، فأرسينا، ثم سكنت الريح عنا فقلنا لهم : إن شئتم خرجنا نحن وانتم إلى البر ، فمات الأعجل منا ومنكم . قالَ : فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا : الماء الماء . قال : فدنونا منهم ، وربطنا سفننا بسفنهم ، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف ، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر ، وضربت الأمواج فيعيون تلك السفن حتى الجأتها إلى الساحل ، والقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء ، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط وقتل منهم بشر كثير ، ومن الروم اضعاف ذلك ، ثم انزل الله نصره على المسلمين ، فهرب قسطنطين وجيشه.. وبه جراحات كثيرة مكينة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك .

واقام عبد الله بن سعد بن ابي سرح بذات الصواري أياماً ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً) (١) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٥٧ .

وفي هـذا العام الذي سقط فيه قسطنطين بن هرقل مـع مراكبه الخمسمائة ـ وكان هذا إيذاناً بمصرع الروم ـ في هذا العام نفسه كان سقوط يزدجرد بن شهريار ذبيحاً في أرض خراسان .

كان هذا العام قمة الانتصارات الإسلامية في عهد الراشدين . وكان هذا العام إعلان تهاوي الامبراطوريتين الكبيرتين في الأرض فارس والروم بمقتل قادتهما . وكان شرفاً عظيماً لمعاوية ان يكون أمير الشام كلها في هذا العام . وكما تنبأ رسول الله ﷺ : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . فلقد كان مصرع قسطنطين على يد الروم انفسهم إذ وصل إلى صقلية (فسأله اهلهـا عن حاله فأخبرهم فقالوا : أهلكت النصرانيـة ، وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ، ثم ادخلوه الحمام وقتلوه ، وتركوا من كان معه في المركب ، واذنوا لهم بالمسير إلى القسطنطينية) (١) .

* * *

ومن القمة يبدأ الانحدار .

فعندما قبض على ابن سبأ في دمشق ، وشلت حركته ، ورأى أن تدبيره أصبح مكشوفـاً ؛ عرف انه لن يفلـح في دمشق بشيء . فعيون معاوية الساهرة له بالمرصـاد تراقب تحركاته وسكناته ، فاختفى بعيداً عن الأنظار ، ومضى إلى الأمصار الإسلامية الأخرى ، ليبث جحيم فتنته هناك ، وأسفر سعيه الخبيث عن ثمرة مرة في النيل من عثمان امير المؤمنين ، لقد ترك معاوية والنيل منه ووضع هدفه رأس النظام كله الخليفة العظيم عثمان ذا النورين .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣ ص ٥٩ .

ولئن لم ينجح في أن يتحرك من خلال ابي ذر وابي الدرداء وعبادة بن الصامت في دمشق . فلقد نجح في التحرك من خلال محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة في مصر ــ وكلاهما شابان طامحان في مقتبل العمر ــ فلم يكن عمر ابن أبي بكر ينوف عن اثنين وعشرين عاماً ، وكان ابن أبي حذيفة يقاربه في السن .

في قمة النصر بذات الصواري ، وذروة هذا الفتح المبين ، في هذا الجو الرائع العظيم انبعث محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة في تصويب سهامهم القاتلة ضد عثمان بن عفان امير المؤمنين وامرائه ، وضد قائد الفتح المظفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(فأظهرا عيب عثمان وما غيّر ، وما خالف أبا بكر وعمر ، وجعلا يقولان دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه ، وأخرج رسول الله أقواماً واستعملهم عثمان ، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) (١) .

ولنقف ملياً امام هذا النقد العنيف الذي يوجهه ابن أبي بكر، وابن ابي حذيفة لعثمان رضوان الله عليه :

أولاً : اظهرا عيب عثمان ، وما غيّر وما خالف أبا بكر وعمر.

ولعثمان رضي الله عنه الحق كل الحق في أن يجتهد ويطاع في اجتهاده . وليس أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حجة على عثمان، إنما الحجة عليه كتاب الله وسنة رسوله . ولقد خالف عمر أبا بكر

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص١٥٧ . وهي رواية الواقدي عن معمر عن الزهري .

رضي الله عنهما في عدد من القضايا ؛ فلِمَ لم تثر عليه هذه المطاعن ؟! لقد خالفه في توزيع المال ، وجعله حسب أفضلية المسلم وسابقته ، بينما كان أبو بكر يوزع المال على السواء بين المسلمين ، وخالفه في توزيع الأراضي على المقاتلين ، وخالفه في احتجاز الصحابة لديه في المدينة ولم يقم أحد ليعترض عليه . فلماذا تثار هذه المطاعن على عثمــان ؟!

ثانياً : (ويقولان : دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد ، وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه) .

وما الغرابة في ذلك ! لقد أصبح عبد الله بن سعد مصونــاً بحماية الإسلام منذ قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان فيه . وأصبح واحداً من المسلمين تشعل الحرب على من يسفك دمــه . وخطة الإسلام تمضي في عدم التعرض للماضي ، ودفنه .

لقد أهدر رسول الله ﷺ دم عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح ، ثم أسلم وحسن إسلامه وقاتل وقتل يوم اليرموك شهيداً . ولقد وجدنا عمر يقبل أن يكون في الجيش الإسلامي المتنبئون الذين أعلنوا توبتهم مثل طلحة بن خويلد الأسدي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي الذي سقط شهيداً عقب نهاوند . ومادام أن عبد الله بن سعد قد قبلت توبته ؛ له حق العيش بين المسلمين ، وله الحق في أن يتولى المنصب الذي يرتئيه الخليفة بعد أن دفن الماضي المشين في غياهب النسيان ، والإسلام يجبُّ ما قبله .

ثالثاً : (وقالا : أخرج رسول الله ﷺ أقوامــاً واستعملهم عثمــان) .

ولا غرابة في ذلك ، فعثمان رضي الله عنه لايرقى الشك إلى فقهه ؛ فلئن كان رسول الله ﷺ قد أخرج أقواماً من المدينة ، وذلك

يوم كان لهم باع طويل في حرب الإسلام والحقد عليه . ومر الزمن واصبح يقتضي عودة هؤلاء إلى احضان المدينة ليغسلوا العار القديم، وينضموا إلى المجتمع الإسلامي . لقد حضروا على ملأ من اصحاب محمد ﷺ ، وفي الأصحاب: الستة المبشرون بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان ، وكبار المهاجرين والأنصار ، ولم نجد من هؤلاء من وجه نقداً إلى عثمان بهذا الصدد ، وهو الخليفة المأذون بالاجتهاد والمشورة والتنفيذ . وإذا كان إدخالهم إلى المدينة لايعني خطأ تشريعياً ، فلا غرابة بعد أن يستعملهم أمير المؤمنين عثمان ، فحق تعيين الولاة وعزلهم هو مـن اختصاص الخليفة وحـده في النظام الإسلامي .

ولنحاول أن نتصور اللوحة المغايرة :

لنتصور أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أعاد إلى المدينة من نفاهم رسول الله منهـا ، فكيف يكون وضعهم الجديد في المجتمـع الإسلامي ؟؟

سوف يكونون كالقذى بين ابنـاء هـذا المجتمع ، فماضيهم سيىء، ورؤية الناس لهم بين ظهرانيهم تثير كل احاسيس الماضي المشين لهؤلاء لصدهم عن سبيل الله . وهذا يعني أن الخليفة سوف يقتلهم بغمهم وماضيهم . دون أن يفسح لهم المجال بفسل هـذا العـار بالجهاد والتضحيات ليتسنى للنـاس نسيان ماضيهم بحاضرهم العظيم .

هـذا مالم يفعله الإسلام ابـداً . لقد وجدنا رسول الله ﷺ يبعث خالداً في سرية مؤتة ، ولم يمض على إسلامه سوى عدة اشهر ويبعث عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل اميراً وهو حديث

الإسلام بعد . ثم يؤمر خالداً في عدد من سراياه ؛ وذلك ليتيح المجال لهذه النوعيات الوافدة أن تمارس الجهاد ، وتمارس التضحية ، وتمارس الالتحام بالمجتمع الإسلامي ، وتصبح لها صفحات فخار في سبيل الله تطوي بها صفحات الصد عن سبيل الله . وهذا ما اختاره أمير المؤمنين رضوان الله عليه . لقد استعمل هؤلاء حتى يمارسوا عملية الانضمام والالتحام هذه على هدي رسول الله صلوات الله عليه وهدي صاحبيه الصديق والفاروق .

ثم ماذا نقم الناس على عثمان .

رابعاً : (نزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) .

ولماذا لم ينقم الناس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد فعل مثل ذلك ؟! ألم ينزع سعد بن أبي وقاص ، وعمار بن ياسر ــ وهما من هما منزلة وسابقة في الإسلام ــ ويولي المغيرة بن شعبة.

ألم ينزع عمير بن سعد أو يعفيه ــ وهو الصحابي الأنصاري العظيم ــ ويولي معاوية بن أبي سفيان من مسلمة الفتح .

هذا وإذا كان النقد لعثمان موجهاً في الأصل لأنه ولى أقاربه؛ فلذلك دوافع فكرية وسياسية اقتضته أن يفعل ذلك . فعثمان بن عفان رضي الله عنه من القبيلة التي حملت راية الكفر حتى آخر لحظة ، وحملت راية الصراع ضد الإسلام ــ وهي قبيلة كبيرة ، وعريقة في النسب، إنه من بني أمية ــ ولقد بقي أبو سفيان زعيم بني أمية يقاتل ويقود الجيوش ومعه معظم قبيلته ، وبقية المشركين حتى أسلم يوم الفتح . وإذا عدنا أدراجنا لحظات بسيطة إلى الوراء ، ووقفنا مع ساعات صلح الحديبية لاستوقفتنا الحادثة التالية :

لقد طلب رسول الله ﷺ من عمر بن الخطاب أن يمضي رسولاً إلى مكة يبلغهم سبب مقدم رسول الله ﷺ ، وانـه جاء معتمراً لا مقاتلاً . فماذا كان جوابه ؟

قال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عـداوتي إياها ، وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان ابن عفـان .

فعمر رضي الله عنه من قبيلة مغمورة ، لم يبرز منها إلا القليل. أما عثمان فمن بني أمية التي حملت لـواء الشرك ضد الإسلام . وعندما دخل الناس في دين الله أفواجاً انكفأ بنو أمية يجترون آلامهم خجلاً ، ويستغفرون الله ندماً وتوبة . والجميع ينظرون إليهم نظرة مملوءة بالرثاء ، إن لم تكن بالشحناء لما صدوا عن سبيل الله . ومن أجل هذا عندما استلم عثمان أمير المؤمنين ، كان لابد أن يعيد لهؤلاء اعتبارهم ، ويضعهم على محك التجارب ، ويرميهم في لجج المغامرات والجهاد في سبيـل الله ، ويهيىء لهم الجو لينالوا مانال غيرهم من شرف الجهاد في سبيل الله ، والتفاني من أجل العقيدة . فلقد كان طبيعياً أن يستلم كثير من بني أمية مقاليد الأمور ، وأثبتوا جدارة فائقة في مهام القيادة ، واضطلاعاً عظيماً في فنون الولاية ، وصح فيهم حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

ولندع محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة . ولنشهد نتفاً يسيرة من بركة أمير المؤمنين عثمان في تولية ابن عـامر الذي نقموا توليته .

في العـام الثاني والثلاثين ، وفي الوقت الذي كان الجيش في الشام يعد الأهبة للمسير نحو أرض الروم بقيادة معاوية بن أبي سفيان، كان قد حمل لواء الجهاد في أرض الفرس والترك عبد الله بن عامر ، وأظهر مهـارة فائقة في القيادة ، وكتب الله على يديه نصراً عظيماً فرح فيه المؤمنون ، وغم فيه المنافقون ، إنه في الوقت الذي سقط فيه محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفـة ــ غفر الله لهما ــ في شَرَكِ ابن سبأ اليهودي دون أن يعلما بذلك ، حينما كانا يوجهان النقد لابن عامر ولأمير المؤمنين عثمان ، ولعبد الله بن سعد ابن أبي سرح .. في هـذا الوقت كان ابن سعد هو الذي قاد أعظم نصر في المغرب الإسلامي وفي أعظم معركة بحرية مـع الروم كانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، في معركة ذات الصواري حيث كان فيها خمسمائة سفينة للعدو، وهرب قسطنطين ملك الروم يلعق جراحه. وكانت نهاية الروم في مصر ، حيث تابـع فتحه الميمون في النوبة وأفريقيـة .

اما في المشرق الإسلامي . فلقد كان عبد الله بن عامر على رأس الجيش الاسلامي يوغل في بلاد الفرس وخراسان ، ففي هذه السنة الثانية والثلاثين فتح ابن عـامر « مرو الروذ » و « الطالقـان » و « الفارياب » و « الجوزجان » و « طخارستان » وكان هذا الفتح بعد فتوحات العام السابق عام الواحد والثلاثين . ولنضع أمامنا هاتين الصورتين :

الأولى في العام الواحد والثلاثين كما ذكر ابن كثير :

(وفي هذه السنة فتـح ابن عامر فتوحات كثيرة كـان قد نقض أهلها ماكان لهم من صلح . فمن ذلك مافتح عنوة ، ومن ذلك

مافتح صلحاً ، فكان في جملة ماصالح عليه بعض المدائن وهي مرو على ألفي ألف ومائتي ألف . وقيـل على ستة آلاف ألف ومائتي ألف) (١) .

أي أن بعض الغنائم التي سيقت للمسلمين أو الجزية التي تم الصلح عليها : مليونان ومائتا ألف درهم على الرواية الأولى ، وستة ملايين ومائتا ألف على الرواية الثانية .

أما الصورة الثانية : فهي في العام التالي عام الثاني والثلاثين للهجرة . فتح فيهـا على يد ابن عامر مرو الروذ ، والطالقـان ، والفارياب ، والجوزجان ، وطخارستان .

فقيل لابن عامر من أجل ذلك : (ما فتح على أحد ما فتـح عليك ، فارس وكرمان وسجستان وعامر وخراسان .

فقال : لاجرم لأجعلنّ شكري لله على ذلك ان احرم بعمرة من موقفي هذا مشمراً فأحرم بعمرة من نيسابور) (١) .

ماذا يضير محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة من عبد الله ابن سعد بن أبي سرح حامي ثغر الإسلام في المغرب الإسلامي ، ومن عبد الله بن عامر حامي ثغر الإسلام في المشرق الإسلامي !! وكم كان الإسلام بخير لولا تلك المؤامرات الداخلية التي كان عبد الله بن سبأ يديرها فيثير أموراً مصطنعة ضد الخليفة الإسلامي وامرائه !!

لقد راعه وافزعه هذا النصر هو وحزبه ، فلم يكن أمامه بدّ من إثارة الحرب الداخلية . ولئن كان ابن سعد في المغرب الإسلامي،

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ج٧ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

وكان ابن عامر في المشرق الإسلامي ؛ فأين كان معاوية بن أبي سفيان حامي ثغر الشام ، والشمال الإسلامي كله ؟!

لقد كان معاوية يطرق أبواب القسطنطينية ، ويغزوها مع المسلمين ، وحوصر العدو وكان من الممكن أن ينهار وتفتح الأرض كلها أبوابها للمسلمين ؛ لولا تلك المحنة الداخلية التي خطط لها اليهود في كل صقع ، فوقف حماة الثغور عند ثغورهم . في المغرب الإسلامي ابن سعد ، وفي المشرق الإسلامي ابن عامر . وفي الشمال الإسلامي ابن أبي سفيان ، لتتجه الأنظار إلى أعنف فتنة داخلية عرفها تاريخ صدر الإسلام .

* * *

دُعاة الفِتـنَة ومُعاويـَة

كتب عثمان إلى معاوية قائلاً :

(إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة . فرعهم وقم عليهم ، فإن آنست منهم رَشَداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم) .

فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ماكان يجري عليهم بالعراق ، وجعل لايزال يتغدى ويتعشى معهم . فقال لهم يوماً :

(إنكم قوم من العرب لكم أسنان والسنة . وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ومواريثهم . وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم) .

لقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة فله من فصاحته وبلاغته ، وله من حلمه وصبره ، وله من ذكائه ودهائه ، ما يواجه به الفتن . ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها ، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه مابوسعه من أجل اقناع هؤلاء النفر . أكرمهم أولاً ، وخالطهم وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نقل عنهم . وبعد أن أزال الوحشة عنهم وأزال الكلفة بينه

وبينهم ، لاحظ أن النعرة القبلية هي التي تحركهم ، وأن شهوة الحكم والسلطة هي التي تثيرهم ، فكان لابد أن يلح عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : اثر الإسلام في عزة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام وتحمل اعبائه .

فإن كان للإسلام اثر في تكوينهم ، فلا بد أن يرعووا لهذا الحديث .

بعد هذا وضع امامهم صورة لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد ، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء ، والقبلية المنتنة .

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول :

(إن ائمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة(1) فلا تشذوا عن جُنتكم ، وإن ائمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة . والله لتنتهن او ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لايحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم .

فقال رجل من القوم :

اما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن اكثر العرب ، ولا امنعها في الجاهلية فتخوفنا . وأما ما ذكرت من الجُنَّة ، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا .

فقال معاوية :

عرفتكم الآن ، علمت أن الذي اغراكم على هذا قلة العقول . وانت خطيب القوم . ولا ارى لك عقلاً .

---

(1) وقاية .

أعظِم عليك أمر الإسلام ، واذكّرك به ، وتذكرني الجاهلية ؟! وقد وعظتك وتزعم لما يُجنك انه يخترق . ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنّة ، أخزى الله اقواماً أعظموا أمركم ، ورفعوا إلى خليفتكم .

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم . لابد من شرح مسهب لواقع قريش العربي أولاً فقال :

(افقهوا ولا اظنكم تفقهون ان قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عزوجل .

لم تكن بأكثر العرب ولا اشدهم .

ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم انساباً ، واعظمهم أخطاراً ، واكملهم مروءة .

ولم يمتنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضاً ـ إلا بالله الذي لايُستذل من أعز ، ولا يوضع من رفع .

فبوأهم حرماً آمناً يُتخطف الناس من حولهم .

هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً او حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة ، إلا ماكان من قريش . فإنه لم يردهم احد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل .

حتى أراد الله أن يتنقذ من اكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له أصحاباً . فكان خيارهم قريشاً ، ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخليفة فيهم ، ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله . أفتراه لايحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم ؟!

أفٍ لك ولأصحابك،ولو أن متكلماً غيرك تكلم، ولكنك ابتدات؛ فأما أنت يا صعصعة : فإن قريتك شر قرى عربية انتنها نبتاً ، وأعمقها وادياً ، وأعرفها بالشر ، والأمها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سبَّ بها وكانت عليه هجنة . ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً ، والأمة أصهاراً ، نزاع الأمم ، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس .

حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ ، ونكبتك دعوته ، وأنت نزيع شطير في عمان لم تسكن البحرين ، فتشركهم في دعوة النبي ﷺ ؛ فأنت شر قومك . حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس ، وحملك على الأمم التي كانت عليك ؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً ، وتنزع إلى اللآمة والذلة . ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولن يمنعهم من تأدية ماعليهم .

إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس ، وهو صارعكم . لقد علم أنه لايستطيع ان يرد بكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أراده الله . ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى » . ثم قام وتركهم .

وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية لإقناعهم :

● عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام . وأي مسلمٍ في الأرض لم تمرَّ عليه سورة الفيل التي حدثنا الله فيها عن هلاك أبرهة وجيشه ، وحمى قريشاً إكراماً لبيته . وأي مسلمٍ لم تمرَّ عليه سورة قريش بمعرض المنّ على هذه القبيلة التي أكرمها الله ببيتــه :

(لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف) .

وقول الله عزوجل في معرض المنّ على هذه القبيلة :

(أوَلم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؛ افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) ؟!

فلقد كان إنعام الله على قريش ــ على كفرها ــ إكراماً لبيته . فكيف يتخلى عنها في الإسلام ؟

وإذا أعدنا إلى الأذهان ايام الردة ، واحتجاج القبـائل على قريش لتوليها الأمر وقول الحطيئة شاعر الردّة آنذاك :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيالعبـاد الله ما لأبي بكـر

وكيف وقف قادة الامة آنذاك ــ ابو بكر الصديق ، والفاروق عمر بن الخطاب وامين الأمة ابو عبيدة بن الجراح ــ في وجه تلك العواصف الهوج يؤكدون قول الرسول ﷺ إن الأمراء من قريش من جهة ، ومن جهة ثانية يؤكدون من الناحية السياسية أن العرب لاتدين إلا لقريش .

ولئن استجاب أنصار رسول الله ﷺ لأبي بكر خليفة رسول الله آنذاك . ووقفوا يداً واحدة في وجه الردة ؛ فقد عاد هؤلاء الرهط ليشعلوا الفتنة من جديد !!

وهذا معاوية يحاول أن يربط قريشاً بالله في الجاهلية ، يوم كانت حامية للبيت . ثم يعود ليتحدث عن دورها في الإسلام ، يوم حمل شبابها عبء الدعوة الأكبر ، وأن الله اعزها بالإسلام .

إنه حتى يوم فتح مكة ؛ حين كانت الراية مع سعد بن عبادة رضي الله عنه وقال يومها : اليوم اذل الله قريشاً .. إن رسول الله في ذلك اليوم لم يرض عن قول سعد ، واستلبه الراية ، وأعطاها لابنه قيس بن سعد وقال : اليوم اعز الله قريشاً .

● أما الفقرة الثانية من كلام معاوية رضي الله عنه: فقد تناولت قبائل هؤلاء النفر ، ووضعها في الجاهلية . حيث كانت تعاني سوء المناخ ونتن المنبت من الناحية الطبيعية ، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية . إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذل ، وارتقت بعد هوان .

● وكانت الفقرة الثالثة : تتناول صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثم عاد وانضم إلى الإسلام ، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار .

● والفقرة الرابعة من الخطبة : تكشف مخططات صعصعة وأصحابه ، وكيف يبغون الفتنة ، ويبغون دين الله عوجاً .

وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة ، ومحرك هذا الشر .

وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ثم بالإسلام والعقيدة ، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر ، وفضحهم عن آخرهم ، وأبان عن مخططاتهم وصلتها بدعوى الجاهلية .

* * *

ولدينا رواية أخرى يمكن الاطمئنان إليها .

ابتدأت الجلسة الثانية بقول معاوية رضي الله عنه :

وإني والله ما آمركم بشيء إلا قد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي وخاصتي ، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ماجعل الله لنبيه نبي الرحمة ﷺ . فإن الله انتخبه وأكرمه ، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلا أصفاه الله بأكرمها وأحسنها ، ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئاً في أحد إلا أكرمه

الله عنها ونزهه . وإني لأظن ان ابا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازمـاً) .

ولا ندري ماهو المجال والمناسبة للحديث عن ابي سفيان . ويمكن أن يكون الدافع إلى ذلك ما كانوا ينتقصونه به وأباه ؛ فاضطر إلى ذلك . وثارت عصبيتهم أكثر واكثر ، فقال صعصعة :

(كذبت قد ولدهم خير من أبي سفيان ؛ من خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وامر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس) .

وكان معهم جانب الحق في هـذا الموضوع . فلقد كان مديح معاوية لأبي سفيان أكبر من الواقع . ولقد الزموه الحجة فصمت ، وانهى معهم تلك الجلسة .

* * *

الجلسة الثالثة

(ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال :

أيهـا القوم ردوا عليَّ خيراً ، او اسكتوا وتفكروا ، وانظروا فيما ينفعكم وينفع اهليكم ، وينفـع عشائركم ، وينفـع جماعـة المسلمين . فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم .

قال صعصعة : لست بأهل لذلك ، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله .

معاوية : او ليس ما ابتداتكم به ان أمرتكم بتقوى الله ،وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا !! قالوا : بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ !! قال : فإني آمركم

الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ ، ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة ، وأن توقروا أئمتكم ،وتدلوهم على كل حسن ماقدرتم وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم .

صعصعة : فإنا نأمرك ان تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك .

معاوية : من هو ؟

قالوا : من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام .

معاوية : والله إن لي في الإسلام قدماً ، ولغيري كان أحسن قدماً مني ، ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني ؛ ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري . ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي . ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله . ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت أن لايعزم له على ذلك إلا وهو خير .

فمهلاً . فإن في ذلك وأشباهه مايتمنى الشيطان ويأمر . ولعمري لوكانت الأمور تقضى على رأيكم وامانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره ، فعاودوا الخير وقولوه .

قالوا : لست لذلك أهلاً !!

معاوية : اما والله إن لله سطوات ونقمات . وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر والخزي الدائم في الآجل .

فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه .

فقال : مه إن هذه ليست بأرض الكوفة . والله لو رأى أهل الشام ماصنعتم بي وأنا أمامهم ماملكت أن انهاهم عنكم حتى يقتلوكم . فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً .

ثم قام من عندهم فقال : والله لا ادخل عليكم مدخلاً ما بقيت) (١) .

إنها المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده ، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة .

إنه يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته ، والاستمساك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة . وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله . وبحلمه الكبير ، وصدره الواسع عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حد زعمهم فهو يتوب من المعصية إن وقعت . ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة والجماعة والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة . . ولو كان الوعظ يجدي معهم لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللطف ، وهذا الحلم .

لكنهم اعتبروا ذلك ضعفاً وتهاوناً منه . خاصة وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادىء في العظة ، واللين في النصح ، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم . فقالوا :

فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك .

---

(١) السري عن شعيب عن سيف . الطبري ج٣ ص٣٦٦-٣٦٧

وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكنئون، فأحب أن يتعرف على جانبٍ غامض عليه ، لعل في هذا التعرف ما يوصله إلى مــن يحركهم ويبث في ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنهم اخفوا ما يكنون، واكتفوا بالإشارة إلى أنهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن أبوه أفضل من أبيه . ثم تحلّم عليهم أكثر فأكثر . رغم الأسلوب الفج الذي سلكوه معه . وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل .

وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة ، وهي نقطة حساسة لابد أن ترتسم في ذهننا ، وتنطبع في قلوبنا ، ويمكننا الحكم من خلالها على كثير من تصرفات أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

وقد لخص معاوية إجابته في ست نقاط أساسية ومهمة :

الأولى :

هي أن له قِدَماً وسابقة في الإسلام . وهو لايقول ذلك تفاخراً وتباهياً ، بل إيضاحاً للحقيقة لدى هؤلاء المتعنتين. ولاغرو في ذلك. فهو حامي ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما . إنه كما رأينا مايمر عام إلا ويكون على رأس جيش المسلمين يفتح أرضاً أو يحاصر بلداً أو يحقق كسباً للإسلام في أرض جديدة وأناسي جدد . وهو الذي حول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية . ولئن فاته أن يكون له قصب السبق في معارك الإسلام الأولى قبل أن يسلم ، فإنه لم يأل جهداً في أن يقدم كــل إمكانياته وطاقاته المذخورة في سبيل الله بعد أن دخل في الإسلام .

الثانية :

أن هناك في المسلمين من هــو أفضل منه وأكــرم ، وأحسن

سابقة وأكثر بلاء . فهو لايضع نفسه فوق المسلمين ولكنه يرى أنه هو أقوى من يحمي هذا الثغر الإسلامي العظيم ــ الشام ــ فمنذ أن تولاه تمكن مــن ضبطه وسياسته ، وفهم نفسيــات أهله حتى أحبوه ، ولم يؤثروا أحــداً عليه . بينما نجد بقية الولايات والثغور لا تستقر على أمير ، ولا تهدأ فيها الثورات والفتن !! لقد كان قوياً ، وكان خليقاً بالإمارة ، ولم يكن من طرازه من الولاة أحد .

الثالثة :

إن الميزان الحساس ، والمعيار الدقيق الذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لاتأخذه في الله لومة لائم . فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرافاً أو ضعفاً لعزله ، ولما أبقى عليه يوماً واحداً . ولا يمكن أن يصل الشك أبداً إلى صرامة عمر في الحق واستقامته عليه ، وهو الذي إذا رآه الشيطان سالكاً فجاً هرب منه . فقد عمل له طيلة مدة خلافته ، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله ، واستخدمه كاتباً بين يديه . وولاه أبو بكر الصديق من بعده ، ولم يطعن في كفاءته أحد .

الرابعة :

إن اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال ؛ فما هي الحجة التي يقدمها دعاة الفتنة ليتم الاعتزال على أساسها ؟! لقد طلب ولو حادثة واحدة أو سبباً واحداً يعتزل من أجله العمل . وهو يريد من وراء ذلك أن يتعرف على مايحملونه في أنفسهم عليه ، وما يمكن أن يشيعوه من إشاعات لاشعال نار الفتنة في الأمة .

الخامسة :

إن الذي يقرر العزل عن العمل أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء . إن ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وهو

الذي له الحق في تعيين الولاة وعزلهم . إن أقصى ما يملكونه هـو النصح لأمرائهم وامرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وعليهم أن يرفضوا الطاعة إذا امروا بمعصية ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . هذا كله لهم،اما ان يكون لأي فرد الحق في العزل والتولية فهذا يعني الفوضى والضياع والفساد . وهذا ما اكده لهم معاوية رضي الله عنه :

(ولعمري لـــو كانت الأمـــور تقضى على رايكم وامـــانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة) .

السادسة :

وهي أروع مافي قوله ، إن امير المؤمنين عثمان يوم يقرر عزل معاوية ، فهو واثق ان أمره خير كله . ولا غضاضة في ذلك فهو امير مأمور وهو رهن امر خليفة المسلمين . ولو كان يرى نفسه اقوى المسلمين على هذه الإمارة فامر امير المؤمنين اكثر بركة من امره . وكما يقول رضي الله عنه :

(ولو راى ذلك امير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخط يده ، فاعتزلت عمله . ولو قضى الله ان يفعل ذلك لرجوت ان لا يعزم له على ذلك إلا وهو خير) .

كان ختام الجلسة مؤسفاً اشد الأسف ، مؤلماً اشد الألم . لقد حذرهم نقمة الله وغضبه ، وحذرهم مهاوي الشيطان ومنزلقاته وحذرهم فرقة الكلمة ومعصية الإمام،وحذرهم الانقياد إلى اهوائهم وغرورهم ، فماذا كان منهم مقابل ذلك ؟

وثبوا عليه ، وأخذوا برأسه ولحيته !!

وعندئذ زجرهم وقمعهم ووجه لهم كلامـاً قاسيـاً مبطّناً

بالتهديد . وعرف أن هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحق ، فلابد من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وكشف هوياتهم وخطرهم ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر ، فكتب إليه قائلاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد :

فإنك قد بعثتَ إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين ، وما يُملون عليهم ، ويأتون الناس – زعموا – من قبل القرآن ، فيشبِّهون على الناس وليس كل الناس يعلم مايريدون .

وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام واضجرهم ، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم ، وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم . فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام) (١) .

لقد كانت هذه الجلسات كافية ليعجم عودهم ، ويكشف باطنهم ، ويحدد هويتهم ، ولقد أكد لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن هؤلاء جند للشيطان،وأعداء للإسلام،يظهرون غير ما يبطنون، همهم إثارة الفتنة والشبهات في قلوب الناس ، ليزيغوا عن الحق . وقد نجحوا في هذه المهمة إلى حد كبير في إفساد الناس .

أما الراي بالنسبة لهم فهو حبسهم في مصرهم – الكوفة – والا يخرجوا منها حتى لايفسدوا غيرها . والراي بعدها لأمير المؤمنين .

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٦٦ – ٣٦٧ . سنة ٣٢

الفِتـنَة تخرج خَطمَها لِتَثِب

قدمت سنة خمس وثلاثين وهي تحمل في ثناياها عواصف هوجاً استطاع ابن سبأ أن يكون المحرك لها ، وندع وصف ابن سبأ ليزيد الفقعسي :

يقول : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء . فأسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم . فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام . فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول :

لعجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذّب بأن محمداً يرجع ؛ وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) . فمحمد أحق بالرجوع من عيسى .

قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها .

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان عليٌّ وصيّ محمد .

ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليٌّ خاتم الأوصياء .

ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة .

ثم قال لهم بعد ذلـك : إن عثمان اخذها بغير حق ، وهـذا وصي رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هـذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على امرائكم ، واظهروا الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر (١) .

إنه شرح كامل لحلقات المؤامرة من نقطة البدء إلى نقطـة الانتهـاء .

ابتدأ أولاً بالرجعة ، ووجد لهذا الراي قبولاً بين رعاع الناس ودهمائهم . وكلما تركزت حلقة من الفتنة ، انتقل بتؤدة ومكر إلى الحلقة الثانية ، من الرجعة إلى الوصاية ، ومن الوصاية للثورة على عثمان أمير المؤمنين .

أما طريق الوصول إلى ذلك ، فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظاهر الأمر . والطعن على الأمراء بخفاء : تخطيط دقيق ، وتنظيم محكم . وهو الذي نفذ بالفعل خطوة خطوة . ففجر الفتنة، وقاد الأمة إلى الدمار .

وهذه نماذج من التطبيق العملي لهذا التخطيط .

شهدنا أولاً موقف مفجري الفتنة من معاوية: يدعونه للاعتزال من الولاية ، ويشهّرون به ، وينقصون من قدره واهليته للحكم .

وهذا نموذج ثانٍ لهم مع سعيد بن العاص والي الكوفة ، وهو تتمة الحلقة مع مفجري الفتنة بعد أن غادروا الشام .

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٧٨ ، السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي .

اخرج معاوية رضي الله عنه دعاة الفتنة من الشام بعدما سمح له عثمان بذلك . واوجسوا خيفة من الاستقرار في العراق ، إذ أن امرهم مفضوح هناك ، فاختاروا مكاناً وسطاً بين المصرين : الجزيرة حيث يبعدون عن الأنظار من جهة ، ويتمكنون من التحرك من جهة ثانيــة .

غير أن وجود عبد الرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنهما اميراً على الجزيرة ،كان طالع نحس بالنسبة لهم ، فقد أوكل معاوية الجزيرة لعبد الرحمن بن خالد ، فضيّق الخناق عليهم ، وحاول تخضيد شوكتهم والاستخفاف بهم،مااملك سبيلاً إلى ذلك ، فمنطق الحجة لم يجد معهم حين استعمله ابن ابي سفيان .

وكان الأشتر النخعي على راسهم ، فطلبه عثمان امير المؤمنين ليتعرف على وجهة نظره ، فاستمع له امير المؤمنين ثم خلّى سبيله .

لم يستطع ابن سبأ ان يعيش في الشام ، فلقد كان ابو ذر الغفاري رضي الله عنه اشد وعياً من ان يقع في مخططات ابن سبأ (١) ولم يجرؤ ابن سبأ أن يمضي إلى الجزيرة ، فسطوة عبد الرحمن بن خالد ونقمته قوية . فطاب له المقام بالفسطاط فاستقر هناك ليحرك اعوانه في العراق والشام والجزيرة .

ابتدات الفتنة بيزيد بن قيس في المسجد ، حيث راح مــع صحبه الذين اتصل بهم ابن سبأ يعلن خلع عثمان بن عفان ، فتقدم منه القعقاع بن عمرو ، واخذه مــع من كان معه ، فلم يتجرأ ابن قيس أن يتحدث عن أمير المؤمنين ؛ إنما وجه النقد لأمـير الكوفة

---

(١) راجع كتاب أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد للمؤلف.

سعيد بن العاص !! إنه يذكرنا بأبي الدرداء عندما قبض على ابن سبأ في الشام ، وقاده إلى معاوية .

قال يزيد بن قيس : إنما نستعفي من سعيد .

قال : هذا مالايعرض لكم فيه ، لاتجلس لهذا ، ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها .

وجد يزيد انه غدا في خطر ، وأن الأوان قد آن للقيام بعمل ما يحرك الحاقدين ، فاستأجر رجلاً وأعطاه دراهم وبغلاً على ان يأتي المسيَّرين من الكوفة ، وكتب إليهم :

(لا تضعوا كتابي في ايديكم حتى تجيئوا ، فإن اهـل المصر قد جامعونـا) .

ولنعد إلى الأشتر النخعي الذي أطلق عثمان سراحه حين أعلن التوبة على يديه . عاد الأشتر إلى الجزيرة قادماً من المدينة ، ووصل رسول يزيد بن قيس إليهم في وقت واحد .

قالوا للرسول : ما اسمك ؟ قـال بغثـر ، قالوا : ممن ؟ قال : من كلب . قالوا : سبع ذليل يبغثر النفوس لاحاجة لنا بك . لكن الاشتر النخعي الذي اعلن توبته على يد عثمان عاد فنقض العهد واستبد به الحقد ، وخالف امرهم ، وخرج فـاراً عاصياً تحت جنح الليل .

قال اصحابه : احرجنا احرجه الله ، لا نجد بداً مما صنع ، إن علم بنا عبد الرحمن لم يصدقنا ، ولم يستقلها ، فاتبعوه فلم يلحقوه وازمعوا اللحاق به .

وبلغ عبد الرحمن خروجهم ، فبعث في طلبهم غير انهم فاتوه.

ونعود إلى يزيد الفقعسي ، فهو يحدثنا عن بعض الخطوات الهامة التي سار فيها المتآمرون :

(فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون . فيقرؤه أولئك في امصارهم وهؤلاء في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير مايظهرون ، ويسرون غير مايبدون . فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس) (١) .

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله لهذه الأنباء المفزعة عن الأمصار فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل :

(قالوا : يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟!

قال : لا والله ، ما جاءني إلا السلامة .

قالوا : فإنا قد أتانا) (٢) .

وأخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة التي تموج بها الأمصار الإسلامية ، وعن الهجوم الشرس على ولاته في كل صقع .

(وقال : أنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا علي ؟!

(٢،١) الطبري ج٣ ص ٣٧٩ سنة ٣٥ .

قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم)(١) .

إن البذور التي أودعت الأرض بدات جذورها تضرب فيها ، وبدات الفتنة تهيج ريحها على السطح : فهذه الأرض الإسلامية تموج بالإشاعات، الكتب تترى بين الأمصار، والطعن في الولاة لم تعد ريحه المنتنة تخفى على أحد ، بل لقد صكّت مسامع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

وانتهى الرأي إلى أن يبعث خاصة رجاله ليتحققوا من وضع ولاتـه .

فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام . وهؤلاء من كبار صحابة رسول الله ﷺ وأثقلهم وزناً ، وبعداً عـن الشبهة . وأخذ القلق يساور الخليفة الراشد رضي‌الله عنه من جراء هذه الاشاعات ، وجعل قلبه يخفق رعباً أن يكون ولاته وموطن ثقته كما يدّعي المرجفون !!

ورجع الموفدون وجعبتهم حافلة بما يثلج الصدور .

فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم .

وقالوا : الأمر أمر المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٧٩ ، سنة ٣٥ .

إلا أن امراً احزن عثمان رضي الله عنه ، وهو أن عمار بن ياسر قد أعطى أذناً لقالة السوء في مصر ، ورؤساء الفتنة فيها وهم عبد الله بن سبأ ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة ابن بشر .

* * *

ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بهذا الموقف ، فلقد اتبعه خطوتين حاسمتين وضروريتين :

الخطوة الأولى : كتب إلى اهل الأمصار جميعاً كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين :

(أما بعد : فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع عليّ شيء ، ولا على احد من عمالي إلا اعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلامتروك لهم ، وقد رفع إليّ اهل المدينة ان اقواماً يشتمون وآخرون يضربون ، فيامن ضُرب سراً وشُتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي، او تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين) (١).

ترى أية عدالة في الأرض تفوق هذه العدالة ، واية نزاهة تبلغ مستوى هذه النزاهة ، أية حرية واي إكرام للناس يفوق هذا الإكرام وهذه الحرية . لقد جعل للأمة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاكمة الولاة والعمال جهاراً ، وعلى رؤوس الأشهاد

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٧٩ . السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

وفي موسم الحج . وحق الدولة متروك عندما يمس شخص أمير المؤمنين أو أهله ، وصاحب الحق بإمكانه أن يحضر إلى موسم الحج، وأمام الناس جميعاً ، ويأخذ حقه من الخليفة أو ولاته .

ومن أجل هذا كان وقع الكتاب في الأمصار له دوي عظيم في ارتفاع الثقة بأمير المؤمنين كما يقول ابن جرير :

فلما قرىء في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا :

إن الأمة لتمخّض بشر .

وكانت **الخطوة الثانية** من عثمان رضي الله عنه هي استدعاءه الولاة على عجل : عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص – وهم من الولاة السابقين – . وكانت جلسة مغلقة وخطيرة جرت فيها الأبحاث التالية التي تقرر خطة العمل الجديدة على ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام :

(عثمان : ويحكم ما هذه الشكاية ؟! وما هذه الإذاعة ؟! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، ومايعصب هذا إلا بي .

الولاة : ألم تبعث ؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟!! لا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً . وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها .

وقال عثمان : فأشيروا علي .

سعيد : هذا امر مصنوع يصنع في السـر ، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم .

عثمان : فما دواء ذلك ؟

سعيد : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

ابن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم ، فإنه خير من أن تدعهم .

معاوية : قد وليتني ، فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرجلان أعلم بناحيتيهما .

عثمان : فما الراي ؟

معاوية : حسن الأدب .

عثمان : فما ترى يا عمرو ؟

عمرو : أرى انك قـد لِنْت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ماكان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغي لمن لايألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين .

عثمان : (بعد أن حمد الله واثنى عليه)

كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه؛ إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليـه فيكفكف به اللينُ والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره . . . .

وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً ولا نفسي .

ووالله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها) (١) .

لقد كانت صورة واضحة كاملة لما يدور في اذهان قادة المسلمين آنذاك وولاة الأمر . فالثابت في اذهان الجميع أن الأمر حسن ، وذات البين حسنة ، وهو واقع المسلمين في الحقيقة . وقد ادركوا جميعاً أن هناك دعاة فتنة يثيرونها ، ويحركون ضرامها ، همهم إشاعة البلبلة بين الصفوف . وكان أكثر الآراء منصباً على طلب الشدة ، وقتل دعاة الفتنة ، واستئصالهم من الجذور .

وكان افق عثمان العالي غير هذا الأفق ، فلقد لخص رأيه بأمور ثلاثة :

اولاً :

إنه وهو يستمع إلى علاجهم للمشكلة ارتسمت في ذهنه صور الفتنة التي حدّث عنها رسول الله ﷺ فيما اخرجه مسلم :

إنها ستكون فتن ، الا ثم تكون فتن ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي فيها خير من الساعي إليها . الا فإذا نزلت او وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له ارض فليلحق بأرضه .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ سنة ٣٥ السري عن شعيب عن سيف .

إنه يراها وكأنها على باب بيته ، ولقد كان وصف سعيد بن العاص دقيقاً إلى ابعد الحدود حين قال : (هذا أمر مصنوع يصنع في السر ، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم) .

ثانياً :

والفتنة لابد لها ان تنطلق من باب ، فتتتابع امواجها المظلمة تأكل الأخضر واليابس ، ولقد كان حدس عثمان وحسه المرهف في مكانه ؛ إنه يتوقع بوادرها منذ خطوات ابن سبأ في الشام قبل سنتين أو ثلاث ؛ إذ كتب في الكتاب الذي بعثه لمعاوية من اجل أبي ذر رضي الله عنه :

(إن الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا ان تثب فلا تنكأ القرح) فهو يرفض أن يكون باب هذه الفتن .

ثالثاً :

ومن هنا كان منطلق عثمان في كل الأمور ، والتي يمكن الحكم منها على كل تصرفاته فيما بعد ، وهي هذه الخطة :

لن يكون منطلق الفتنة ، لن يشعل نارها بالشدة والقتل والتعذيب . إنه يؤثر الموت قبل أن تدركه الفتنة تأسياً بدعاء رسول الله ﷺ : وإذا أردت فتنة قوم فاقبضني إليك غير مفتون .

وليس هذا موقف عثمان رضي الله عنه من الفتنة وحده ، بل هو موقف عمر كذلك ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال :

« كنا عند عمر رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ فقلت : انا . قال : إنك لجريء وكيف ؟ قال: قلت : سمعته يقول : فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه

وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال عمر رضي الله عنه : ليس هذا أريد ، إنما أريد التي تموج كموج البحر . قال : فقلت : مالك ولها يا أمير المؤمنين ؟! إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : فيكسر الباب أو يفتح ؟ قال : بل يكسر . قال : ذلك أحرى أن لايغلق أبداً . فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم مَنْ الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة . إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . فقيل لحذيفة : من الباب ؟ قال : عمر » أخرجه الشيخان والترمذي .

رابعـاً :

والخطة التي يرفض فيها عثمان اللين هي حدود الله ، فهذه لاهوادة فيها لأن مهمة الإمام أن يحكم بشريعة الله وينفذ حدوده .

وأما ما دون ذلك فهو يرفض أن يستعمل القوة .

ولم يكن معاوية غمراً في هذه الأحداث ، فهو الذي أكد لعثمان أولاً أنه لن يصل له شيء عن الشام يكرهه .

وهو الذي أشار على عثمان رضي‌الله عنه بقوله : حسن‌الأدب.

بهذه العبارة البليغة التي تلخص سياسة معاوية رضوان الله عليه مع رعيته ؛ بقي معاوية بأمر الخليفة في المدينة إلى أن جاء عثمان من الحج ، وأعاد الأمراء إلى أمصارهم . ولم يأته في موسم الحج شكوى من أحد على أحد من عماله .

وقبل أن يغادر معاوية المدينة المنورة ، ورغم أنه لاتبدو ظاهر نذر الشر؛ غير أن أمير الشام كان يرى غير ذلك:إنه يرى الجو يوشك

ان ينفجر ويطيح بأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ومن اجل ذلك اختلى بعثمان وباح له بما يحس به ، وعرض عليه اقتراحات ثلاثة. وذلك من خلال المحادثة التالية بينهما :

معاوية : يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا .

عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله بشيء ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي .

معاوية : فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك .

عثمان : أنا اقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟!.

معاوية : والله يا أمير المؤمنين لتغتالنّ أو لتغزينّ .

عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل .

فلقد كان معاوية يرى أن نذر الشر تعوي تريد أن تطيح بأمير المؤمنين ، وكان عثمان يرى ذلك ، وهو يعلم أن الفتنة قائمة ، فلئن كشّر عن أنيابه ، وراح يقتل بالظنة فسوف يخوض في الفتنة خوضاً ولن يتورط عثمان بالفتنة ، فيفتح باب القتل وسفك الدم لأنه لن يرقأ كما يقول عليه الصلاة والسلام :

(إذا وضع السيف في امتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة) (١).

---

(١) رواه الترمذي .

سوف يكفكفها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، اما ان يمضي إلى الشام فهو أول من يغيّر ويبدل ، واما ان يطالب بجيش من الشام لحماية المدينة فهذا لن يقبله ابداً . حتى لايضيق على أهل المدينة ارزاقهم .

لقد رفض اقتراحات معاوية كاملة ، ومضى معاوية مهموماً من عند عثمان قلقاً عليه . وبينما هو ماض في سبيله إلى الشام إذا به يلتقي برهط من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يتمالك إلا أن يفتح لهم قلبه ، ويسر لهم بذات نفسه ؛ خاصة وأن بين الرهط كبار المرشحين للخلافة بعد عثمان ، ومن يمكن أن يتحدث باسمهم دعاة الفتنة دون ان يعلموا . فيهم علي وطلحة والزبير .

ومعاوية يدرك التأثير المعنوي لهؤلاء ، فوقف عليهم متكئاً على قوسه ، متقلداً سيفه ، فألقى عليهم السلام ثم قال :

إنكم قد علمتم ان هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم احد إلا وفي فصيلته مـن يرأسه ، ويستبد عليه ، ويقطع الأمر دونه ، ولا يشهده ولا يؤامره .

حتى بعث الله عزوجل نبيه ﷺ ، واكرم به من اتبعه ، فكانوا يرئسون من جـاء من بعده ، وأمرهم شورى بينهم . يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبـع لهم ، وإن اصغوا إلى الدنيا وطلبوهـا بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان يرأسهم . وإلا فليحذروا الغِيَر ، فإن الله على البدل قادر ، وله المشيئة في ملكه وأمره .

إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً ، وكاتفوه تكونوا أسعد منه بذلك .

ثم ودعهم ومضى) (١) .

فقال علي : ماكنت أرى أن في هذا خيراً .

فقال الزبير : لا والله ماكان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة .

راى معاوية انه قد بلغ الامانة ، وذلك بعبارات موجزة أشد الإيجاز ، بليغة أعمق البلاغة .

إنه وضع صورتين متقابلتين للأمة قبل الإسلام وبعده ، ولقادة هذه الأمة كذلك ، وكان الربط وثيقاً ومحكماً .

فقبل الإسلام كان هؤلاء القادة ؛ ومنهم علي وطلحة والزبير لا شيء لهم في الأمر ، وإنما تبوؤوا هذا المركز بالإسلام . إنه يقر لهم بفضلهم وسابقتهم وجهادهم،هذا الجهاد الذيجعلهم ائمة المسلمين.

فالقيادة إذاً ليست شخصية بمقدار ما هي نوعية ، مرتبطة بالجهاد في سبيل الله . أما يوم تكون الدنيا هي التي تحركهم ، فقد فقدوا هذا المركز الذي حازوه بالبلاء في سبيل الله .

إنها لتذكرنا بوصية الفاروق رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص حين قال له :

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٨١ سنة خمس وثلاثين . السري عن شعيب عن سيف .

(يا سعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . . .) (١) .

إنه عرض فقيهٍ بالإسلام ، متمكنٍ فيه ، عريق بأمور الإمارة والحكم .

ونحن بحاجة إلى وقفة عند راي علي بن أبي طالب ، والزبير ابن العوام رضي الله عنهما بمعاوية .

فمتى التقى علي بمعاوية ؟

لم يلتقِ به إلا جندياً في جيش المشركين ، ولم يعرفه في الإسلام إلا بعد ان انتهت حرب المشركين . لقد التقى معه وجلس إليه بعد أن جمع بينهما الإسلام ، ولكن الفترة لم تطل أبداً ؛ فقد ولاه رسول الله فصيلة من الفصائل بعد أن أكرمه بكتابة الرسائل . واستقر معاوية بالشام قرابة عشرين عاماً وهو بعيد عن جو المدينة . فمن أين يعرف علي معاوية ؟

ولا شك أن أنباء الفتوحات في الشام التي قادها معاوية قد تناهت إلى سمعه . ولكنها حلقة من الفتوحات الكبيرة التي ساهم فيها قادة المسلمين أمثال : سعد وخالد، والمثنى والقعقاع، وغيرهم . فلم تتَح الظروف أبداً للاحتكاك والالتقاء بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ليختبر كل واحد منهما الآخر . وكان علي في عين معاوية

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ــ سنة اربع عشرة من الهجرة ج٧ ص ٣٥ .

كبيراً ، لأنه يعرف جهاده في سبيل الله منذ اللحظات الأولى في حياته ، إذ كان هو في صف المشركين في الجانب المضاد للاسلام . ولكن معاوية لم يكن كذلك في عين علي ، فكل ما يعرفه عنه انه أمضى شبابه وهو في صف أعداء الإسلام ، وأسلم يوم الفتح ، وتولى أمر الشام. وقد يكون معاوية والياً ناجحاً فذاً في ذهن علي، أما مستواه الإسلامي ومستواه العقائدي فلم يكن يدري عنه شيئاً ، ومن أجل هذا كان معاوية في عين علي غير علي في عين معاوية .

وشيء جديد نلاحظه من كلمة علي للزبير : ماكنت أرى أن في هذا خيراً . لكن الزبير خالفه في ذلك قائلاً :

لا والله ماكان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة .

وصمتُ علي على كلمة الزبير يوحي بقناعته فيها ، ويوحي بأنهما كشفا شخصية جديدة ذات مواهب وطاقات مبدعة هي شخصية معاوية بن أبي سفيان .

* * *

وغادر معاوية المدينة بعد الحج ، وبدأت الحلقة الثانية من الفتنة تظهر في المدينة ؛ إذ نزل فيها عدد كبير من اهل البصرة والكوفة ، وهم الذين رفضوا ان يوافوا امير المؤمنين بالحج ، لأن الولاة جميعهم موجودون .

واستطاع عثمان رضي الله عنه بعبقريته أن يفضح مخططهم كاملاً :

اختار رجلين احدهما من بني زهرة ، والآخر من بني مخزوم للتعرف على نوايا هؤلاء المتظاهرين في العمرة . وكان هذان الرجلان قد نالتهما عقوبة عثمان فيمكن أن يطمئن المتظاهرون إليهما .

(فلما راوهما باتوهما واخبروهما بما يريدون .

قالا : من معكم على هذا من اهل المدينة .

قالوا : ثلاثة نفر .

قالا : هل إلا ؟!

قالوا : لا

قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟

قالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب . ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط بـه فنخلعه ؛ فإن أبى قتلناه وكانت إياها) (١) .

* * *

(١) الطبري ج٣ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ . السري عـن شعيب عن سيف عن شيوخه .

بيان عثمان إلى الأمة

تتعدد الروايات وتتزاحم في هذا الموضوع ، ولكننا سنأخذ بأوثق روايات الطبري ، لذا سنكتفي بروايات السري عن شعيب عن سيف .

لا يمكننا أن نقفز إلى معاوية قبل أن نمر بهذا المرتقى الصعب، لأن معاوية رضي الله عنه قد اتجه بكل ثقله نحو التخطيط لسياسة المسلمين بعد مقتل عثمان ، تلك الفاجعة التي كانت من جهة ثانية بداية لكل الفتن في العالم الإسلامي .

(أرسل (عثمان) إلى الكوفيين والبصريين ونادى : الصلاة جامعة ــ وهم عنده في أصل المنبر ــ فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى احاطوا بهم فحمد الله واثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان (١) .

فقالوا جميعاً (أي المسلمون) : اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال : من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب : لا أحل لكم إلا ماقتلتموه وأنا شريككم .

فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً او يبدي كفراً .

---

(١) إشارة إلى الزهري والمخزومي اللذين كشفا المؤامرة .

إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا انهم زعموا انهم يذاكرونيها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم :

١ ــ وقالوا : اتم الصلاة في السفر ، وكانت لاتتم .

الا وإني قدمت بلداً فيه اهلي فأتممت لهذين الأمرين (١) ؛ أوَ كذلك ؟

قالوا (أي المسلمون) : اللهم نعم .

٢ ــ وقالوا : وحميت حمى .

آ ــ وإني والله ما حميت ، حمي قبلي (٢) ، والله ما حموا شيئاً لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعية أحـــداً .

ب ــ واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع .

جـ ــ ثم ما منعوا ولا نحوّا منها احداً إلا من ساق درهماً .

د ــ وما لي من بعير غير راحلتين،وما لي ثاغية(٣) ولا راغية(٤).

---

(١) لم تذكر الرواية إلا امراً واحداً ، وهو وجود أهل عثمان رضي الله عنهم . وقد أورد ابن كثير في بعض الرواية الأمر الثاني وهو نيته الإقامة ، ولعلها سقطت هنـــا خطأً . انظر ابن كثير ج٧ ص ١٧١ . سنة ٣٥ .

(٢) إشارة إلى أن الحمى كان لعامة المسلمين ولم يكن لشخصه وكان حق الرعي فيه للجميع .

(٣ــ٤) إشارة إلى انه لا يملك غنماً ولا إبلاً .

هـ ـ وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاءً ، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي ؛ أكذلك ؟!

قالوا : اللهم نعم .

٣ ـ وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً .

الا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد . وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء (١) ؛ أكذلك ؟!

قالوا : اللهم نعم .

وسألوه أن يقتلهم .

٤ ـ وقالوا : إني رددت الحكم .

وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف . ثم رده رسول الله ﷺ . فرسول الله ﷺ سيره ، ورسول الله ﷺ رده أكذلك ؟

قالوا : اللهم نعم .

٥ ـ وقالوا : استعملت الأحداث .

آ ـ ولم استعمل إلا مجتمِعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم .

ب ـ ولقد ولى من قبلي أحدث منهم (٢) ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة ؛ أكذاك ؟

قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس مالايفسرون .

---

(١) يقصد أصحاب محمد ﷺ .

(٢) إشارة إلى تولية الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

٦ ــ وقالوا : إني اعطيت ابن ابي سرح ما أفاء الله عليه .

آ ــ وإني إنما نفلته خمس ما آفاء الله عليه من الخمس فكان مائة الف .

ب ــ وقد انفذ مثل ذلك ابو بكر وعمر .

جـ ــ فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك .

د ــ فرددته عليهم وليس ذلك لهم .

أكذاك ؟ قالوا : نعم .

٧ ــ وقالوا : إني احب اهل بيتي واعطيهم .

آ ــ فأما حبي فإنه لـم يمل معهم على جَوْر ، بـل احمل الحقوق عليهم .

ب ــ واما إعطاؤهم فإني اعطيهم من مالي ، ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس .

جـ ــ ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر ، وانا يومئذ شحيح حريص .

د ــ أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا ؟!

هـ ــ وإني والله ما حملت على مصرٍ من الأمصار فضلاً (١) ، فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم .

---

(١) اي انه لم يفرض اي ضريبة او اتاوة على اي مِصر من الأمصار الإسلامية .

و ــ وما قدم عليّ إلا الاخماس ، ولا يحل لي منها شيء ، فولي المسلمون وضعها فيأهلها دوني ، ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما أتبلغ منه ما آكل إلا مالي .

٨ ــ وقالوا : أعطيت الأرض رجــالاً ، وإن هــذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت .

آ ــ فمن اقام بمكان من هذه الفتوح فهو اسوة اهله .

ب ــ ومن رجع إلى اهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له .

جـ ــ فنظرت في الذي يصيبهم مما افاء الله عليهم ، فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني .

د ــ وكان عثمان قد قسم ماله وارضه في بني امية وجعــل ولده كبعض من يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مائة الف ، واعطى بني عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب) .

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف ، وأبى المسلمون إلا قتلهم ــ أي الثائرين ــ وأبى إلا تركهم .

* * *

هذا بيان لو سجل بماء الذهب لكان قليلاً عليه ، صدر مــن امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وقد اضطر له اضطراراً . وكان يود لو أنّ ذاك كان بينه وبين الله تعالى ، وهو الذي يستحي أن يفوه بكلمة واحدة عن نفسه ثناءً أو حديثاً ، بل إن الملائكة لتستحي من هذا الحييّ .

هذا الانسان العظيم اضطره المنافقون والحاقدون إلى الحديث عن جوانب من سلوكه ، وجوانب من فضله ، ماكان أغناه عنها لولا كيد الحاسدين واتهام المنافقين .

● وفعلاً لولا اتهام المنافقين والحاقدين ما كنا لنعرف سياسة عثمان المالية وتفريقه بين ماله ومال المسلمين ، فلا يستحل من مال المسلمين درهماً وما دونه ، بينما بقي يعطي من ماله حتى نفد ماله ، ومن أرضه حتى نفدت أرضه . حتى لم يبقِ من كل ما يملكه إلا بعيرين لحجه ، وهو الذي كان أغنى أغنياء مكة والمدينة ذات يوم !!

● ولولا اتهام المنافقين وكيد الكائدين ما كنا لنتعرف على سياسة عثمان الزراعية ، فهو يرفض أن تبقى أراضٍ في بلاد الفتوح عطلاً لاتنتج ، بوراً لاتزرع ؛ بحجة ملكيتها لبعض الفاتحين ، فيكون الأولى بلا شك بيع تلك الأراضي لمن يعمل بها ، ويسلم ثمنها لأصحابها الأصليين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين ما كنا لنعلم سياسة عثمان العسكرية التي تؤمن بإغداق المال على القائد العسكري ، حتى يعف عن مال جنده ، فلقد أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس المخصص لولي الأمر ؛ ليكون في مركز ولايته كهفاً للمحتاجين ، وملاذاً للقاصدين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن نعلم سياسة عثمان النفسية مع رعيته الذين أحبهم وأحبوه ، واوطأ لهم كنفه . حتى يتدخل المسلمون في شؤون خليفتهم ، ويعرض لهم الشك في نفل ابن أبي سرح ، فيدفن الفتنة في مهدها ، ويسترد خمس الخمس منه حتى يمنع القالة والريب من نفوسهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الإدارية التي تقوم على تحريك الطاقات ، والاستفادة من عنصر الشباب المتوثب المنطلق ، وتوجيه هذه الطاقات للفتوح في اقصى الأرض ، وللابداع في عبقرية القيادة والتنظيم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الاقتصادية .يحمي الأرض من ارض المسلمين لإبل الصدقة ولفقراء المسلمين يرعون بهـا ماشيتهم ، وليمنع اي تسلطٍ من الجيش أو رجال الحكم على ارض الناس ينتهبونها بحجة المصلحة العامة ، بل ويدعها مشاعاً يستفيد منها كل محتاج أو مضطر لرعي إبله . بينما يمنع ذلك الحمى عن أغنياء المسلمين لأنه بإمكانهم تأمين الأرض الرعوية اللازمة لإبلهم وماشيتهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان المنهجية ، فإن حمى فقد حمى مـن هو قبله : عمر أمير المؤمنين ، بل ومنع عثمان نفسه وعبد الرحمن بن عوف من الرعي في حمى المسلمين لغناهما وقدرتهما على رعي إبلهما وماشيتهما في أرضهمـا .

وإن أعطى عثمان رضي الله عنه ابن أبي سـرح ، فلقد أعطى قبله أبو بكر وعمر ، وإن استعمـل الشباب فقد استعمل قبلـه الشباب رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر .

وإن جمع القرآن فلم يجمعه إلا على راي وبينـة وملأ من اصحاب محمد ﷺ .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الإسلامية التي ترفض اي تهاونٍ في حدٍ من حدود الله ،

وهي في الوقت نفسه تساير وتلاين في الأمور الشخصية ، حتى إن المسلمين يرون قتل أولئك الثائرين الذين ينالون من شخص الخليفة .ويشهّرون فيه ، ويأبى عثمان أمير المؤمنين أن يستغل مركزه والتأييد الشعبي الإسلامي له في ضرب معارضي سياسته ، بل يصير إلى العفو عنهم ، وإخلاء سبيلهم .

وكان هذا البيان الشامل ، ثم العفو والصفح عن المغرضين كافياً لأن يملأ الأرض استقراراً وأمناً . هذا لوكان هؤلاء دعاة أمن واستقرار ، أو طلاب عدل وخير .

ولكن هيهات ، فاليهودية السبئية تريد أن تدمر الأرض بالمسلمين حكاماً ومحكومين !!

* * *

المتآمرون يحتلّون المدينة

ولابد لنا أن نتابع خيوط المؤامرة وخطواتها ، ونرافق السري فيما نقله لنا عن شعيب عن سيف عن شيوخه ، معرضين عن بقية الروايات المضطربة المتناقضة التي لاتخلو من مطعن في السند ، أو مطعن في المتن . وحسبنا هؤلاء يفطون في مروياتهم كل احداث المؤامرة ، ويكشفون تفاصيلها كاملة .

تركنا الثائرين وقد عفا عثمان رضي الله عنه عنهم بعد أن دمغهم بالحجة ، وأطلق سراحهم ، فماذا جرى بعد ذلك ؟؟

(فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوهم (أي يغزو المسلمين في المدينة) مع الحجاج كالحجاج ، فتكاتبوا وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال . حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتي عشرة ـ من خلافة عثمان ـ ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة .

قالوا : ولما كان في شوال سنة ٣٥ (١) خرج اهل مصر في أربع

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً . قال : قلت : مما مضى أم مما بقي ؟ قال : مما بقي . « رواه الإمام أحمد وابو داود والحاكم في مستدركه وقال : صحيح ←

رفاق على اربعة امراء ، المقلّل يقول ستمائة ، والمكثر يقول الف . على الرفاق : عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر التجيبي ، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترئوا ان يعلموا الناس بخروجهم إلىالحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء .

وخرج أهل الكوفة في اربع رفاق وعلى الرفاق : زيد بن صوحان العبدي ، والأشتر النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم احد بني عامر بن صعصعة . وعددهم كعدد أهل مصر ، وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم .

وخرج أهل البصرة في اربع رفاق ، وعلى الرفاق : حكيم بن جبلة العبدي ، وذريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شريح بن الحطم ابن ضبيعة القيسي ، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي . وعددهم كعدد أهل مصر،وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي سوى من تلاحق بهم من الناس .

فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون علياً ، واما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة ، واما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير . فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى ، لا تشك كل فرقة إلا أن الفلج معها، وأن أمرها سيتم دون الأخريين. فخرجوا

على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي في تلخيصه . وقال ابن الأثير : إن كان أراد سنة ٣٥ ففيها خرج أهل مصر وحصروا عثمان ، وإن كان ستاً وثلاثين ففيها كانت وقعة الجمل ، وإن كانت سبعاً وثلاثين ففيها كانت وقعة صفين » .

حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث: تقدم ناس من اهل البصرة فنزلوا ذا خشب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص ، وجاءهم ناس من أهل مصر ، وتركوا عامتهم بذي المروة (١) .

هذه هي المرحلة الأولى من المؤامرة ؛ جهزت كأحسن ما يكون التجهيز ، تم التوقيت لها على يد ابن سبأ الذي حضر من مصر خصيصاً ليشرف على التنفيذ ، واختارت كل فرقة مكاناً للنزول .

واستطاع ابن سبأ بذكائه أن يفرق القلوب ، وإن كانت على هدف واحدٍ من حيث الأصل وهو قتل عثمان . لكن الأهواء موزعة مختلفة ، وقد استطاع ان يزرع في نفوسهم الاشتهاء لعلي أو طلحة أو الزبير .

ولنتابع المرحلة الثانية من تحركاتهم المريبة :

(ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر ، وعبد الله بن الأصم ، وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا ، فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا ، واستحلوا قتالنا ، ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد ، وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستحلوا قتالنا ، ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنرجعن إليكم بالخبر .

قالوا : اذهبا .

---

(١) رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وابي حارثة وابي عثمان (وهم شيوخ سيف الأربعة) . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

فدخل الرجلان فلقيا ازواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ، ماجئنا إلا لذلك .

واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبي ونهى وقال : بيض ما يفرخن !! فرجعا إليهم .

فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً ، ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير . وقال كل فريق منهم : إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ، وفرقنا جماعتهم ، ثم كررنا عليهم حتى نبغتهم .

فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند احجار الزيت عليه حلة أفواف ، معتم بشقيقة حمراء يمانية ، متقلد السيف ليس عليه قميص ، وقد سرح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ، فالحسن جالس عند عثمان وعلي عند أحجار الزيت . فسلّم عليه المصريون وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم وقال :

لقد علم الصالحون ان جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لاصحبكم الله . قالوا : نعم . فانصرفوا من عنده على ذلك .

واتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي ، وقد ارسل ابنيه إلى عثمان ، فسلّم البصريون عليه وعرضوا له ؛ فصاح بهم واطردهم وقال : لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

واتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة اخرى ، وقد سرح ابنه عبد الله إلى عثمان فسلموا عليه وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم

وقال : لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

فخرج القوم واروهم انهم يرجعون ، فانفشوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فافترق اهل المدينة لخروجهم .

فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم ، فلم يفجأ اهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة ، فنزلوا في مواضع عساكرهم ، واحاطوا بعثمان ، وقالوا : من كفّ يده فهو آمن) (١) .

وهذه هي المرحلة الثانية من المؤامرة :

ابتدأت أولاً بمحاولة إدخال أحد العلية من اصحاب رسول الله في المؤامرة ؛ فقبول علي أو طلحة أو الزبير الانضمام إليهم يرفع كثيراً من شأنهم ، ومن اجل هذا كان توجيه قيادة الثوار توجيهاً مختلفاً ليحقق هدفاً معيناً بحد ذاته ، فراي المصريين أن تكون البيعة لعلي فإن وافق فسيقاتلون الجميع به .

وكذلك موقف البصريين من طلحة ورايهم في بيعته .

وكذلك موقف الكوفيين من الزبير ورايهم في بيعته .

فكان ربح واحد من أهل الشورى ــ خاصة المقدمين منهم ــ كفيلاً أن يحقق الهدف المقصود من الإطاحة بعثمان .

---

(١) السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

وتوحي الرواية من جانب آخر ان المسلمين في المدينة الذين كانت تتوارد إليهم الأنباء عن تحرك الثائرين ؛ قد أخذوا اهبتهم واستعدادهم .

فكان كل صحابي من قادة المسلمين على جهة من جهات المدينة يمنع دخول الحاقدين : الزبير في فرقة ، وعلي في فرقة ، وطلحة في فرقة .

كما أن الطرف الآخر من التنظيم انصب على ان يكون أولاد الصحابة حول عثمان امير المؤمنين يحرسونه .

وابتدأت محاولة المتآمرين في جس نبض القادة المرشحين للخـلافـة .

ولعل علياً وطلحة والزبير كانوا قد تذاكروا فيما بينهم حديث رسول الله ﷺ في لعن جيش ذي خشب والأعوص وذي المروة .

ومن اجل هذا كان الموقف صارماً في منع دخول المتآمرين إلى المدينة ، وفي إعلامهم لعن رسول الله ﷺ لهم علّهم يرجعون عن غيهم ، وفي طردهم وصدهم عن حرم رسول الله .

ولم تختلف إجابة القادة كما لم تختلف مواقفهم ، وطردوا وفود الثائرين عن حرم رسول الله ﷺ .

ولا يبعد أنهم قد بعثوا وراءهم من يتعقبهم حيث وجدوهم قد رحلوا عن أماكن نزولهم ، واطمأن الساهرون على حماية المدينة إلى أن المتآمرين قد رحلوا إلى بلادهم ، أو ثابوا إلى رشدهم ، أو مضوا إلى الحج ، فدلفوا إلى بيوتهم ينعمون بقسط من الراحة .

لكن التخطيط اليهودي الخبيث الذي قال الله تعالى عـن أهله : (وإذا خلَوا عَضّوا عليكم الأنامل من الغيظ) ؛ ما كان له

أن يهدأ أو ينام ، ولم يكن لابن سبأ أن ينهي الموضوع على هـذه الصورة الباهتة .

وعجز المتآمرون عن جر قادة المسلمين وعامة أهل المدينة أو واحدٍ منهم إلى عسكرهم إلا ما كان من أولئك النفر الثلاثة .

فقرروا غزو المدينة تحت جنح الليل .

فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة .

وأفلت الزمام مـن يد صحابة رسول الله حين أصبـح أمر المدينة بيد الثوار ، واتجه المسلمون إلى عثمان يحمونه ويحيطونه من أي سوء .

(وصلى عثمان بالناس أياماً ، ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا احداً من كلام) .

وتمكن علي رضي‌الله عنه أن يفضح مخططاتهم على أعين‌الناس.

(فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال :

ــ ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟؟!

قالوا : أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقتلنا) .

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك ، وأتاهم الزبـير فقال الكوفيون مثل ذلك .

وقال الكوفيون والبصريون : فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً (كأنما كانوا على ميعاد) .

فقال لهم علي :

(كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة ، بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا ؟؟!!

هذا والله أمر ابرم بالمدينة .

قالوا : فضعوه على ما شئتم . .) .

ووجهة نظر علي رضي الله عنه : أن أهل مصر يدعون ويكذبون بمسكهم بريداً بقتلهم ، والكوفيون والبصريون يمنعون إخوانهم المصريين .

من الذي ادرى أهل الكوفة بما لقي أهل مصر ؟!

ومن الذي ادرى اهل البصرة بما لقي اهل مصر ؟

وذلك بعد ان قطعوا مراحل في سفرهم إلى بلادهم . وحتى الآن كل ما أعلنه الثوار أن قصدهم عزل عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضي الله عنه. (وهو في ذلك يصلي بهم ، وهم يصلون خلفه ، ويغشى من شاء عثمان ، وهم في عينه أدق من التراب ، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام ، وكانوا زمراً بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع) .

إذاً لقد كانت أوامر قيادة المتآمرين ذات اتجاهين في بادىء الأمر :

الاتجـاه الأول :

هو ان يسمحوا بالكلام ليتعرفوا على نوعيات الناس واهوائهم .

الاتجـاه الثاني :

ولا شك ان في ذلك اوامر مشددة ؛ هو أن تقوم دوريات مسلحة في أرجاءالمدينة تمنع الناس من أي اجتماع ، وهم يعلمون أن اجتماع اهل المدينة قد يقضي على تنظيمهم وسيطرتهم عليها .

* * *

وإزاء هذا التسلط راى عثمان رضي الله عنه ان اهل المدينة إنما يطلب منهم الانتحار حين يدافعون عن حوزة الإسلام ؛ ولا بد من امداد من الأمصار تكسر حدة الثوار .

كتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم قائلاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلّغ عن الله ما امره به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما احب العباد وكرهوا . فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ، ثم أدخلتُ في الشورى عن غير علمٍ ولا مسألة عن ملأ من الأمة ، ثم اجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس عليّ ، على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم مايعرفون ولا ينكرون ، تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف » .

وعثمان مضطر إلى إعادة هذه النقاط إلى اذهان الأمة ، لأن هؤلاء الناكثين يريدون خلع امير المؤمنين وعزله .

ثم كان القسم الثاني من الكتاب حول بيان هوية هؤلاء المارقين :

« ... فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن واهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى ؛ إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا امراً واعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا عليّ اشياء مما كانوا يرضون ، واشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها) .

وانتقل في رسالته إلى الأمة يحدثهم عن سياسته مع هؤلاء المتآمرين قائلاً :

(فصبرت لهم نفسي ، وكففتها عنهم منذ سنين ، وانا ارى وأسمع . فازدادوا على الله عزوجل جراة حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه ، وارض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب) .

وغني عن البيان بعد هذا العرض الصراح أن يكونوا كما قال عثمان رضي الله عنه في ختام رسالته :

(فهم كالأحزاب أيـام الأحزاب ، أو من غزانا بأحُدٍ ؛ إلا ما يظهرون ! فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق) .

وبذلك كانت الرسالة شعلة من البارود حركت الأمصـار الإسلامية كلها لإنقاذ المدينة المحتلة .

(فأتى الكتاب اهل الأمصار ، فخرجوا على الصعبة والذلول : فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو .

وكان المحضّضين بالكوفة على إعانة اهل المدينة: عقبة بن عمرو وعبد الله بن ابي اوفى وحنظلة بن الربيع التميمي في أمثالهم من أصحاب النبي ﷺ . وكان المحضّضين بالكوفة من التابعين اصحاب عبد الله : مسروق بن الأجدع والاسود بن يزيد وشريح بن الحارث وعبد الله بن عكيم في أمثالهم ، يسيرون فيها ويطوفون على مجالسها يقولون : يا أيها الناس ان الكلام اليوم وليس به غداً ، وإن النظر يحسن اليوم ويقبح غداً ، وإن القتال يحل اليوم ويحـرم غـداً ، انهضوا إلى خليفتكم وعصمة امركم . وقام بالبصرة عمران بن حصين وانس بن مالك وهشام بن عامر في امثالهم من اصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك ، ومن التابعين : كعب بن سور وهرم بن حيان العبدي وأشباه لهما يقولون ذلك . وقام بالشام عبادة بن الصامت

وابو الدرداء وابو امامة في امثالهم من اصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك . ومن التابعين : شريك بن خباشة النميري وأبو مسلم الخولاني ، وعبد الرحمن بن غَنْم بمثل ذلك . وقام بمصر خارجة في أشباه له ، وقد كان بعض المحضّضين قد شهد قدومهم فلما رأوا حالهم انصرفوا إلى امصارهم بذلك وقاموا فيهم) (١) .

* * *

(١) كل ماورد في هذا الفصل هو رواية واحدة للسري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وابي حارثة وابي عثمان . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٨ .

أمير المؤمنين يُقتل

اشتد الأمر في المدينة المنورة شدة بالغة ؛ حتى حرية الكلام صارت ممنوعة بعد حرية الاجتماع من هؤلاء الناقمين :

(فلما جاءت الجمعة التي على إثر نزول المصريين مسجد رسول الله ﷺ خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال :

يا هؤلاء العدى ، الله . الله ؛ فوالله إن اهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن . فقام محمد بن مسلمة فقال : انا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده . فقام زيد بن ثابت فقال : ابغني الكتاب . فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعده ، وقال فأفظع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه ، فاحتمل فأدخل داره . وكان المصريون لا يطمعون بأحدٍ من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر ، فإنهم كانوا يراسلونهم : محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر)(١) .

---

(١) سئل سعيد بن المسيب عن محمد بن ابي حذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيماً في حجر عثمان ، فكان عثمان والي أيتام اهل بيته ، ومحتمل كلهم . فسأل عثمان العمل ←

وشمر اناس من الناس فاستقتلوا ؛ منهم : سعد بن مالك ، وابو هريرة ، وزيد بن ثابت ، والحسن بن علي . فبعث إليهم عثمان بعزمه َلمَا انصرفوا فانصرفوا . واقبل علي حتى دخل على عثمان ، واقبل طلحة حتى دخل عليه ، واقبل الزبير حتى دخل عليه ؛ يعودونه من صرعته ، ويشكون بثّهم ، ثم رجعوا إلى منازلهم .

لم تعد إمكانية التنظيم ولا إمكانية الحركة، ولا إمكانية الاجتماع مهيأة ؛ هذا من جهة . ومن جهة ثانية يصر امير المؤمنين عثمان على ان لا يراق من اجله قطرة دم قد اتجه قلبه إلى الله تعالى ، واصر على أن يخرج من الدنيا دون أن يتلوث بشعرة فيها . وهو يرفض في الوقت نفسه ان يكون العوبة بيد المنافقين ، فيسن سنة سيئة

حين ولي فقال : يا بني لو كنت رضاً ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني . قال : اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله واعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغيَّر عليه أن منعه الولاية .

قيل : فعمار بن ياسر ؟ قال : كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب ، فضربهما عثمان ؛ فأورث ذلك بين آل عمار وآل عتبة شراً حتى اليوم .

الطبري ج٣ ص ٤٢٨ ، عن السري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن سعيد عن يحيى بن سعيد .

وتعليل عثمان رضي الله عنه لموقف محمد بن أبي بكر أنه قد اصابه الإعجاب : (فإنه أعجب حتى راى أن الحقوق لاتلزمه) .

ولا شك أن للسن أثراً في سلوكه ؛ فلم يكن عمره آنذاك يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر .

لمن بعده ؛ حيث يجعل امر الخلافة فوضى ، يخلع كل منافق من يخلع ، ويبقي كل سفيه من يبقي ؛ خاصة ولديه اوامر من رسول الله ﷺ تقول له بصراحة لا تقبل الجدل أو الشك :

(يا عثمان إن الله عسى ان يلبسك قميصاً ، فـإذا ارادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ـ ثلاثاً ـ) (١) .

وهو في الوقت نفسه يود أن يلقى الله تعالى ولا يحمل في رقبته دم مسلم . وأمام هاتين الصورتين خرج على الناس ذات يوم بعد ان دعا قادة الأمة علياً وطلحة والزبير وغيرهم وقال :

(يا ايها الناس اجلسوا .

فجلسوا جميعاً المحارب الطارىء والمسالم المقيم فقال :

يا اهل المدينة إني أستودعكم الله ، واسأله ان يحسن عليكم الخلافة من بعدي . إني والله لا ادخل على احد بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيّ قضاءه ، ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دخلاً في دين الله أو دنيا ؛ حتى يكون الله عز وجل هو الصانع في ذلك ما أحب) (٢) .

وامر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ومحمداً وابن الزبير واشباهاً لهم ، فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم وثاب إليهم ناس كثير ، ولزم عثمان الدار (٣) . واعتزل عثمان

---

(١) رواه الإمام احمد والترمذي وابن ماجه ، واللفظ لأحمد ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢ـ٣) الطبري عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

الناس ، وانتظر لعل وفود الأمصار تقدم فتفك الحصار ، وتسقط في يد الثوار مخططاتهم فيستسلمون .

ولكن التخطيط المعادي كان يـدرك انه سينتهي لو قدمت الوفود إلى المدينة؛ فقرروا إنهاء الوضع السلبي،والتضييق على أمير المؤمنين ، ثم قتله قبل وصول الأمداد من الأمصار الإسلامية .

(كان الحصار اربعين ليلة ، والنزول سبعين ، فلما مضت من الأربعين ثمان عشرة قدم ركبان من الوجوه ، فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق : حبيب من الشام ومعاوية (بن حديج) من مصر ، والقعقاع من الكوفة ، ومجاشع من البصرة ؛ فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ، ومنعوه كل شيء حتى الماء .

وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة ، فعثروا في داره بالحجارة ليَرْمَوا فيقولوا : قوتلنا ــ وذلك ليلاً ــ فناداهم : الا تتقون الله ، الا تعلمون ان في الدار غيري ؟ قالوا : لا والله ما رميناك ، قال : فمن رمانا ، قالوا : الله ، قال : كذبتم ؛ إن الله عز وجل لو رمانا لم يخطئنا وانتم تخطئوننا . وأشرف عثمان على آل حزم ــ وهـم جيرانه ــ فسرّح ابناً لعمرو إلى علي ؛ بأنهم قد منعونا الماء فإن قدرتم ان ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الزبير ، وإلى عائشة ، وأزواج النبي ﷺ . فكان أوّلهم إنجاداً له علي وأم حبيبة .

جاء علي في الغلس فقال : يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟

قالوا : لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما انهضتني فرجع .

وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة ، فقيل : أم المؤمنين أم حبيبة ! فضربوا وجه بغلتها فقالت : إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل ، قالوا : كاذبة ، واهوَوا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، واستتبعت أخاها فأبى ، فقالت : أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلنّ .

وجاء حنظلة الكاتب حتى قام على محمد بن أبي بكر فقال : يامحمد تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب إلى مالايحل فتتبعهم ؟! فقال : ما أنت وذاك يا ابن التميمية ؟ فقال: يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف وانصرف وهو يقول :

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ... ولاقوا بعده ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق بالكوفة وخرجت عائشة وهي ممتلئة غيظاً على أهل مصر ، وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل ، فقالت : أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعني ؟! لا والله ولا أعيَّر ، ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وبلغ طلحة والزبير مالقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم ،وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات عليهم الرقباء .

فأشرف عثمان على الناس فقال : يا عبد الله بن عباس ! فدعي له . فقال : اذهب فأنت على الموسم ــ وكان ممن لزم الباب ــ .

فقال : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلي من الحج .

فأقسم عليه لينطلقنّ .

فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته فانصرف بها ــ وفي الزبير اختلاف اادرك مقتله أو خرج قبله ــ وقال عثمان :

« يا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح .. » الآية . اللهم حلْ بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل) (١) .

لقد انحصرت المواقف في الجراة الأدبية التي تعلن كلمة الحق ؛ لأنها عاجزة عن استعمال القوة ، ولا يعني استعمال القوة شيئاً إلا ذبح خيار المسلمين وائمتهم ، ليخلو الجو للمنافقين والحاقدين والموتورين .

وكل ما كان يملكه أصحاب رسول الله ﷺ أن يقدموا فلذات أكبادهم فداءً لعثمان أمير المؤمنين. أما هم فلو قضوا هلكى فهـذا يعني أنهم يدعون الأمر لهؤلاء الثائرين يتحكمون ويتسلطون .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٤١٧ ــ ٤١٩ السري عن سيف عن ابي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة .

إنه لا بد لهم ــ من أجل الأمة لا من أجلهم ــ ان يحافظوا على حياتهم وحياة الخليفة ، ويتدبروا الأمر ، ويحشـدوا الجيوش ، ويجندوا الكتائب . فالناس لا تصيخ إلا لهم ولا تسمع إلا لهـم . ولكنهم لا يملكون الآن شيئاً ، وأمير المؤمنين عثمان عليه رضوان الله مصرٌ على أن يقابل ربه بلا قطرة دم تراق من أجله ويسأله الله عنها.

* * *

ولنشهد عملية القتل الرهيبة من هؤلاء الحاقدين والمنافقين .

هؤلاء الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة ولا حرمة لأم حبيبة زوج رسول الله ﷺ . هؤلاء الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة ولا حرمة لعليٍ رضي الله عنه ولا لطلحة ولا للزبير رضي الله عنهمـا ، ولا لعائشـة أم المؤمنـين .

ولن يكون لنا منها أكثر من العرض ؛ ففيه ما يدمي القلب ، ويذيب الفؤاد :

(... ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله (أي عثمان) فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم ، واجتلدوا ، فناداهم عثمان :

الله الله ! أنتم في حلٍ من نصرتي ، فأبـوا ، ففتح الباب . وخرج ومعه الترس والسيف لينهنههم ، فلما رأوه أدبر المصريون ، وركبهم هؤلاء ونهنههم ، فتراجعوا وعظم على الفريقين ، وأقسم على الصحابة ليدخلن ، فأبوا أن ينصرفوا ، فدخلوا ، فأغلق الباب دون

المصريين واتخذ عثمان تلك الأيام القرآن تحبًا (١) ، يصلي وعنده المصحف ؛ فإذا اعيا جلس فقرأ فيه . وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة . وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب ، فلما بقي المصريون لا يمنعهم احد من الباب ولا يقدرون على الدخول؛ جاؤوا بنار فأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، حتى إذا احترق الخشب خرّت السقيفة على الباب ، فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم الدخول . . .

واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ، ولا يشعر الذين بالباب ، واقبلت القبائل على أبنائهم ، فذهبوا بهم إذ غلبوا على أميرهم .

وندبوا رجلاً لقتله ، فانتدب له رجل فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وندعك !؟

قال : ويحك والله ما كشفت امراة في جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ !! ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عز وجل ، وانا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء .

فخرج . وقالوا : ما صنعت ؟!

فقال : علقنا والله لا ينجينا من الناس إلا قتله وما يحل لنا قتله ! !

---

(١) نحباً : هماً وعادة .

فأقبل عبد الله بن سلام(١) حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال :

يا قوم،لا تسلّوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لاتغمدوه. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لا يقم إلابالسيف. ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتتركنها !!

فقالوا : يا ابن اليهودية ، وما انت وهذا ؟!

فرجع عنهم .

قالوا : وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن ابي بكر ، فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تغضب ؟! هل لي إليك جرم الاحقه أخذته منك ؟!

فنكل ورجع .

---

(١) أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام انه قال ــ حين هاج الناس في أمر عثمان ــ : أيها الناس،لا تقتلوا هذا الشيخ واستعتبوه فإنه لن تقتل امة نبيها فيصلح امرهم حتى يهراق دماء سبعين الفاً منهم ، ولن تقتل امة خليفتها فيصلح امرهم حتى يهراق دماء اربعين الفاً منهـم .

فلم ينظروا فيما قال وقتلوه ، فجلس لعلي في الطريق . فقال: أين تريد ؟ فقال: اريد ارض العراق . قال : لا تأت العراق ، وعليك بمنبر رسول الله ﷺ ، فوثب به اناس من اصحاب علي وهموا بـه . فقال علي : دعوه فإنه منا أهل البيت . فلما قتل علي قال عبد الله ابن معقل : هذه راس الأربعين ، وسيكون على راسها صلح . ولن تقتل امة نبيها إلا قتل به سبعون الفاً ، ولن تقتل أمة خليفتها إلا قتل به اربعون الفاً .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

قالوا (اي الرواة) : فلما خرج محمد بن أبي بكر ، وعرفوا انكساره ؛ ثار قتيرة وسودان بن حمران السكونيان ، والغافقي ، فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله ، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء . وجاء سودان بن حمران ليضربه ، فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ، ونفح أصابعها ، فأطنّ أصابع يدها ، وولت فغمز أوراكها وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمان فقتله !!

ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه ــ وقد كان عثمان اعتق من كف منهم ــ فلما رأوا سودان قد ضربه ؛ أهوى له بعضهم، فضرب عنقه فقتله .

ووثب قتيرة على الغلام فقتله ، وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى . فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله ، ودار القوم ، فأخذوا ما وجدوا، حتى تناولوا ما على النساء ، وأخذ رجل ملاءة نائلة ، والرجل يدعى كلثوم بن تجيب فتنحت نائلة . فقال :

ويح أمك من عجيزة ما أتمك .

وبصُر به غلام لعثمان فقتله وقُتل . . .

وكان الزبير قد خرج من المدينة ، فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله . فلما اتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو ؛ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

رحم الله عثمان وانتصر له .

وقيل : إن القوم نادمون . فقال : دبروا دبروا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) الآية .

وأتى الخبر طلحة فقال : رحم الله عثمان ، وانتصر له وللإسلام . وقيل له : إن القوم نادمون فقال : تباً لهم ! وقرأ : (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) .

وأتي علي فقيل : قتل عثمان ، فقال : رحم الله عثمان وخلَف علينا بخير . وقيل : ندم القوم ، فقرأ : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...) الآية . وطلب سعد فإذا هو في حائطه وقد قال : لا أشهد قتله. فلما جاءه قتله قال : فررنا إلى المدينة فدنينا!! وقرأ : (الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) . اللهم أندمهم ثم خذهم .

وهاتان الروايتان يكمل بعضهما بعضاً ، ونأخذ منهما لحدٍ ما صورة كاملة عن مقتل عثمان الشهيد رضوان الله عليه ، وهما منقولتان عن مصادر أمينة .

وقد ضربنا صفحاً عن بقية الروايات المختلطة المتناثرة ؛ لأن هذه الروايات مجال شك من حيث سندها ، ومجال شك من حيث متنها .

* * *

إن النفسية التي يحملها عثمان رضي الله عنه يستحيل أن نجد لها مثيلاً في التاريخ كله إلا في زمانه في عصر فجر الرسالة .

إن بعض الحاكمين يسفكون دماء كل الناس لنجاتهم ، ونجد عثمان يرفض أن تراق قطرة دم في سبيله .

لقد عرض عليه أن يعتزل الأمر فرفض ؛ وليس رفضه حباً بالمنصب ، إنما هو تنفيذ لتوجيه رسول الله ﷺ له :

« يا عثمان إذا البسك الله قميصاً وارادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه » . وهو يمتنع عن القتال ، ويأمر بكف اليد ، ويحرر غلمانه الذين يلقون سيوفهم التي يدافعون بها عنه ؛ لأن رسول الله أمره بذلك ، فلقد بشر بالجنة على هذا الابتلاء .

وقد وردت هذه البشارة في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يوم استأذن عثمان على رسول الله ﷺ ؛ فقال له :

« ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه »(١) .

وهو الذي قيل له في الدار : يا امير المؤمنين الا تقاتل ؟

قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه (٢) .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفضائل .

(٢) روى الإمام أحمد ٦/٥٢ قال: حدثنا يحيى عن إسماعيل بن قيس عن أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ادعوا لي بعض أصحابي. قلت: أبوبكر؟ قال: لا. قلت: عمر؟ قال: لا. قلت: ابن عمك علي؟ قال: لا. قلت: عثمان؟ قال: نعم.

فلما جاء عثمان ، قال : تنحَيْ .

فجعل يسارّه ولون عثمان يتغير .

قال أبو سهلة : فلما كان يوم الدار وحضر فيها ؛ قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟!

قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً وانا صابر نفسي عليه .

ولقد رأى رسولَ الله ﷺ في النوم يوم مقتله ، وقال لـه : (يا عثمان انت عندنا غداً ، وانت مقتول غداً) (١) .

فقتل صائماً صابراً محتسباً قبيل غروب الشمس بقليل ، ومضى إلى ربه انموذجاً خالداً في سجل التاريخ يوم قدم دمه فداءً للمسلمين وهو على مشارف التسعين .

* * *

---

(١) وقد روى كعب بن عجرة قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرَّبها وعظمها . قال : ثم مر رجل مقنع في ملحفة فقال : هذا يومئذٍ على الحق ؛ قال : فانطلقت مسرعاً وأخذت بضبعيه ، فقلت : هذا يا رسول الله ؟ قال : هذا ، فإذا هو عثمان بن عفان .

رواه الإمام أحمد ٢٤٢/٤ وابن ماجه .

عليّ أمير المؤمنين

(بقيت المدينة بعد قتل عثمان رضي الله عنه خمسة ايام واميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه .

يأتي المصريون علياً فيختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة (بساتينها) ، فإذا لقوه باعدهم ، وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة .

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً فباعدهم وتبرأ من مقالتهم .

ويطلب البصريون طلحة ، فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة ، فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً جمعهم الشر على اول من اجابهم . وقالوا : لا نولي احداً من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد بن ابي وقاص وقالوا :

إنك من اهل الشورى ، فرأينا فيك مجتمع ، فاقدم نبايعك ، فبعث إليهم : إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال ، وتمثل :

لا تخلطن خبيثات بطيبة   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

ثم إنهم اتوا ابن عمر عبد الله فقالوا :

انت ابن عمر فقم بهذا الأمر ؛ فقال :

إن لهذا الأمر انتقاماً[1] ، والله لا اتعرض له ، فالتمسوا غيري.

فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر امرهم [2] .

ولما كان يوم الخميس على راس خمسة ايام من مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ جمعوا اهل المدينة فوجدوا سعداً والزبير خارجَين ، ووجدوا طلحة في حائطٍ له ، ووجدوا بني امية قد هربوا .. فلما اجتمع لهم أهل المدينة قال لهم أهل مصر :

انتم اهل الشورى ، وانتم تعقدون الإمامة ، وامركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع .

فقال الجمهور : علي بن ابي طالب نحن به راضون[3] .

---

(1) لم ينفرد عبد الله بن عمر بهـذا الراي ؛ فعن قيس بن أبي حازم قال : سمعت سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول : لقد رأيتني وإن عمر موثقي على الإسلام . ولو انقضَّ أحد مما فعلتم بعثمان كان محقوقاً أن ينقضَّ . (رواه البخاري).

وعن زهدم الجرمي قال : خطب ابن عباس رضي الله عنهما فقال :

لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء !

رواه محمد بن سعد في الطبقات ، وذكره ابن كثير في تاريخه ، وقد روي من غير هذا الوجه عنه .

(2) الطبري ج٣ ص ٤٥٤ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

(3) الطبري ج٣ ص ٤٥٥ ، السري عن شعيب عن سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان .

(وعن محمد وطلحة قالا) :

فقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد اجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير واناساً كثيراً .

فغشي الناس علياً ، فقالوا : نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى .

فقال علي : دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون امراً له وجوه ، وله ألوان لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول .

فقالوا : ننشدك الله الا ترى ما نرى ؟ الا ترى الاسلام ؟ الا ترى الفتنة ؟

الا تخاف الله ؟

فقال : قد اجبتكم لما ارى .

(وكانت لحظة حاسمة في التاريخ الإسلامي ، وعلي رضي الله عنه يدرك خطورة الموقف . فقال بعد لأي :)

ــ واعلموا إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم . وإن تركتموني فإنما انا كأحدكم إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه امركم .

ثم افترقوا على ذلك ، واتعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما بينهم ، وقالوا : إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فبعث البصريون إلى الزبير بصرياً وقالوا : احذر لاتحابه ــ وكان رسولهم حكيم بن جبلة العبدي في نفر ــ فجاؤوا به يحدونه بالسيف . وإلى طلحة كوفياً وقالوا له : احذر لا تحابه ، فبعثوا الأشتر في نفر فجاؤوا به يحدونه بالسيف . واهل الكوفة

وأهل البصرة شامتون بصاحبهم ، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه اهل المدينة ، وقد خشع أهل الكوفة وأهل البصرة أن صاروا اتباعاً لأهل مصر وحشوة فيهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظاً . فلما اصبحوا من يومَ الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء عليٌ حتى صعد المنبر فقال : يا أيها الناس عن ملأ وإذن ، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من امرتم ، وقد افترقنا بالأمس على امر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا اجد على أحد .

فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .

وجاء القوم بطلحة ، فقالوا : بايع ، فقال : إني إنما ابايع كرهاً ، فبايع — وكان به شلل — أول الناس ، وفي الناس رجل يعتاف فنظر من بعيد ؛ فلما راى طلحة اول من بايع قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر !!

ثم جيء بالزبير ، فقال مثل ذلك وبايع — وفي الزبير اختلاف — .

ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا : نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل ؛ فبايعهم . ثم قام العامة فبايعوا (١) .

* * *

هذه هي الصورة الناصعة لولاية علي رضي الله عنه .

الجأه الناس إلى البيعة إلجاءً ، ولجؤوا إليه ليحمل لهم مسؤولية الحكم . غشيه أهل المدينة ، وطلبوا منه أن يكون خليفة

---

(١) الطبري ج٣ ص ٤٥٦ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

المسلمين ، فأمهلهم ليتشاوروا في الأمر حتى اليوم الثاني ، فإذا هم مصرون على مبايعته .

والذي بايع علياً رضي الله عنه أهل المدينة ، أهل الحل والعقد، من لهم التولية والعزل ، أما الثوار فقد رفض علي بيعتهم ، ولاذ منهم في حيطان (بساتين) المدينـة ، بل وتوعدهم لو كان يملك شيئاً من الأمر .

والمؤكد من هذه الروايات ان بيعة طلحة والزبير كانت بيعة إكراه ولا شك ، قام الناقمون بفرضها عليهم . وكما قال الزبير رضي الله عنه فيما روي عنه :

جاءني لص من لصوص عبد القيس ، فبايعت واللج عـلى عنقي .

وكما روي عن طلحة كذلك ؛ عندما ذهب إليه الأشتر فقال له:

دعني انظر ما يصنع الناس .

فلم يدعه وجاء به يتله تلاً عنيفاً ، وصعد المنبر فبايع .

إذاً لا تزال السلطة للثائرين ؛ ومن هنا افترقت وجهة نظر طلحة والزبير رضي الله عنهما عن وجهة نظر امير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وانطلقا يحرضان الناس من الكوفة والبصرة للثأر بدم عثمان .

إنما الغريب في هذا الامر هو موقف الحاقدين الناقمين ، إنهم يعلمون أن العزل ليس لهم ، وأن تنصيب الخليفة ليس لهم ؛ فكيف يقدمون ويجترئون على قتل امير المؤمنين عثمان ؛ اللهم إلا ان تكون تلك اليد اليهودية تحركهم وقت ما تريد وتوقفهم عندما تريد !!

ولكن يمكننا أن ندرك احتمالات أخرى :

لقد حاولوا أن يكون لهم الأمر ويولون من يريدون ، فلم يستجب لهم أحد ، وتنصل منهم أهل الشورى بل وهددوهم ، وهم يعلمون أنه مالم يستجب لهم واحد من هؤلاء فسوف تثور بهم الأرض الإسلامية من كل حدب وصوب ، وسوف يقتلون عن بكرة أبيهم .

فكان لا بد من خليفة ، فاستعملوا سلاح التهديد الرهيب . أرادوا قتل العلية من أصحاب محمد ﷺ جميعهم ليرغموا الناس على اختيار خليفة ، وحققوا ما أرادوه لينقذوا أنفسهم من القتل .

لا شك أن الذي يخطط لهم على مستوى من المهارة والدهاء ، بحيث يحقق مأربه ، وينسحب في اللحظة المناسبة .



وتعترض أمامنا الآن تساؤلات شتى ــ وقد غدا علي أمير المؤمنين ــ :

ماذا يفعل مع هؤلاء الثوار ؟

لنستمع إلى هذا النقاش الهادىء بين علي رضي الله عنه ومستشاريه طلحة والزبير :

(واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة :

فقالوا : يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم :

يا إخوتاه إني لست اجهل ما تعلمون ، ولكن كيف اصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون !!

قالوا : لا

قال : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر امر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من اخذ بها أبدا .

إن الناس من هذا الأمر إن حُرّك على أمور :

فرقة ترى ما ترون . وفرقة ترى مالا ترون . وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق . فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا(١) .

يبدو امامنا هنا رأي لعلي رضي الله عنه لم نكن نعلمه من قبل ؛ وهو أن شوكة الثائرين قد قويت ، وانضم إليهم أفواج جديدة من الأعراب والعبدان .

ويمكن أن يحل جزء كبير من المشكلة إذا أمكن تفريق هذا الجمع وتفتيته .

إنه يرى أن قتلة عثمان هم اليد المحركة الخفية التي يجب ان تبتر ، ولن تكشف إلا عندما يتفرق هذا التجمع ، وينفض المغرَّر بهم إلى بلادهم .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٨ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

ومن أجل هذا وجدناه في اليوم الثالث من خلافته يصعد على المنبر ويخطبهم قائلاً : يا أيها الناس اخرجوا عنكم الأعراب .

وقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم .

فأبت السبئية ، واطاعهم الأعراب ، ودخل عليٌ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من اصحاب النبي ﷺ .

ـ علي لطلحة والزبير : دونكم ثأركم فاقتلوه .

ـ عتوا عن ذلك .

ـ هم والله بعد اليوم أعتى وآبى ، وقال :

ولو أن قومي طاوعتني سرَاتهم امرتهم امراً يديخ الأعاديا

طلحة : دعني فلآتِ البصرة فلا يفجؤك إلا وانا في خيل .

علي : حتى انظر في ذلك .

الزبير : دعني فلآت الكوفة فلا يفجؤك إلا وانا في خيل .

علي : حتى انظر في ذلك (١) .

لم يكن من السهل على علي بن أبي طالب أن ينظر حوله فلا يرى طلحة والزبير وهما اشد من يعتمد عليهما وعلى مشورتهما .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهو يعلم ان الظروف التي بايع فيهما هذان ظروف غير طبيعية ، فلا شيء يمنع أن ينهجا نهجاً لا يقره ، ويصعب التفاهم بعدها بحجة هذه الظروف .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٩ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

ومن جهة ثالثة لا يزال رأي عمر مرتسماً بذهنه ، وهو عدم السماح لكبار الصحابة بمغادرة المدينة ، حتى لا يفتتن بهم الناس ، ويتفرقوا بهم ؛ فتتفرق كلمة المسلمين .

وصدق حدس أمير المؤمنين . فكانت فتنة الجمل(١) التي فتحت نهر الدم على مصراعيه .

* * *

---

(١) كان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي قد قام بين الفريقين (جيش علي وعائشة) بالوساطة الحكيمة المعقولة ، فاستجاب له أصحاب الجمل ، وأذعن علي لذلك ، وبعث علي إلى طلحة والزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر ، فأرسلا إليه : (إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس) . قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧ : ٢٣٩) : فاطمأنت النفوس ، وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما امسوا بعث عليٌ عبد الله بن عباس إليهم ، وبعثوا محمد بن طلحة السجاد إلى علي ، وعولوا جميعاً على الصلح ، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة ، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر ، ففدوا مع الغلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالاً . (انظر تاريخ الطبري ٥ : ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ومنهاج السنة ٢ : ١٨٥ و ٣ : ٢٢٥ و ٢٤١) .

وهكذا انشبوا الحرب بين علي وبين الزبير وطلحة ، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم ، وظن علي أن إخوانه غدروا به ، وكل منهم اتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية ، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن ــ العواصم من القواصم من تعليق محب الدين الخطيب رحمه الله ص ١٥٦ ــ ١٥٧ ــ المطبعة السلفية .

مُعَاوِيَة وَأمِير المؤمنين

بدأنا بعد غياب طال ، ندلف إلى معاوية رويداً رويداً . وما كان الغياب عنه من قبل إلا من أجل أن تكون قضية الخلاف الأولى بينه وبين علي واضحة أكثر ما يكون الوضوح ، جلية أشد ما يكون الجلاء .

في هذا الجو المكفهر ، تباعد الاجتهاد ، وتشتتت الآراء ، وصار الحليم في الأمة حيرانَ لا يهتدي إلى سبيل . لقد جاءت الفتن تجر بعضها بعضاً !!

(بعث علي عماله على الأمصار : فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ـ وكانت له هجرة ـ وعبيدالله ابن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل ، فقالوا :

ـ من أنت ؟

ـ أمير .

ـ على أي شيء ؟؟

ـ على الشام .

ـ إن كان عثمان بعثك فحيهلاً بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع .

– أو ما سمعتم بالذي كان ؟

– بلى .

فرجع إلى علي ...(١)

ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام ، وأتته الأخبار ، ورجع من رجع (وكان رسول أمير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني . فقدم عليه . فلم يكتب معاوية بشيء ، ولم يجبه ، ولبث رسوله . وجعل كلما تنجز – طلب الانجاز – جوابه لم يزد على قوله) :

أدم إدامة حصن أو خذاً بيدي
حرباً ضروساً تَشُبُّ الجَزْل والضرما
في جاركم وابنكم إذ كان مقتله
شنعاءَ شيَّبتِ الأصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم
يوجد لها غيرُنا مولىً ولا حكما

لقد كان آخر لقاء لنا مع معاوية يوم ودّع المدينة وأوصى علياً وطلحة والزبير بأمير المؤمنين عثمان بن عفان . اما الآن ، فهو يعلنها حرباً شعواء تأكل الأخضر واليابس ،من أجل قتل أمير المؤمنين عثمان وهو سيحمل لواء هذه الحرب ، ولن يغمض له جفن حتى يثأر للخليفة الشهيد .

وكانت الخطوة الثانية من هذا الإعلان الحربي السافر ، رسول معاوية إلى علي (حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٢ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

في صفر (سنة ٣٦) ؛ دعا معاوية برجل من بني عبس ، ثم أحد بني رواحة يدعى قبيصة ، فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه : من معاوية إلى علي . فقال له :

إذا دخلت المدينة فاقبض على اسفل الطومار .

ثم أوصاه بما يقول وسرّح رسول علي ، وخرجا ، فقدما المدينة في ربيع الأول لغرته . فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره ، وخرج الناس ينظرون إليه ، فتفرقوا إلى منازلهم ، وقد علموا أن معاوية معترض .

ومضى حتى يدخل على علي ، فدفع إليه الطومار ففض خاتمه ، فلم يجد في جوفه كتابة ؛ فقال للرسول : ماوراءك ؟

الرسول : آمن أنا ؟؟

عليّ : نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

الرسول : ورائي إني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقَوَد (القصاص) .

علي : ممن ؟؟

الرسول : من خَيْط نفسك .

وكظم عليٌ انفعاله ، بينما تابع الرسول قوله :

وتركت ستين الف شيخ يبكي تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق .

علي : مني يطلبون دم عثمان ؟! الست موتوراً كتِرة عثمان ؟! اللهم إني ابرأ إليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا ان يشاء الله ، فإنه إذا اراد امراً اصابه .

ثم قال للرسول : اخرج .

الرسول : وأنا آمن ؟

علي : وأنت آمن .

فخرج العبسي .

وصاحت السبئية : هذا الكلب ، هذا وافد الكلاب ، اقتلوه .

فنادى : يا آل مضر ، يا آل قيس الخيل والنبل .

إني أحلف بالله جلّ اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي ؛ فانظروا كم الفحولة والركاب .

وتعاوَوا عليه ، ومنعته مضر) (١) .

هذه هي الصورة عما جرى في المدينة لدى أهل الشام :

الثائرون قتلوا عثمان ، ولجؤوا إلى علي فبايعوه ؛ فمما لا شك فيه أن هناك تواطؤاً بين الثوار وعلي ، وأن له هوىً في قتل ذي النورين .

أما بيعة أهل المدينة فلا يعتد بها لأن الثوار هم المسيطرون على المدينة . فيستطيعون تنفيذ ما يريدون ، وأن يجبروا أهل المدينة على البيعة التي يحبون ؛ لأن سيوف الثوار مسلطة على رقابهم .

ولو كان أهل المدينة قادرين على شيء من أمورهم لأمكنهم حماية عثمان .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٤ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

وإن خروج طلحة والزبير وعائشة وهم من كبار اصحاب رسول الله ﷺ ؛ لدليل أكيد على أن أهل المدينة لا يملكون من أمرهم شيئاً ، خاصة وأن بني أمية قد هربوا من المدينة قبل أن تتم بيعة علي ، ولم يكن بينهم احد شهد ظروف البيعة ، وتمنّع علي رضي الله عنه عنها عندما كانت في ايدي الثوار ، ولم يشهدوا زحف اهل المدينة إليه ، ورجاءهم الحار له أن يقبل الخلافة ، حتى لا يمكثوا تحت رحمة الثوار ، ولا يبقى المسلمون بدون أمير وتفترق الأهواء وتتشعب الآراء .

لم يشهد الفارون من بني امية إلى الشام هذه الصورة السليمة النقية التي تشهد لابن أبي طالب بصحة بيعته .

لقد شهد نقلة الخبر إلى معاوية بقتل عثمان ، شهدوا سيوفاً مصلتة على رقابهم وبيت المال منتهكاً مسلوباً من هؤلاء الحاقدين، وأصابع نائلة المقطوعة رضي الله عنها ، وشهدوا إرهاباً وتسلطاً حال بينهم وبين دفن عثمان في مقابر المسلمين ـ فلا غرابة أن تنتقل هذه الصورة إلى الشام ، فتتهيج لها النفوس والعواطف وتشتعل القلوب ، خصوصاً وأن هذه الصورة لا بد أنها حملت مبالغات وتصورات وأخباراً يصعب تمحيصها . هذا بالإضافة إلى خروج المسلمين في مكة والبصرة . مما جعل الأمر يقبل لدى معاوية اتهام علي رضوان الله عليه بالسكوت على دم عثمان.

على أساس هذه القاعدة يمكننا أن نفهم إصرار معاوية رضي‌الله عنه على الحرب للثأر بدم الخليفة الشهيد ، وهو موقف لمعاوية متناسب تمام التناسب مع كل مواقفه السابقة خصوصاً موقفه يوم عرض على عثمان رضي الله عنه المسير إلى الشام ، أو إمداده بجيوش لحمايته في المدينة . إنه موقف طبيعي ومنطقي وانطلاقاً من هذه

القاعدة التي ذكرناها . كما أن الظروف مكنته من ان يسبر أغوار المشاغبين الذين كانوا يرسلون إلى الشام من قبل الخليفة الراحل ، لتأديبهم وتوجيههم وعرف يومها أنهم طلاب فتنة لا طلاب حق .

لا غرابة بعد هذا اطلاقاً أن نرى إصرار معاوية ومعه المسلمون في الشام جميعاً ؛ على انتزاع السلطة المغصوبة من الثوار ، والتنكيل بهم جزاء الجريمة التي فاقت كل الجرائم بمقتل الخليفة العظيم .

بل الغرابة أن يكون الموقف غير ذلك .

وهل نتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتلين متآمرين ، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للثأر من أصحاب هذه الجريمة البشعة ؟!

وهكذا تجري الأمور عندما تقع في الأمة الفتن فلا يمكن لطرف أن يفهم الطرف الآخر ويلتقي معه ويتعرف على ظروفه وملابساته ودوافعه ، ويكون للعواطف دور كبير في تأزيم القضايا وتعقيد الخلاف .

وهو عقاب الله تعالى للأمة جزاء تقاعسها عن حماية الخليفة الشهيد ، كما قال عبد الله بن سلام :

(ولن تقتل أمة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء اربعين الفاً منهم) (أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) .

وما هو موقف علي رضي الله عنه من إعلان الحرب من معاوية عليه ؟

(.. وأحب أهل المدينة ان يعلموا ما راي علي في معاوية

وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رايه في قتال اهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه . وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس ، فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ــ وكان منقطعاً إلى علي ــ فدخل عليه فجلس إليه ساعة ، فقال علي له :

ــ يا زياد تيسر .

ــ : لأي شيء ؟

ــ تغزو الشام .

ــ : الأناة والرفق أمثل .

وأنشد :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

ــ : (فتمثل علي)

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس ، والناس ينتظرونه ؛ فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : السيف ياقوم !!

ودعا علي محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله ابن عباس ميمنته ، وعمر بن أبي سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ولاه ميسرته ، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح فجعله على مقدمته، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً .

وكتب إلى قيس بن سعد (١) أن يندب الناس إلى الشام ،

---

(١) واليه على مصر .

وإلى عثمان بن حُنَيف[1] وإلى أبي موسى[2] مثل ذلك . واقبل على التهيؤ والتجهز . وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال :

(إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك . وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله . وإن في سلطان الله عصمة أمركم . فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلنّ أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها . انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم)[3] .

والذي يستوقفنا في هذا العرض هو خشية أهل المدينة من القتال ، بجانب إيمان علي الذي لا يتزعزع فيه ، وقد أرسلوا إليه زياد بن حنظلة يتعرفون على رايه . وراي علي واضح لاتحتاج معرفته إلى جهد ، وهو الذي عرض على زياد القتال .

والأمر لا يحتمل لدى امير المؤمنين التسويف ، ولهذا فقد اختار نماذج طيبة وموثوقة وفتيّة لقيادة الجيش : فعبد الله بن عباس حبر الأمة للميمنة ، وابن ام المؤمنين ام سلمة للميسرة ، وابن اخي امين الأمة للمقدمة ، واللواء لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل

---

(١) واليه على البصرة .

(٢) كان أبو موسى على الكوفة من قبل عثمان وأقره علي بادىء ذي بدء .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٤٦٥ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

واليه على المدينة قثم بن العباس رضي الله عنهما ـ وهذه كلها نوعيات نظيفة لم تتلوث من قريب أو بعيد بدم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ؛ ومن أجل هذا وجدنا الراوي يشير إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يولِّ ممن خرج على عثمان أحداً .

إنه منهج إسلامي لدى ابن عم رسول الله ، إنه لا يؤمن بالمساومة والالتواء ، فبالرغم من سطوة قتلة عثمان وسلطتهم ، وبالرغم من أن الإرهاب منهم لا يزال له مجراه ؛ لكن أمير المؤمنين رفض أن يلوث حكمه والولاية عنده بمن شارك بدم عثمان بشيء . وطلب في الوقت نفسه الأمداد من الولايات الإسلامية . إنه يطمع أن يغزو الشام بأكبر جيش ممكن يضطر به أهل الشام إلى الدخول في طاعته دون إراقة دماء ، وليس أمام أمير المؤمنين إلا القتال .

فرسول علي إلى الشام ، ورسول الشام إلى علي يتحدثان عن الحرب الضروس التي تشبُّ الجزل والضرم ، ويتحدثان عن ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، يعاهدون الله على الثأر للخليفة الشهيد .

إن غزو الشام قبل أن يستجمع قواته ، ويتمكن من إشعال الفتنة ؛ هي الخطة التي رآها علي مناسبة ، أملاً بأن تحقن الدماء ، ويعود الباغون إلى حظيرة الحق . ومعاوية رضي الله عنه يعبىء القوى كلها لنصرة الحق ، والثأر للخليفة الشهيد من السفاكين المارقين . وهكذا يمضي كلا الفريقين إلى القتال .



عمرو بن العاص في المعركة

من بين الروايات الكثيرة عن دخول عمرو بن العاص المعركة بجانب معاوية نأخذ رواية أوثق رواة الطبري : السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان ؛ قالوا :

لما أحيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب .

(وهو رأي عبد الله بن عباس . وهو الذي قال لعثمان أن قتال هؤلاء المارقين أكثر أجراً عند الله من إمارة الحج التي كلفه بها) .

فسار (أي عمرو) وسار معه ابناه عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله .

(.. وبينا عمرو بن العاص جالس بعجلان (اسم مكان) ومعه ابناه إذ مر بهم راكب .

فقالوا : من أين ؟؟

الراكب : من المدينة .

عمرو : ما اسمك ؟

الراكب : حصيرة .

عمرو : حصر الرجل ، فما الخبر ؟!
الراكب : تركت الرجل محصوراً .
عمرو : يقتل .

ثم مكثوا أياماً ، فمر بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ، قال عمرو : ما اسمك ؟ قال : قتال ؛ قال عمرو : قتل الرجل . فما الخبر ؟

قال : قتل الرجل ، ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خرجت .

ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة . قال عمرو : ما اسمك . قال : حرب . قال عمرو : يكون حرب . فما الخبر ؟؟

قال : قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبويع لعلي بن أبي طالب .

قال عمرو : انا أبو عبد الله يكون حرب من حك فيها قرحة نكأها . رحم الله عثمان ورضي الله عنه ، وغفر له .

قال سلامة بن زنباع الجذامي :

(يا معشر قريش ، إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب . فاتخذوا باباً إذ كسر الباب) .

إنها دعوة إلى الاجتماع على خليفة للمسلمين .

فما هي وجهة نظر عمرو في هذا الموضوع ؟؟

إنه مقتنع بعودة الخلافة ، لكن بغير الصورة التي تمت بها والثوار يحتلون المدينة ، لا بد من العودة بالأمور إلى نصابها وتكون الخلافة شورى بعد ذلك ، وهي وجهة نظر معاوية . ولم يعرف

عمرو كيف تمت خلافة علي ، ومن أجل هذا اعلن عمرو كذلك نذر الحرب فقال :

(وذاك الذي نريد ، ولا يصلح الباب إلا اشاف تخرج الحق من حافرة البأس ، ويكون الناس في العدل سواء . . .) .

لا بد من ان يخرج الحق من منطق الضغط والإكراه ومن مخالب القوة .

لا بد أن تكون الخلافة ، ولا ظل أو سلطان للثائرين المحتلين للمدينة .

واعتصرت قلبه الأحزان على الخليفة الشهيد . وكيف تمت هذه المأساة ، وكأن القوم مخمورون !! فقال :

يـا لهـف نفسي عـلى مالـك ... وهل يصرفَ اللهف حفظ القدر
أنـزع مـن الحـر أودى بهـم ... فأعذرهـم أم بقـومي سكـر

ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه ! أنعي الحياء والدين ! حتى قدم دمشق .

* * *

وهنا لابد من الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ــ ونحن بصدد الحديث عن معاوية ــ فلقد كان عمرو من أبرز العناصر التي قادت الأمة في تلك الفترة ، وهو الشخصية الثالثة دون منازع بعد علي ومعاوية رضوان الله عليهما . ولا ادل على ذلك من أن الخوارج عندما أرادوا ــ على تصورهم القاصر ــ القضاء على قادة المسلمين ، اختاروا هؤلاء الثلاثة ليقتالوهم ، وهم : علي ومعاوية وعمـرو رضي الله عنهم .

ومعالم شخصية عمرو محددة : فهو ذو بصر نفاذ ، بعيد الغور ، يتريث ويترقب عندما تكون الأمور غامضة ، والحوادث

مشتجرة متكاثفة ، ويمضي لهدفه بعد أن يستجلي الأمور التي يسبر غورها ، ويدرك مآلها قبل غيرها ، وهنا يبرز دهاؤه وتكمن عبقريته .

لقد رأى ريح الفتنة تهب عاتية ، وروائحها تفوح ، فلخص الموقف بكلمة واحدة : (والله يا أهل المدينة مايقيم بها احد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عزوجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب) .

لقد رأى ببصره الثاقب أن لاقِبَلَ لأحدٍ بهؤلاء العتاة ولا طاقة . وإن الإقامة في المدينة والأيدي مكتفة ، والنفوس حبيسة ، هو تلوثٌ بهذه الفتنة ومسؤولية . والنجاء والهرب يمكن أن يخفف شيئاً من جسامة المسؤولية ورهبتها حيث لايكون حلٌ إلا النجاء.

لقد مضى يترقب الأمور ويتابعها ، وكأنه هو الذي رسمها لشدة وعيه بما يجري ، فمن الحصار إلى القتل إلى الحرب . وكان مقتل عثمان كافياً لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين. وكان لابد من اختيار مكانٍ غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله وقتلوا خليفته على اعين الناس .

وأي غرابة أن يثور عمرو لعثمان ؟ بل الغريب أن لايثور ، وإن كان هناك من يشكك في هذا الموضوع فمداره على الروايات المختلقة أو المكذوبة التي تصور عمراً كل همه السلطة والحكم .

إن التنظيم الدقيق دائماً هو الذي يغلب عامة الناس ودهماءهم حتى لو كان فيهم العالم النحرير ، والبطل الشجاع . وأمر المدينة لم يكن إلا كذلك .

فأي انقلاب عسكري يأتي ـ كما نشهد في أيامنا المعاصرة ـ يطيح بالحكم القائم. وللحكم جنوده وجيوشه ، وخاصة في العاصمة.

لقد كان العمل ضد الثوار في المدينة من المستحيل أن ينجح أو يحقق هدفه ، فكان لابد من العمل خارج المدينة ، وليس عمرو ابن العاص وحده الذي اقتنع بذلك ، وليس وحده الذي عجز عن أن يفعل شيئاً فيها . فلقد كان من هو أقدم منه سابقة ، وأعظم منه شجاعة ، وعجز عن أن يفعل شيئاً تجاه هذه الحركة المحتلة . إن طلحة والزبير وعائشة كانوا عاجزين عن فعل شيء في المدينة فاختاروا مكة ثم البصرة والكوفة . وإن علياً رضي الله عنه كان عاجزاً عن فعل شيء في المدينة لحماية أمير المؤمنين عثمان ، وكان تصوره عن طبيعة العمل ضد الثوار يتم من خلال مبايعة الولايات لـه . ثم تقديمها الأمداد له للتخلص من هؤلاء البغاة المتسلطين .

لم يكن غريباً إذاً أبداً أن يغادر عمرو المدينة حتى لا يلحقه ذل السكوت على حصار الخليفة الشهيد . وليس غريباً أن يمضي إلى معاوية ؛ فمعاوية قادر بما مكن الله له في قلوب أهل الشام من أن يحرك الكتائب للثأر للخليفة المقتول ، وقد تواردت الأنباء إليه بعزم معاوية . فكان أن مضى إليه وانضم له ؛ وهدفه بيّن ، وغايته مرسومة ، ندرك ذلك بقراءتنا لهذين البيتين اللذين تمثّل بهما :

يـا لهف نفسي على مـالك
وهل يصرفُ اللهفُ حفظَ القَدَرْ
أتَزْعُ من الحَرِّ أودى بهم
فأعذرُهم أم بقومي سكَر

إنه يرى أن اللهفة لاتجدي ، وأن الغافلين كأنهم سكارى ، ولا بد أن يفيقوا وليحمل هو هذا اللواء .

وهكذا كان مجيء عمرو للشام هو الشيء المنطقي والمعقـول نظراً لإدراكه أبعاد المؤامرة ، ولأن معاوية ـ وهو قريب عثمان في

النسب ـ غدا مركز التجمع بعد أن فر بنو أمية إليه ، وغدت الشام بذلك مركز من يريد الثأر لعثمان ، ففيها قميصه وأصابع نائلة زوجه ، يرفعان على منبرها ، ويثيران حفائظ الناس .

وأين يمضي عمرو بن العاص إن لم يمض إلى الشام ؟

إن الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان ثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر . إن الشام وحدها من بين الولايات المجاورة هي التي بقيت على الولاء التام لأمير المؤمنين عثمان . وكان وجود معاوية فيها وضبطه للأمر ، وقطعه دابر الفتنة يجعل كل الأنظار تتجه إليها . والنجاح السياسي العظيم الذي حققه معاوية فيها خلال ستة عشر عاماً قمين أن يربط الأمة هناك بقائد حكيم كمعاوية .

ومع ذلك فلم تكن عملية تحريك الناس لقتال قتلة عثمان بالأمر السهل ؛ يفسر لنا هذا الراي مالجأ إليه معاوية رضي الله عنه من وضع القميص على منبر دمشق مع أصابع نائلة رضي الله عنها فترة طويلة ليستثير الغضب ، ويصوب الأنظار إلى أنه ولي دمي عثمان ، ويدفع بالناس إلى قتال هؤلاء المارقين المعتدين .

أما مضي طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما إلى البصرة والكوفة فله جذور ليست قائمة عند عمرو بن العاص . فللزبير شيعته بالكوفة ، ولطلحة شيعته بالبصرة . فهناك الأنصار والأمداد التي يمكن أن تحرك المؤيدين للقتال .

ولم يحتلّ هذان الصاحبان مركزهما من ولاية توليا‌ها ، إنما احتلاه من جهاد عريق في الإسلام ؛ بجانب إقامة معينة هناك هيأت لهما هذا النفوذ . وإن كنا لا نستطيع ان ننفي ان دعاة الفتنة قد شجعوا هذه التبعيات للقادة من الصحابة ، ليفترق أمر المسلمين شيعاً وأحزاباً .

أما عمرو فإنه وإن كان والياً على مصر فقد عزل عنها وتولى بعده ولاة عديدون ؛ إضافة إلى أن مصر قد تحرك الثوار منها لقتل عثمان أمير المؤمنين . إنه يمكن أن يفعل شيئاً هناك لو كان لديه سلطة رادعة أو ولاية معينة يستطيع أن يتصرف من خلالها ، ولقد فعل الكثير الكثير عندما استلم الولاية .

فإذن ليس له أرضية يستند إليها كما كان لدى طلحة والزبير في الكوفة والبصرة .

وعامل أخير يرد ذكره كذلك ؛ هو الصداقة الوطيدة القائمة بين معاوية وعمرو بن العاص .

لقد أمضيا في جيش الشرك ، وفي صف واحد ضد الدعوة قرابة عشرين عاماً .

ولقد عادا إلى اللقاء ثانية تحت لواء الإسلام في الشام في كل ربوعها : في الأردن وفلسطين ودمشق .

فالمعرفة قائمة ، وكل منهما يفقه الآخر ، ويمكن أن يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه .

وبقي أمامنا السؤال الأخير :

ألم يكن بإمكان عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يمضي إلى المدينة ، ويبايع علياً رضوان الله عليه ؟

نعم كان يمكنه ذلك ، ولكن ما قلناه عن معاوية يقال عن عمرو . لم يحضر عمرو بيعة علي ، ولم ير إجماع المهاجرين والأنصار على تلك البيعة ، وقد شهد جو المدينة المخنوق ، وسيطرة الثوار على المدينة بالقوة ، وقتلهم خليفة المسلمين دون أن يجرؤ أحد على أن يقف في وجوههم ، ما عدا الفدائيين من أبناء الصحابة : الحسن والحسين ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .

بل وبلغه كيف دفن عثمان ، وكيف نهب بيت المال .

فلا يمكن أن يتصور أن بيعة علي رضي الله عنه قد تمت بظروف طبيعية وسليمة .

وإذا كان علي رضي الله عنه قد وجد عذراً لطلحة والزبير حين ذكرا بيعتهما مكرهين ولم يردّ عليهما هذا الموقف ، وعذر سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، عن عدم البيعة وهما في المدينة ؛ فما بالك بالذي لم يحضر البيعة مطلقاً ، وإنما تتوارد إليه الأخبار التي قد ينالها التهويل والمبالغة عن المدينة واحوالها وسيطرة الثوار عليهـا ؟ !

كل هذه العوامل تؤكد ان عمراً ليس فقط من المنطقي والمعقول أن يمضي إلى الشام ويطالب مع المطالبين بدم عثمان ، بل لم يكن أمامه إلا طريق واحد هو طريق الشام للثأر من قتلة الخليفة المظلوم .

أما الرواية المتداولة التي تشير إلى أنه استدعى ولديه محمداً وعبد الله ، واستشارهما ، فأشار عبد الله عليه بالانضمام إلى علي فقــال له : إنك اخترت لي آخرتي ، وأشـــار عليه ابنه محمد أن ينضم إلى معاوية ؛ فقال له : اخترت لي دنياي ، ثم اختار دنياه على آخرته ـ فهي رواية ضعيفة السند ؛ لذا لا يعوّل عليها (١) .

* * *

مَأساة صِفِّين

(لما بلغ معاوية سير علي سار معاوية نحو علي ، واستعمل على مقدمته سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي ، وعلى الساقة بسر ابن أبي ارطاة حتى توافوا جميعاً سائرين إلى جانب صفين)(١) .

(وقد اقتتلوا في مدة شهر ذي الحجة كل يوم ، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين ، وجرت بينهم حروب يطول ذكرها (٢) ، والمقصود انهم لما دخل شهر المحرم تحاجز القوم رجاء ان يقع بينهم مهادنة وموادعة يؤول أمرها إلى الصلح بين الناس وحقن دمائهم)(٣)

---

(١) رواه ابن ديزيل من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر ويزيد بن الحسن بن علي . وقد اختلفوا في جابر الجعفي : وثقه الثوري وضعفه آخرون ، وبقية الرواة ثقات .

(٢) أورد ابن جرير الطبري هذه الحروب وكلها عن طريق أبي مخنف الشيعي . قال عنه الحافظ الذهبي : أبو مخنف أخباري تالف لا يوثق به ، تركه ابو حاتم وغيره . وقال فيه ابن عدي : شيعي محترق صاحب أخبارهم .

ومن جهة ثانية فلم يرو السري عن شعيب عن سيف ــ أوثق رواة الطبري ــ شيئاً من هذه الحروب ؛ ومن أجل هذا أعرضنا عن تفصيلها .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٨/٧ .

(فأقاموا يتراسلون في ذلك (١) ويقرعون في غضون ذلك القرعة بعد القرعة ، ويزحف بعضهم على بعض ، ويحجز بينهم القراء فلا يكون قتال . قال : فقرعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين قرعة) (٢) .

(قال : وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية فقالا لـه :

يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً ، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ ، وأحق بهذا الأمر منك ! !

فقال : أقاتله على دم عثمان وانه آوى قتلته ؛ فاذهبا إليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام .

فذهبا إلى علي ، فقالا له ذلك .

فقال : هؤلاء الذين تريان .

فخرج خلق كثير فقالوا :

نحن قتلة عثمان . فمن شاء فليرمنا .

---

(١) أورد ابن جرير تفاصيل المراسلات ، وقد أعرضنا عن ذكرها للسبب نفسه . لأن مصدرها الوحيد هو أبو مخنف الشيعي وفيها قدح بجانب معاوية رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٦٠ .

فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة ، فلم يشهدا لهم حرباً) (١) .

لقد كانت وجهة نظر الصحابيين الجليلين سديدة ، فهما لايشكان أن أمير المؤمنين علياً على الحق ؛ لكن وجود هذه الأعداد الكثيرة من الألوف العديدة تصر على أنها من قتلة عثمان كان كابحاً لهما عن أن يشتركا في الحرب مع أحد الفريقين .

ومضى وفد من علي إلى معاوية رضي الله عنهما ، كما جاء وفد من معاوية إلى علي ، وتدخّل القراء في محاولة نهائية للإصلاح.

فقد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له :

أنت تنازع علياً أم أنت مثله ؟

فقال : والله إني لأعلم أنه خير مني وافضل ، وأحقّ بالأمر مني ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه ، وأمره إلي ؟! فقولوا له فليسلم إلي قتلة عثمان ، وأنا أسلم له أمره .

---

(١) أورده ابن ديزيل . وقد أورد الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ ما يلي : ابن ديزيل الحافظ الرحال أبو إسحاق إبراهيم ابن الحسين الكسائي الهمذاني المتوفى سنة ٢٨١ هـ . قال صالح بن أحمد محدث همذان : سمعت علي بن قيس يقول : الإسناد الذي يأتي به ابن ديزيل لوكان فيه أن لايؤكل الخبز لوجب تركه لصحة إسناده ! ويلقب بدابة عفان وبسفينته ؛ وسفينة طائر لا يحط على شجرة .

وقد وردت هذه الرواية في البداية والنهاية لابن كثير٧/٢٦٠ .

فأتوا علياً فكلموه في ذلك ، فلم يدفع إليهم أحداً . فعندئذ صمم أهل الشام على القتال مع معاوية (١) .

لم يقتنع أي من الفريقين بوجهة نظر الآخر ، ولو كانت القضية خلافاً على الدنيا ورغبة في مطامعهـا ، لتقاسم الفريقان النفوذ في الدولة الإسلامية ، ومضى كل منهما في حال سبيله .

إن القضية ليست قضية حكم ، وشهوة تسلط ، وليست قضية صراع على مغانم ومكاسب ، إن الأمر أعمق من ذلك بكثير ؛ إنها قضية عقيدة يجب أن تسود ، وأول معالم سيادة عقيدة الإسلام هو : أن لا يكون خليفتان في وقت واحد . إن منطق الإسلام الجماعي يرفض الفرقة والانفصال رفضاً باتاً .

ومن أجل هذا قدم علي رضي الله عنه البيان الأول للحرب :

(الا إن امير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله عزوجل ، ودعوتكم فلم تناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى الحق ، وإني قـد نبذت إليكم على سواء إن الله لايحب الخائنين . .) .

أما تعليمات الحرب الإسلامية فهي :

(لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم : فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتم إلى رحال القـوم : فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً مـن

(١) البداية والنهاية لابن كثيرج ٨ ص ١٢٩ . وقد أورد الخبر الذهبي في سير أعلام النبلاء ورجاله ثقات ٣/١٤٠ .

اموالهم إلا ماوجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن اعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن ضعاف القـوى والأنفس !!) (١) .

ومتى كان هذا الموقف ؟

كان بعد مرور ثمانية أشهر في محاولة دائبة للصلح ، لكن دون جدوى . فلم تأت الحرب اندفاعاً او عصبية او عاطفة ، او جزافاً . لقد جاءت عن بصيرة ويقين وإصرار يوم لم يكن بد من الحرب ، او فرقة الكلمة وتمزق الأمة .

ونحن لن نخوض في تفاصيل الحرب (٢) ، إنما يهمنا بواعثها واهدافها ، ولكنا سنعرض بلمحة عامة عن خطواتها :

١ ـ ابتدات حروب جانبية بين فصائل الجيشين خلال شهر ذي الحجة بكماله .

وكانت هذه الحروب بعد الاختـلاف على المـاء . والرواية الصحيحة التي تحدثنا عن الخلاف على الماء هي رواية ابي الصلت الحضرمي التي يقول فيها :

حلنا بين اهل العراق وبين الماء ، فأتانا فارس ثم حسر ، فإذا هو الأشعث بن قيس فقال :

اللهَ اللهَ يا معاوية في امة محمد ﷺ .

---

(١) الطبري ج٤ ص٦ من رواية أبي مخنف عن عبد الرحمن ابن جندب الأزدي . وقد قبلنا هاتين الروايتين لاتساقهما مع المنهج الإسلامي في الحرب بين المسلمين .

(٢) لأن كل تفصيلاتها من رواية ابي مخنف ، وقد رأينا راي علماء الرجال فيه .

هَبُوا أنكم قتلتم أهل العراق ، فمن للبعوث والذراري ؟!

أم هَبُوا أنا قتلناكم فمن للبعوث والذراري ؟

إن الله تعالى يقول :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » .

قال معاوية : فماذا تريد ؟

قال : خلوا بيننا وبين الماء .

فقال لأبي الأعور : خَلِّ بين إخواننا وبين الماء (١) .

٢ ــ عادت الهدنة ثانية والمراسلات خلال شهر المحرم من العام الجديد .

٣ ــ احتدمت الحرب بعنف يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ واستمرت في هولها حتى يوم الثلاثاء دون أن يظهر أحد من الفريقين على الآخر فقد كانا متكافئين .

٤ ــ كان يوم الأربعاء الثامن من صفر على أشد هول ، وذلك بعد تعبئة كاملة من الجيشين حيث كان الاصطدام كاملاً ، وتم فيه إحراز النصر من أهل العراق على أهل الشام .

٥ ــ واستمر القتال على عنفه وشدته ؛ حيث استطاع أهل الشام أن يشنوا هجوماً معاكساً ويكشفوا ميمنة جيش علي رضي

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص ٢٧ وسند هذه الرواية أبو المغيرة الخولاني وهو ثقة وصفوان بن عمرو وهو ثقة .

الله عنه حتى إنه لم يبق مع أمير المؤمنين فيها غير ثلاثمائة وكذا قبيلة ربيعة التي ثبتت معه رضي الله عنه ، وفي هذه المرحلة من الحرب كان مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه .

٦ ـ واستمر القتـال عنيفاً شرساً حتىيوم الجمعة حيث استعاد جيش أمير المؤمنين قوته ، وتفانى في جهاده ، وصار قاب قوسين او ادنى من النصر !!

٧ ـ لم يكن الفرار ممكناً من أيٍّ من الطرفين ؛ لأن كل طرف واثق بحقه ، واستمرار القتال يعني فناء المسلمين جميعاً . وهنا نبتت فكرة رفع المصاحف وتحكيم الكتاب من القراء (١) .

أما قصة التحكيم فيحدثنا عنهـا الإمام أحمد رضي الله عنه فيما رواه عن حبيب بن ابي ثابت قال :

اتيت ابا وائل في مسجد أهله اسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيما استجابوا لـه ، وفيم فارقوه ، وفيما استحل قتالهم ؟ فقال :

كنا بصفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتلٍّ ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :

ارسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك . فجاء به رجل فقال : بيننا وبينكم كتاب الله .

(الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) .

---

(١) اخذ هذا التلخيص بدقة عن البداية والنهاية لابن كثيرج٧ ص ٢٦٠ ـ ٢٧٥ وعن الطبري ج٤ ص ٦ ـ ٣٤ .

فقال علي : نعم انا اولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله (١) ..

وأما الرواية التي تشير إلى أن عمرو بن العاص قد دعا إلى المصاحف خدعة يخدع بها المؤمنين ، وأن علياً حذرهم من ذلك ؛ فهي رواية مكذوبة (٢) .

* * *

---

(١) روى الإمام أحمد هذا الحديث عن يعلى بن عبيد ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن ابي ثابت .

وقد ورد في ترجمتهم في تقريب التهذيب ما يلي :

يعلى بن عبيد : ثقة إلا في حديثه عن الثوري ففيه لين .

عبد العزيز بن سياه : صدوق يتشيع .

حبيب بن أبي ثابت: ثقة فقيه جليل كثير الإرسال والتدليس.

وإذا نحن وصلنا في رواية تاريخية إلى هذا النوع من الروايات فقد حصلنا على كنز عظيم . فرواة التاريخ غير رواة الحديث . ونتمنى أن تكون رواياتنا كلها على هذا المستوى .

(٢) رواة الرواية المذكورة هم : ابومخنف ، عن ابي جناب الكلبي ، عن عمارة بن ربيعة الجرمي. قال عنهم الذهبي في الضعفاء:

أبو مخنف لوط بن يحيى : ساقط ، تركه ابو حاتم ، وقال الدارقطني : ضعيف .

أبو جناب الكلبي : قال ابو زرعة : صدوق مدلس ، وقال النسائي : ضعيف . وقال يحيى بن سعيد القطان : لا أستحل أن أروي عنه . وعمارة بن ربيعة الجرمي مجهول.

رسول الله يتحدث عن المعركة

لئن فقدنا راوية أميناً ينقل لنا تفاصيل الحرب كاملة واتجاهاتها، فإن رسول الله ﷺ أمين الله في خلقه يحدثنا عنها فيغنينا عن رواية الخلق أجمعين .

ولقد تناول الحديث النبوي الحرب من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : ذكرها وتحديد زمانها .

وذلك فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة) (١) .

فلقد حدد رسول الله ﷺ القتال بهذه الأعداد الهائلة التي تجاوز بها المؤرخون مئتي الف من الشام والعراق .

اما المقتلة العظيمة فهي شيء رهيب حقاً .

فقد روى البيهقي عن صفوان بن عمرو قوله :

---

(١) متفق عليه.

(كان أهل الشام ستين الفاً ، فقتل منهم عشرون الفاً . وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم اربعون ألفاً) .

فأي مقتلة بين فئتين عظيمتين دعواهما واحدة تفوق هذا العدد ؟! ويكفينا رسول الله ﷺ حكماً على المعركة أنه قال عن الطرفين : دعواهما واحدة .

فهم أصحاب عقيدة واحدة ودين واحد ، فدعواهما واحدة .

وقد حمل الإمام البيهقي هذه الوقعة على الحديث السابق كما ذكر ابن كثير في تاريخه (١) .

فأي محاولة ماكرة لإدخال الهوى في هذه المعركة ، او محاولة اتهام أحد الطرفين بقصد الباطل وشهوة التسلط والحكم ؛ هو اتهام باطل ، لأن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن دعوى الفريقين واحدة .

وحدد رسول الله ﷺ ثانياً : الفريق الذي أصاب الحق .

وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة ؛ تمرق بينهما مارقة يقتلها أولاهما بالحق) . وإسناده حسن .

وفي رواية أخرى عن الثوري عن ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٧٥ .

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة . فبينما هم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) (١) .

واهمية هـذا الحديث هو انه يؤكد بأن المقصود في هاتين الفئتين العظيمتين هما جيش علي وجيش معاوية رضي الله عنهما ، لانه جمع بين قتال الفئتين وبين خروج الخوارج ـ الفئة المارقة ـ والتي يقاتلها أولى الطائفتين بالحق . وقد قاتل علي رضي الله عنه الخوارج ، هذه الفئة المارقة التي خرجت عليه وعلى معاوية . فهو الأولى بالحق .

هذا وهناك رواية منفصلة عن الفئة المارقة دون أن تربطها بالمقتلة العظيمة عند عدد من ائمة الحديث هي :

(تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق) .

ورواية أبي داود الطيالسي في مسنده : تكون فرقة بين طائفتين من امتي ، تمرق بينهما مارقة تقتلها أولى الطائفتين بالحق .

أما رواية الإمام مسلم رضي الله عنه فهي :

(تكون في أمتي فرقتان ، فتخرج من بينهما مارقة تقتلها أولى الطائفتين بالحق) .

---

(١) رواة هذا الحديث كما قال عنهم الإمام ابن حجر في تقريب التهذيب :

سفيان الثوري : ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة ربما دلس . علي بن زيد بن جدعان : ضعيف . أبو نضرة المنذر بن مالك بن قطعة : ثقة .

إن الفرقتين متنازعتان على الحق ، لكن علياً رضي الله عنه هو الذي أصابه ، ومعاوية هو الذي أخطأه ؛ وكلاهما يقصد الحق ويهدف له .

ولعل الفئة المارقة كثير منها من قتلة عثمان ، فشاء الله تعالى ان يكون قتلهم على يد امير المؤمنين علي . بعد ان كان لا يملكهم وهم يملكونه .

والشهادة الثالثة لرسول الله ﷺ في هذا الصدد هو ما ورد عن عمار رضي الله عنه في الأحاديث الصحيحة التي لا يرتقي الشك إليها : (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) (١) .

فهذا حديث أوضح وأصرح في ان معاوية رضي الله عنه وصحبه في الشام قد بغوا على امير المؤمنين علي . ولقد كان لمقتل عمار رضي الله عنه ضجة كبرى في الجيشين ، غير انا لا بد أن نعرض لنقطتين اثنتين في هذا الموضوع هما :

النقطة الأولى : نفسية عمار رضي الله عنه وهو يقاتل .

النقطة الثانية : شعور المسلمين في جيش معاوية بعد مقتل عمار بن ياسر .

اما عمار رضي الله عنه ، فقد حدثنا بشأنه قيس بن عباد فقال:

قلت لعمار بن ياسر :

أرأيتم قتالكم مع علي رأياً رأيتموه ، فإن الرأي يخطىء ويصيب ؟.

أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟

---

(١) روى الحديث البخاري ومسلم والإمام احمد وابو داود والترمذي والنسائي والطيالسي بروايات مختلفة .

فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس كافة.

وقد رواه مسلم من حديث شعبة وله تمام عن عمار عن حذيفة في المنافقين .

فعمار رضي الله عنه يؤكد انه لا يملك عهداً من رسول الله ﷺ أن يكون مع علي رضوان الله عليه ، ولكنه اجتهد فراى الحق مع علي ، وكان واثقاً تمام الثقة من موقفه حتى إنه ليقول :

والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة . والذي نفسي بيده لوضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت ان مصلحينا على الحق ، وانهم على الضلالة(١) .

ولم يكن حديث مقتل عمار رضي الله عنه مجهولاً بين المسلمين الاوائل الذين شهدوا فجر الرسالة واحداثها الأولى ، بل وحتى المتأخرين منهم . ولكن معاوية رضي الله عنه عاش مع الدعوة نزراً يسيراً بعد الفتح ، ومضى يجاهد في سبيل الله ؛ فليس غريباً الا يشهد ولا يسمع هذا الحديث إلا في الحرب .

وقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه .

فماذا كان صدى مقتله في جيش المسلمين بالشام ؟

لقد كان عمرو بن العاص يعلم هذا الحديث ، وكان لا يدري من الذي سيقتل عماراً ، إنه وإن كان في جيش علي ، فقد ينقض

---

(١) رواه الإمام احمد والطبراني . قال الهيثمي : ورجال احمد رجال الصحيح . ورواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

عليه رجل من جيش علي ويقتله ، تماماً كما حصل للزبير بن العوام رضي الله عنه ، فلم يقتله رجل من جيش علي ، بل قتله رجل من اهل الجمل !!

فما إن بلغ عَمراً رضي الله عنه مقتل عمار وهو في جيش علي حتى قطع ظنَّه اليقينُ .

ولعل اقتراحه رفع المصاحف والرغبة في الصلح ناتج عن هذا الموقف النفسي ومحاولة للتكفير عن هذه الخطيئة .

وبين أيدينا رواية لابن جرير نجت من بين يدي ابي مخنف التالف ، فلم تَصِلْه ولم يشترك في روايتها ، وهي تعطينا صورة حية عن أثر مقتل عمار في جيش المسلمين بالشام وسنسوقها كاملة. وذلك فيما نقله ابن جرير عن الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال (١) :

كنا مع علي بصفين ، فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه مـن أن يحمل ، فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه . وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه فألقاه إليهم وقال : لولا انه انثنى ما رجعت .

قال الأعمش : هذا والله ضرب غير مرتاب !

فقال أبو عبد الرحمن : سمع القوم شيئاً فأدَّوه وما كانوا بكذابين .

---

(١) رواة الخبر هم : أحمد بن محمد : صدوق كان فيه غفلة . الوليد بن صالح النخاس : ثقة . عطاء بن مسلم : يخطىء كثيراً . الأعمش : ثقة حافظ ورع لكنه يدلس . أبو عبد الرحمن السلمي : ثقة ثبت . فنحن مع رواة موثوقين لكن قد يخطىء بعضهم في النقل .

قال : ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً إلا تبعه من كان هنـاك من أصحاب محمد ﷺ (١) ، ورأيته جاء إلى المرقال : هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي ، فقال :

يا هاشم أعَوراً وجبناً ، لا خير في أعور يخشى البأس .

فإذا رجل بين الصفَّين قال : هـذا والله ليخلفن إمامه ، وليخذلنّ جنده ، وليصبرنّ جهده ، اركب يا هاشم ، فركب .

ومضى هاشم يقول :

أعـور يبغـي أهلـه محـلاّ قد عالج الحيـاة حتى مـلاّ
لا بـد أن يَفـلّ أو يفـلاّ

وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسل وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه !!

فلم يرجعا وقتلا .

قال : يفيد لك عليهما من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ أنهما كانا علماً .

فلما كان الليل قلت : لأدخلن إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا ــ وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينـا وتحدثنا إليهم ــ فركبت فرسي وقد هدأت الرجل ، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون : معاوية ، وأبو الأعور السلمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمرو ــ هو خير الأربعة ــ .

---

(١) لأنهم يعلمون من حديث رسول الله ﷺ أنه إذا اختلف الناس فابن سمية مع الحق .

فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول احد الشقين .

فقال عبد الله لأبيه : يا ابت قتلتم هذا الرجل في يومكم هـذا وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال !؟

قال : وما قال ؟

قال : الم تكن (١) معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة ، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين ؛ فغُشي عليه ، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : « ويحك يا ابن سمية ، الناس ينقلون حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ؛ وانت تنقل حجرين حجرين ولبنَتين لبنتين رغبة منه في الأجر ! وانت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » !!

فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال :

يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله ؟!

قال : وما يقول ؟ فأخبره الخبر .

فقال معاوية : إنك شيخ اخرق ولا تزال تحدث بالحديث وانت تدحض في بولك ، أوَ نحن قتلنا عماراً ؟ إنما قتل عماراً من جاء به ! !

---

(١) لاشك أن كلمة ــ تكن ــ غير صحيحة لأن عمرو بن العاص رضي الله عنه أسلم بعد صلح الحديبية . فهو بالتأكيد لم يكن مع المسلمين يوم بناء المسجد النبوي عقب الهجرة مباشرة ، وقد صححها ابن كثير بقوله : الم يكن ؛ ليستقيم المعنى . وقد ظهر الخطأ في هذه الكلمة من خلال رواتنا الذين فيهم عطاء بن مسلم الذي يخطىء كثيراً .

فخرج الناس من فساطيطهم واخبيتهم يقولون :
إنما قتل عماراً من جاء به .
فلا ادري من كان أعجب هو أو هم(١) !!
وثقة معاوية رضي الله عنه أنه على الحق لا تقبل النقاش عنده ولا غرابة أن يفهم النص أو يؤوله بهذه الصورة ، فلا يمكن لمعاوية أن يتصور أن قتلة عثمان على الحق .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨ — ٢٩ .

وقد وردت هذه الرواية عن عبد الله بن الحارث قال :
إني لأسير مع معاوية رضي الله عنه منصرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : فقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : يا أبت ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية ، قال : فقال عمرو لمعاوية : ألا تسمع ما يقول هذا ؟ فقال معاوية : لا تزال تأتينا بهنة انحن قتلناه ، إنما قتله الذين جاؤوا به !!

رواه الامام أحمد بإسناد صحيح

وقد رواه الامام أحمد أيضاً من حديث حنظلة بن خويلد العنزي قال : بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما أنا قتلته . فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقتلك الفئة الباغية) . قال معاوية : فما بالك معنا . قال : إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال : (أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه) ؛ فأنا معكم ولست أقاتل .

ورواه ابن أبي شيبة وابن عساكر في تاريخه بنحوه .
ورواه النسائي في كتاب خصائص علي بإسناد حسن وليس فيه قول معاوية لعبد الله وجواب عبد الله له .

وصورة عمار في ذهنه مشوهة ايما تشويه : فعمار إن لم يقتل عثمان فقد كان من المؤلبين والمحرضين عليه ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ذهنه ادنى شك في أن الفئة الباغية هي التي قتلت عثمان ، وجميعها في جيش علي .

حتى ولا غرابة في تجاوب الناس مع أميرهم معاوية .

فمقتل عثمان، والصورة البشعة التي تم بها القتل كانت كافية لتصرف البغي عنده نحو جيش علي ، ففي ذلك الجيش من بغى على الخليفة ، بل وقتله .

ونحن نقول : إن التأويل بعيد عن مجموع النصوص التي وردت في هذا الموضوع ، وإن عماراً رضي الله عنه خرج قانعاً مختاراً بصحة هذه الحرب كما قال :

(والذي نفسي بيده لوضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا (١) على الحق ، وانهم على الضلالة) .

فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أولى بالحق من معاوية ، وهو ادرى الناس بملابسات خلافته والطريقة التي تمت بها بيعته ؛ ولكنا نقول لمن يرسل لسانه في حق معاوية رضي الله عنه ــ إن كان من اهل الصدق والتقى والصلاح ــ ماقاله أبو بكر رضي الله عنه لعمر يوم تكلم في حق خالدٍ وطالب بعزله :

---

(١) لقد كان عمار رضي الله عنه عميق الغور حين استعمل هــذه العبارة : لعرفت أن مصلحينا على الحق ؛ فهــو يؤكد أن المصلحين في الجيش على الحق ، وليس كـل افـراد الجيش . إذ فيهم الانتهازيون ، وقتلة عثمان ، ومن هذا الجيش نفسه كانت الخوارج .

(تأول فأخطأ . كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين) .

وأما إن كان من أهل الهوى والضلالة ، فحسيبه الله رب العالمين .

إن جلّ الصحابة (١) والتابعين قد فهموا من قول رسول الله

---

(١) حتى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة ، وعلى رأسهم سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ندموا أن لايكونوا قد شاركوا في الحرب مع علي رضي الله عنه ، فعن محمد بن ابراهيم التيمي أن فلاناً دخل المدينة حاجاً فأتاه الناس يسلمون عليه فدخل سعد رضي الله عنه فسلم فقال : وهذا لم يُعنّا على حقنا على باطل غيرنا ، قال : فسكت عنه . فقال : مالك لا تتكلم؟ فقال : هاجت فتنة وظلمة ، فقلت لبعيري : أخ أخ ، فأنخت حتى انجلت . فقال رجل : إني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره ؛ فلم أرَ فيه أخ أخ !! فقال : (أي سعد) : أما إذا قلت ذاك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (علي مع الحق ، أو الحق مع علي حيث كان) . قال (أي الرجل) : من سمع ذلك ؟ قال : قاله في بيت أم سلمة قال : فأرسل إلى أم سلمة ، فقالت : قد قاله رسول الله ﷺ في بيتي . فقال الرجل لسعد : (ما كنت عندي قط ألوم منك الآن ؛ فقال : ولم ؟ قال : لو سمعت هذا من النبي ﷺ لم أزل خادماً لعلي حتى أموت) .

رواه البزار . قال الهيثمي : وفيه سعد بن شبيب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح . (وقد ورد في رواية أخرى أن الذي قال هذا الكلام هو معاوية بن أبي سفيان) . كما روي عن عبد الله
←

ﷺ لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) (١) أن المقصود جيش معاوية رضي الله عنه ، مع أنهم معذورون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه لكنهم لم يصيبوه . وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولا بد من الإشارة إلى أن عمرو بن العاص لم يكن اجتهاده مثل اجتهاد معاوية (٢) ، وكان يأمل أن ينضم عمار إلى جيش معاوية

→

ابن عمر قوله : (لم أجدني آسى على شيء إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي) . رواه الطبراني بأسانيد قال الهيثمي : واحدها رجاله رجال الصحيح .

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : روى حديث تقتل عماراً الفئة الباغية جماعة من الصحابة منهم : قتادة بن النعمان وأم سلمة عند مسلم ، وأبو هريرة عند الترمذي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب ، وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه . وكلها عند الطبراني وغيره ، وغالب طرقها صحيحة أو حسنة ، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم . وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار ، ورد على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال : قتل عمار ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقتله الفئة الباغية) . فقال عمرو بن العاص : يرجّع ــ يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ــ حتى دخل على معاوية فقال معاوية : مه ؟! ←

قبل وفاته أو قتله على الأقل . فلما قتل عمار رضي الله عنه ، مضى إلى إنهاء الحرب باقتراح رفع المصاحف لحقن دماء المسلمين .

* * *

←

فقال : قتل عمار .

فقال معاوية : قد قتل عمار فماذا ؟

قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية!!

فقال له معاوية : دحضتَ في بولك انحن قتلناه ؟ إنما قتله علي واصحابه جاؤوا به حتى القوه بين رماحنا ـ او قال بين سيوفنا .

رواه الإمام احمد ، والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه .

وهذا يعني أن ثقة عمرو بعد قتل عمـار رضي الله عنه بحقه كانت اضعف من ثقته بأنه على الحق قبلها ، وإن كان لم يعترض على اجتهاد معـاوية رضي الله عنهما وآجرهما على اجتهادهما وإن كان خاطئاً .

قصة التحكيم

روايات التحكيم عديدة ، وليس بين أيدينا رواية واحدة نطمئن إليها لكون كل رواتها ثقات ، وسندع روايات أبي مخنف جانباً ؛ فهي تحمل في ثناياها أقبح الصور عن الخلاف والتحكيم ، ومما يؤلم أن هذه الصور هي الثابتة في أذهان الناس :

١ ــ فالمعروف لدى عامة الناس أن عمرو بن العاص غدر بأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وقدمه للكلام بعد أن اتفقا على خلع معاوية وعلي رضي الله عنهما ، وخلع أبو موسى معاوية وعلياً ، بينما تقدم عمرو بعده فخلع علياً ، وأثبت معاوية .

٢ ــ ومن هذه الصور كذلك أن علياً رضي الله عنه كان إذا قنت لعن معاوية وعمراً وغيرهما من أهل الشام ، فبلغ ذلك معاوية فصار إذا قنت يلعن علياً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً !!

ويسقط الخبر الأول لتهافت رواته وضعفهم (١) .

ويسقط الخبر الثاني لتهافت رواته وضعفهم أيضاً (٢) .

٣ ــ ومن هذه الصور كذلك تشبيه أبي موسى لعمرو بالكلب وتشبيه عمرو لأبي موسى بالحمار . وفي الرواية كذلك أن أبا موسى سمى عمراً ، الفاسق (٣) .

(١ و ٢ و ٣) رواة هذا الخبر كما أوردهم الطبري : (قال أبو مخنف حدثني أبو جناب الكلبي أن عمراً وأبا موسى ...) .
←

وأصحّ الروايات التي وردت عن التحكيم وندعها تنطق دون أن نتدخل فيها:

(... وكان يعد في العرب حتى ثارت الفتنة الأولى خمسة، يقال لهم ذووا رأي العرب ومكيدتهم: يعدُّ من قريش معاوية، وعمرو، ويُعدُّ من الأنصار قيس بن سعد، ويعدُّ من المهاجرين عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ويعدُّ من ثقيف المغيرة بن شعبة، فكان مع علي منهم رجلان: قيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، وكان المغيرة معتزلاً بالطائف وأرضها.

فلما حُكِّم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة، وأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير، ووافى رجال كثير، من قريش، ووافى معاوية بأهل الشام، ووافى أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص وهما الحكمان، وأبى عليٌّ وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي رأي أهل قريش، هل

←

وأبو مخنف لم يوثقه احد من علماء الرجال . اما أبو جناب الكلبي ، فكما أورد ابن حجر رحمه الله في تقريب التهذيب (ضعّفوه لكثرة تدليسه) ويظهر تدليسه هنا انه لم يذكر من روى عنه الخبر إطلاقاً؛ ففي الرواية راوٍ ساقط. كما ذكرت الروايات أن أهل الشام سلموا على معاوية بالخلافة بعد خطبة الحكمين. وهذا لايصح كذلك. وهكذا يشوه التاريخ الإسلامي برواية ساقطة كاذبة .

ترون أحداً يقدر على أن يستطيع أن يعلم: أيجتمع هذا الحكمان، أم لا؟ فقالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إني لأظنني سأعلمه منهما حين أخلوا بهما فأراجعهما، فدخل على عمرو بن العاص، فبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله أخبرني عمّا أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنّا قد شككنا في هذا الأمر الذي قد تبين لكم في هذا القتال، رأينا نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأُمة على رجل. فندخل في صالح ما دخلت فيه الأُمة؟ فقال عمرو:

أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، ومع الفجّار. فانصرف المغيرة، ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل عل أبي موسى الأشعري. فخلا به، فقال له نحواً مما قال لعمرو، فقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، وأرى فيكم بقية المسلمين فانصرف فلم يسأله عن غير ذلك. قال: فلقي أصحابه الذين قال لهم ما قال من ذوي رأي قريش. قال:

أُقسم لكم، لا يجتمع هذان على رأي واحد. وليدعونَّ كل واحدٍ منهما إلى رأيه، فلما اجتمع الحَكَمان، وتكلَّما خاليين. فقال عمرو:

يا أبا موسى، أرأيت أول ما نقضي به في الحق، علينا أن نقضي لأهل الوفاء بالوفاء ولأهل الغدر بالغدر، فقال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وافوا للموعد الذي وعدناهم إياه؟ فقال: نعم، فقال: فاكتبها، فكتبها أبو موسى.

فقال عمرو: قد أخلصت أنا وأنت على أن نسمِّي رجلاً يلي أمر هذه الأُمة فسمٍّ يا أبا موسى، فأنا أقدر على أن أُبايعك على أن تبايعني، فقال أبو موسى: أُسمِّي عبد الله بن عمر بن الخطاب. وكان عبد الله بن عمر فيمن اعتزل. فقال عمرو: فأنا أُسمِّي لك معاوية بن أبي سفيان، فلم يبرحا من مجلسهما حتى اختلفا واستبّا ثم خرجا إلى الناس، ثم قال أبو موسى:

يا أيها الناس، إني قد وجت مثل عمرو بن العاص مثل الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه فانسلخ منها ﴾، حتى بلغ ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها الناس، إني وجدت مثل أبي موسى مثل الذي قال الله تبارك وتعالى ﴿ مثل الذي حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾، حتى بلغ ﴿ والظالمين ﴾.

ثم كتب كل واحد منهما بالمثل الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار[1].

قال الزهري عن سالم عن ابن عمر قال وأخبرني ابن طاووس عن

---

(١) المغازي النبوية للزهري تحقيق (سهيل دكار) ص ١٥٨ - ١٦٠. والرواية هي (عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال. . .) وهؤلاء الرواة هم رجال الصحيحين البخاري ومسلم.

عكرمة عن خالدٍ عن ابن عمر قال: (دخلت على حفصة ونوساتها[1] تنطُف[2]. قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين. فلم يُجعل لي من الأمر شيء. فقالت: إلحق. فإنهم ينتظرونك. وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب. فلما تفرّق الناس خطب معاوية قال:

مَن كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه. فلنحن أحقّ منه ومن أبيه. قال حبيب بن مسلمة: فهلّا أجبته؟!

قال عبد الله: فحللت حبوتي وهممت أن أقول: أحقّ بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيت أن أقول كلمة تفرّق بين الجمع، وتسفك الدم، وتحمل عني غير ذلك. فذكرت ما أعدّ الله في الجنان.

قال حبيب: حُفِظتَ وعُصِمت)[3].

والذي نجده نشازاً في هذه الرواية لايتسق مع المستوى الإسلامي المطلوب، وقد يزل قليلاً عن المنهج الإسلامي هو قوله:

---

(١) نوساتها: ذوائب شعرها.

(٢) تنطف: تسيل من الماء.

(٣) البخاري/ك المغازي والسير ٦٤/ب غزوة الخندق/ جـ٥/ ص ١٤٠.

ــ فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا .

ــ والمثل الذي ضربه كل واحد منهما لصاحبه .

ولا نعرف في الحقيقة علام اختلفا حتى استبا ، خاصة وقد بدات المباحثات بروح مرنـة ونفسية رضية حريصة على الصلـح وإصلاح ذات البين . وفي الرواية فجوة هي الحديث الذي تناقشا فيه حتى وصلا إلى السباب ، وظني أن السباب الذي حصل بينهما هو هذا المثل المضروب من كتاب الله .

وقد تبرز الطبيعةالبشرية في لحظة حنق زائد وغضب جارف. فيتصور أبو موسى ان يكون عمرو قد نكث بعهده ، وتخلى عن مسؤولياته حين أصـر على نوعيات معينة لتحكم الأمـة . ويتصور عمرو أن أبا موسى لم يدرك مدى مسؤولية حمله للقرآن والاحتكام إليه. فاختار عبد الله بن عمر وهو من جماعته الذين اعتزلوا الفتنة ولم ينصروا الحق.

إن الجو المشحون بالتوتر قاد إلى هذه الآراء التي صدرت عن كل صحابي في صاحبه ، ويحسن أن يكون واضحـاً في ذهننا أن ما وراء النص يوحي بالقصد المباشر منه .

فعمرو رضي الله عنه يرى في أبي موسى القارىء المتقن لكتاب الله لا يعمل بما فيه ، وابو موسى رضي الله عنه يرى في عمرو انه تخلى عن مسؤوليته الإسلامية ، ولم يستجب لداعي الجماعة .

وكل ما يمكن الاطمئنان إليه فقط من مجموع الروايات : هو

أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري حاولا أن يصلا إلى شخصية يجتمعان عليها لكن هذا لم يحصل .

وقد لخص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال :

(فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين ، ونظرا في تقدير أمور ، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما . وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال له عمرو : فولّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد .

فقال أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك ، وهو مع ذلك رجل صدق) (١) .

هذه هي الصورة التي قدمها ابن كثير عن التحكيم ، ولكنه عاد بعد ذلك فساق بعض روايات الطبري التي اطمأن إلى طبيعتها لا إلى سندها ، وعندما انتهى إلى آخرها قال :

(ويقال إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ، ورد عليه عمرو بن العاص مثله) .

ونذكر هنا رواية أوردها الحافظ الدارقطني بسنده عن الحضين بن المنذر قال :

(لما عزل عمرو معاوية جاء (أي حضين بن المنذر) فضرب

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٨٣ .

فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية ، فبلغ نبأه معاوية ، فارسل إليه فقال :

إنه بلغني عن هذا (أي عمرو) كذا وكذا ، فاذهب فانظر ماهذا الذي بلغني عنه . فأتيته فقلت :

أخبرني عن الأمر الذي وليت انت وأبو موسى كيف صنعتما فيــه ؟ ؟ .

قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ماترى في هذا الأمر ؟

قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟

قال : إن يستعن بكما ففيكما معونة . وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما .

قال : فكانت هي التي فتــل معاوية منهــا نفسه . فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه كان كما بلغه) (١) .

ونخلص من هذه الروايات التي هي أقرب ماتكون إلى الصحة والتي اتفقت على قدر معين من الحوادث إلى ما يلي :

١ ــ أن الحكمين التقيا بدومة الجندل في الموعد المحدد .

٢ ــ كانت محاولات أبي موسى رضي الله عنه في إقناع عمرو بولاية عبد الله بن عمر بن الخطاب فأبى عليه ذلك .

٣ ــ كانت محاولات عمرو بن العاص رضي الله عنه في إقناع

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٢٩ .

أبي موسى رضي الله عنه بولاية معاوية فأبى عليه ذلك ، ثم بولاية عبد الله بن عمرو بن العاص فأبى عليه ذلك .

هذه هي النقاط الثابتة في موضـوع التحكيم . والذي ميّع الأمر هو عدم اتفاقهما على والٍ معين يجمعان عليه ، فكانت النتائج سلبية ، وبقيت الأمور على ما هي عليه بدون اتفاق .

وما عدا ذلك فروايات ضعيفة أو مكذوبة يتعرض الوهن لها من حيث المتن ومن حيث السند ، لاتقوم عليها الحقائق ، ولا تبنى عليهـا المفاهيم .

يقول المؤرخ المحدث خليفة بن خياط في تاريخه :

وفيها (أي سنة سبع وثلاثين) اجتمع الحكمان ابو موسى الأشعري من قبل علي ، وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل في شهر رمضان ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب . فبعث علي ابن عباس ولم يحضر وحضر معاوية فلم يتفق الحكمان على شيء ، وافترق الناس .

وبايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين . واقتضى هذا الأمر موقفاً جديداً من معاوية رضي الله عنه ؛ أن يبدأ بمحاولات اخذ البيعة من بقية المناطق له بالخلافة بعد أن بايعه أهل الشام .

عام ثمانية وثلاثين

جاء في تاريخ الطبري :

(... لما حدّث قيس بن سعد (١) بمجيء محمد بن أبي بكر، وانه قادم عليه أميراً ، تلقاه وخلا به وناجاه فقال :

إنك جئت من عند امرىءٍ لاراي له ، وليس عزلكم إياي بمانعي أن أنصح لكم . وأنا من أمركم هذا على بصيرة .

وإني في ذلك على الذي كنت اكايد به معاوية وعمراً واهل (خَرَبْتا) (٢) فكايدهم به فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك) .

ووصف قيس بن سعد لمحمد بن أبي بكر المكايدة التي كان يكايدهم بها ، واغتشه محمد بن أبي بكر (اعتبره غاشاً له) وخالف

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة من كبار الأنصار وساداتهم . أعطاه رسول الله ﷺ اللواء يوم فتح مكة بعد أن نزعه من أبيه ، وهو الذي رأب صدع المسلمين وبايع أبا بكرٍ بالخلافة حين امتنع سعد بن عبادة رضي الله عنه عن ذلك . وكان من كبار مستشاري علي بن أبي طالب ، وكبار قادته ، وولاه قيادة مصر ، ثم دخل الوشاة بينهما فعزله عن مصر وولى محمد بن أبي بكر مكانه ، فما غيَّر ذلك قيساً . وعاد فوضع طاقاته تحت تصرف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حتى استشهد .

(٢) خربتا : موطن في مصر بقي أهله موالين لعثمان رضي الله عنه بعد مقتله ، ولم يدخلوا في طاعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

كل شيء أمره به ، فلما قدم محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك معاوية وعمراً ، فسار بأهل الشام حتى افتتحا مصر ، وقتلا محمد بن أبي بكر ،لم تزل في حيّز معاوية حتى ظهر .

وقدم قيس بن سعد المدينة ، فأخافه مروان بن الحكم والأسود ابن البختري ، حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ركب راحلته وظهر إلى علي .

فكتب معاوية إلى مروان والأسود يتغيظ عليهما ويقول :

أمددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكايدته ، فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ماكان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى عليّ !!

فلما باثه الحديث وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف أن قيس بن سعد كان يوازي اموراً عظاماً من المكايدة ، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له (١) .

ولعل أصح رواية (٢) في مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما ؛ ما رواه عمرو بن دينار قال : اتي عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر اسيراً فقال : هل معك عهد ؟ هل معك عقد من احد ؟ قال : لا ؛ فأمر به فقُتل !!

---

(١) الطبري ج٥ ص٧٠ عن عبد الله عن يونس عن الزهري . وقد أوردها الزهري في مغازيه برواية عبد الرزاق عن معمر عنه وكلهم من رجال الصحيحين.

(٢) رواة الحديث هم : غندر عن شعبة عن عمرو بن دينار ؛ وكل هؤلاء الرواة ثقات ، وهم رجال الصحيح عند البخاري ومسلم.

بينما تأتينا رواية أخرى تسرد جميع التفاصيل الثابتة في أذهان الناس عن مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وإحراقه في جوف حمار ، وكلام قبيح من علي رضي الله عنه بحق معاوية وعمرو ، ودس السم للأشتر النخعي عن طريق معاوية . كل هذه الترهات والأباطيل وجدت في رواية هذا سندها :

(وأما ما قال ـ في ابتداء أمر محمد بن أبي بكر في مصيره إلى مصر وولايته إياها ـ أبو مخنف فقد تقدم ذكرنا له ، ونذكر الآن بقية خبره في روايته ما روى من ذلك عن يزيد بن ظبيان الهمداني ، قال ....) .

فالراويان هما : أبو مخنف ، ويزيد بن ظبيان .

وأبو مخنف : ضعيف تالف .

ويزيد بن ظبيان : لا اسم له في الرواة .

فكيف نأخذ أحداثاً ونبني عليها أحكامنا من مطعون بصدقه ، ومجهول بحقيقته ومنكر بمعرفته ؟؟!!

والرواية التي اعتمدناها متسقة مع المنهج الإسلامي ، ترفع من مقام قيس بن سعد رضي الله عنه . ولا تزري بحق أحد من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم جميعاً .

ولكن هذا الحادث يشير إلى انطلاقة جديدة في الحوادث بعد أن انتهى أمر التحكيم إلى نتائج سلبية ، وتمكن معاوية بن أبي سفيان أن يضم مصر إلى جانبه ، وهذا يعني أن الكفة بدأت تميل إلى جانبه وتعطي مؤشراً جديداً في طبيعة التحرك للجانبين .

وقد فتحت جبهة جديدة على أمير المؤمنين من الخوارج الذين انشقوا عنه ومرقوا من جيشه ، وكان على ثقة تامة من حربهم

وكونهم على الباطل رغم كل ادعائهم بالحق وصراعهم الظاهر من أجل الحق(١) .

واستفاد معاوية من هذه الظروف ، ورأى انه لا بد من حزم للأمور تنهي هذه الفرقة بين المسلمين ، فأقدم على مغامرات لتفتيت

---

(١) روى البخاري قال: حدثنا ابو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهري قال : اخبرني ابو سلمة بن عبد الرحمن ان ابا سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة ــ وهو رجل من بني تميم ــ فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال : ويلك ومن يعدل . قد خبت وخسرت إن لم أعدل !! فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه ؛ فقال : دعه . فإن له أصحاباً يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نضبه ــ وهو قدحه ــ فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قذذه فلم يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم . آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال ابو سعيد :

فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، واشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس ، فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته .

وهكذا رواه مسلم من حديث أبي سعيد . البداية والنهاية ج٦/ص ٢١٩ .

التجمع حول علي رضي الله عنه ، وكان أولها في البصرة حيث تجمع حول ابن الحضرمي الذي أرسله لهم نفر كبير من أهلها ، واختبأ زياد والي البصرة من قبل أمير المؤمنين ، لكن علياً سارع وانقذ الموقف،وكانت المحاولة الثانية من قبل معاوية الأمير أن وجه النعمان ابن بشير رضي الله عنه في ألفي رجل إلى عين التمر إحدى الولايات التابعة لعلي ؛ ولم تجدِ المحاولة وذهبت أدراج الرياح .

* * *

محاولات امتداد لمعاوية

كان عام تسع وثلاثين أكثر إيجابية لصالح أمير الشام ، حيث عبأ ستة آلاف جندي بإمرة سفيان بن عوف إلى هيت في العراق ، ومنها إلى الأنبار فالمدائن . وحدث اشتباك في الأنبار ، قتل فيه ثلاثون رجلاً من المسلمين ، كما تمت بعض الإغارات على تيماء وواقصة ودجلة .

أما عام أربعين فقد كانت الوقائع فيه سجالاً بين الفريقين بالنسبة للولايات النائية .

بعث معاوية رضي الله عنه بسر بن أبي ارطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز في بيته . أما الجيوش الإسلامية فهي مرابطة على الثغور في الشام وفارس ، ولم يكن هناك قوات ثابتة مستقرة في المدن الإسلامية الداخلية ، فاضطر ابو أيوب الأنصاري أن يفر من وجه الجيش الغازي ، ودخل بسر المدينة ، ولم يقاتله فيها أحد. والمدينة اقرب مدن الحجاز إلى الشام ، والمسافة بينها وبين الشام اقرب بكثير من المسافة بينها وبين الكوفة في العراق .

وصعد بسر منبر المدينة ونادى :

يا دينار ، ويا نجار ، ويا زريق ، شيخي شيخي ، عهدي به بالأمس ، فأين هو ــ يعني عثمان ــ ؟!

إنها المرة الأولى التي تتحرر فيها المدينة من شبح الثوار الذين

قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة المظلوم ، والمرة الأولى التي ينادى فيها بثارات عثمان .

ويشير نداء بسر من جهة ثانية إلى أنه يتهم أهل المدينة بقتل عثمان ، أو هكذا كانت الصورة في ذهن الجيش الغازي . إنه ينادي قبائل أهل المدينة : بني النجار وبني دينار ، وبني زريق ، وينعى عليهم تخليهم عن شيخ الأمة عثمان بن عفان .

وكان يود لو ينتقم من أهل المدينة الذين تواطؤوا على قتل عثمان كما خيل له .

وبسر قائد فاتك ، ولولا أن معاوية رضي الله عنه أخذ بلجامه لعاث فيها فساداً .

ولقد صرح بذلك فقال : يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته .

ويح بسر ألم يقرأ في القرآن الكريم عن (الذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة..) ! وعن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ؟!

ألم يسمع حديث رسول الله ﷺ :

(اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار)؟!

(والله لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) !!

لهف نفسي على المدينة !!

بالأمس احتلها الثوار ، وتركوا فيها خليفة المسلمين مضرجاً بدمائه .

واليوم يرعد بسر فيها ويبرق ؛ إنه لولا لجام معاوية له لما أبقى محتلماً فيها .

ولئن فات معاوية رضي الله عنه أن يحمي عثمان الخليفة الشهيد في الاحتلال الأول لأن الثوار عاجلوه وقضوا عليه قبل وصول جيش الشام ، فلن يفوته اليوم أن يحمي دماءها وذمارها في الاحتلال الثاني نتيجة توصياته العظيمة لبسر بن أبي أرطاة أن لا يريق فيها دماً .

وتمت البيعة لمعاوية في المدينة تحت ضغط التخويف والإرهاب، ولا بيعة لمكره . يؤكد هذه الفكرة قول بسر وهو يطلب الصحابي العظيم جابر بن عبد الله — وكان قد استخفى — فأرسل إلى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر ابن عبد الله .

فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها :

ماذا ترين ؟ إني قد خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة ؟!

قالت : أرى أن تبايع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع ، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة فأتاه جابر فبايعه (١) .

ومن المدينة انطلق بسر إلى مكة حيث كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، فخشي أن يقتله . فأمنه بسر قائلاً :

ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ذلك فخلى عنه .

لقد كان أبو موسى قد اشتهر بعد الحكومة ، وتداول الناس أن أبا موسى صاحب رسول الله ﷺ . بينما لم يكن غيره على هذا

---

(١) الطبري ج٥ ص١٣٩ عن زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة .

المستوى من الشهرة والمعرفة لدى ابن ابي أرطاة . واستمر زحف بسر من الحجاز إلى اليمن في الجنوب ، حيث انطلق عبيد الله بن عباس بتوّه إلى الكوفة يخبر امير المؤمنين علياً رضي الله عنه بالتطورات الأخيرة والخطيرة التي ادت إلى سقوط المدينة ومكة واليمن بيد معاوية .

وكانت مبادرة طيبة وناجحة جهز علي رضي الله عنه إثرها بعثين :

الأول : بإمرة جارية بن قدامة في الفين .

والثاني بإمرة وهب بن مسعود في الفين .

وكان لابد من قتل كبار المحاربين لتستقر البلد في يد من تقع في يده ؛ فقتل من الطرفين في اليمن عدد كبير .

ومع وصول جيش علي وجد بسر أن لا قدرة له على المقاومة ، فانسحب عائداً بمن تبقى معه من جيشه إلى الشام ، ونزلت اليمن مرة ثانية على حكم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كما امكن استعادة مكة دون أن تراق قطرة دم في البلد الحرام .

وتابع جيش امير المؤمنين علي زحفه إلى المدينة ، واستردها من حوزة معاوية .

ولم تبق تجربة يمكن فيها أن يتغلب احد الفريقين على الآخر إلا سلكها الآخر ولكن دون جدوى . فالبلد تحتل من جانب ، وسرعان ما تعود إلى طاعة الآخر . لقد اثبتت القوة فشلها في حل المشكلة ، وتوحيد الكلمة للمسلمين قاطبة . وهو الحل المنشود يوم تسود الفرقة ، لا بد من القوة !!

لكن القوتين متكافئتان . وايس اي طرف من التغلب على الآخر .

وعادت المفاوضات من جديد .

وليس بين أيدينا أية صورة عنها إلا ما انتهت إليه .

و (لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علي :

أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين .

ففعل ذلك ، وتراضيا على ذلك(١) .

فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها ، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده) .

ونتساءل : لم لم يكن هذا من بداية الطريق ؟

والجواب واضح : إنه حرام في بداية الطريق أن يكون خليفتان قائمين في وقت واحد . لا بد من الحرب حتى يستسلم احد الفريقين، وتعود الكلمة واحدة .

وتم ذلك ، وسقط القتلى بعشرات الألوف دون حساب ، ودون أن يتزحزح احد الفريقين عن موقفه ؛ لأن كلا الفريقين واثق من حقه .

فهل يستمر القتال حتى تفنى الأمة ؟!

لا بد من هدنة مؤقتة حتى ينجلي الموقف، وترجح كفة أحدهما على الآخر .

ومن هذا المنطلق كان التراوض والصلح .

ورفض كل فريق ان ينصاع للآخر لانه ــ كما قلنا ــ واثق من حقه . ولن يتنازل للباطل من أجل الحق . ورسول الله ﷺ يؤكد لنا ان أولى الطائفتين بالحق طائفة امير المؤمنين علي رضوان الله عليه.

* * *

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٠ . زياد بن عبد الله عن ابن اسحاق .

معاوية أمير المؤمنين

لما خرج معاوية رضي الله عنه ليصلي الغداة شدّ عليه البرك ابن عبد الله بسيفه ، فوقع السيف في اليته ، فأخذ ، فقال لمعاوية :

إن عندي خبراً اسرّك به ، فإن اخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟!

قال : نعم

قال : إن اخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة .

قال : فلعله لم يقدر على ذلك .

قال : بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه .

فأمر به معاوية فقتل(١) .

وراى انه اوشك على الخطر ، فاستدعى طبيبه الساعدي ، فلما نظر إليه قال :

اختر إحدى خصلتين : إما ان احمي حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما ان اسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها ؛ فإن ضربتك مسمومة .

وراجع معاوية رصيد حياته ، وردد على مسامع الطبيب :

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٤٩ .

أما النار فلا صبر لي عليها . وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني . فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد لـه بعدها ؛ وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات ، وحرس الليل ، وقيام الشرط على راسه إذا سجد (١) .

وأتت الأخبار إليه بمقتل علي امير المؤمنين ، وبيعة الحسن رضي الله عنه ابن بنت رسول الله ﷺ . وكان هذا إيذاناً بمرحلـة جديدة من العنف والقتال ، فليست القضية قضية رجل يقتل ، إنما الأمر أمر مبادىء يجب أن تسود ، فلعل قتلة عثمان يبقون في ظل الحسن كما هم في ظل ابيه .

إنهم وإن خضدت شوكتهم ، لكن لايزال بعض رؤسائهم بارزين في جيش علي ، فأعلن في المسلمين النفير ، ومضى يعبىء جيشه لمعركة فاصلة إذا لم يكن لدى الحسن شيء سوى القتال .

وكان الحسن رضوان الله عليه يعبىء جيشه كذلك للقـاء الحاسم ، وبدا على الأفق أن ساعة اللقاء الرهيبة قد دنت ، وأن صِفّين جديدة قد ازفت .

واضحى معاوية في قلق شديد وهم عظيم .

الثارات تتجـدد ، والجيوش تزحف ، أترى حان هـلاك المسلمين على يد بعضهم بعضاً . وراح معاوية يسائل نفسه .

---

(١) ذكر ابن كثير عن جرير بن عبد الحميد (ثقة) عن مغيرة قال : لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي . فقالت له امرأته: اتبكيه وقد قاتلته ؟. فقال : ويحك إنك لا تدرين ما فقد النـاس من الفضل والفقه والعلم !!

لقد خطا الخطوة الحاسمة مع علي أمير المؤمنين ، وأوقف سيول الدماء ، ورفع السيف عن رقاب هذه الأمة يوم مضى بالشام وما حولها ، وبقي أمامه العراق وما حوله . إنه متربص ينتظر اللحظة المواتية لينهي هذه الحالة المؤقتة التي لا يمكن أن تستمر فكلمة المسلمين متفرقة ، وقلوبهم متباغضة ، وعيونهم زائغة من هول اللقاء والمصير .

وحانت الفرصة المواتية .

لعل الشخصية الجديدة ، شخصية الحسن رضوان الله عليه يكون لها موقف آخر .

فلا بد من البدء بالمفاوضات .

وصدق ظن معاوية ، وكانت الرحمة بعد الفاجعة .

ولكن لا بد من إعداد العدة مع ذلك .

هذا معاوية يخلو بعمرو بن العاص ، ويبثه مخاوفه وأشجانه. كما نقل لنا الحسن البصري يقول :

(استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص :

إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها !!

فقال له معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ :

أي عمرو إن قتل هؤلاء وهؤلاء من لي بأمور الناس ؟!! من لي بنسائهم ؟! من لي بضيعتهم ؟!

فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس : عبدالرحمن ابن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز ؛ فقال :

اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له ، واطلبا إليه .

فأتياه ـ أي الحسن ـ فدخلا عليه فتكلما ، وقالا له وطلبا إليه .

فقال لهما الحسن بن علي :

إنّا بنو عبد المطلب قد اصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها .

قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك .

قال : فمن لي بهذا ؟

قالا : نحن لك به .

فما سألهما شيئاً إلا قالا : نحن لك به .

فصالحه(١) .

---

(١) قال الحسن (أي البصري) :

ولقد سمعت أبا بكرة رضي الله عنه يقول :

رأيت رسول الله على المنبر ، والحسن بن علي رضي الله عنهما إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول :

(إن ابني هذا سيد ، ولعل الله ان يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين) .

وهذا الحديث رواه البخاري ورواه الامام أحمد .

قال الخطابي :

قد خرج مصداق هذا القول فيه بما كان من إصلاحه بين ←

وهكذا انتهت الفتنة الكبرى التي مزقت شمل المسلمين بفضل نبل الحسن وإخلاصه لله عزوجل ، وحكمة معاوية وبعد نظره .

ولا شك أن عظمة الحسن رضي‌الله عنه وسماحته التي استحق بها لقب السيادة ؛ كانت عن جدارة شهد له بها سيد الخلق صلوات الله عليه !!

←

أهل العراق والشام وتخليه عن الأمر خوفاً من الفتنة ، وكراهية لإراقة الدم ، ويسمى ذلك العام عام الجماعة .

وفي الخبر دليل على أن واحداً من الفريقين لم يخرج بما كان منه في تلك الفتنة من قول أو فعلٍ عن ملة الإسلام إذ قد جعلهم النبي ﷺ مسلمين .

ومعلوم أن إحدى الفئتين كانت مصيبة والأخرى مخطئة .

وقال ابن كثير : قد شهد الصادق المصدوق للفرقتين بالإسلام ؛ فمن كفرهم أو واحداً منهم لمجرد ما وقع فقد أخطأ وخالف النص النبوي المحمدي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن ابيه قال : قلت للحسن ابن علي رضي الله عنهما :

إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة ؛ فقال :

قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ، ويسالمون من سالمت ؛ تركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء أمة محمد ﷺ ، ثم أثيرها ثانياً من أهل الحجاز) ؟!

رواه ابن سعد والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

ودخل الناس في طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس .

يقول ابن جرير الطبري في تاريخه :

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ، حدثني بذلك موسى بن عبد الرحمن قال : حدثنا عثمان بن عبد الرحمن قال : أخبرنا اسماعيل بن راشد ـ وكان قبل يدعى بالشام أميراً ـ وحدثت عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز(١) ، قال : كان علي رضي الله عنه يدعى بالعراق أمير المؤمنين ، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير فلما قتل علي رضي الله عنه دعي معاوية : امير المؤمنين .

ولا بد من أن تتضح أمام الناس طبيعة هذا الصلح ؛ لذلك طلب معاوية رضي الله عنه من الحسن بن علي أن يخطب في المسلمين ، وقال له :

قم فاخطب الناس واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن فخطب فقال (٢) :

الحمد لله الذي هدى بنا أولكم ، وحقن بنا دماء آخركم .

الا إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور .

وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه انا ومعاوية إما ان يكون أحق به مني ، وإما ان يكون حقي ، فتركناه لله ولصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم .

---

(١) أبو مسهر : مقبول . سعيد بن عبد العزيز : ثقة إمام ، اختلط في آخر عمره . جعله الامام أحمد كالأوزاعي .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/٣٧٤) .

قال : ثم التفت إلى معاوية فقال :

« وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

ثم نزل فقال عمرو لمعاوية : ما أردتُ إلا هذا) (١) .

فهذه نفسية الحسن ، نفسية المسلم الذي تربى في حضن محمد ﷺ . فلقد تنازل حقناً لدماء المسلمين ، ولصلاح الأمة ، ولم يتنازل عن عجز أو ضعف ؛ بل كانت جماجم المسلمين بيده . حتى لقد قال له بعض المغضبين من صنيعه : السلام عليك يا مذل المؤمنين !!

فأجابه : لا تقل ذلك يا أبا عامر ، لم أذل المؤمنين ؛ ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك(٢) .



(١) وأخرجه الحاكم أيضاً (٣ : ١٧٥) . والبيهقي (٨ : ١٧٣) عن الشعبي بنحوه؛ انظر : حياة الصحابة ج٢ ص٦٩٩،ط دار القلم .

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٩٨ ، عن الحاكم في مستدركه (٣ : ١٧٥) ، وابن عبد البر في الاستيعاب (١ : ٣٧٢) .

داهيتا العرب ينضمان إلى معاوية

أما قيس بن سعد فقد بايعه المسلمون أميراً عليهم بعد تنازل الحسن رضي الله عنه ، وتعاهدوا معه على قتال معاوية .

(وخلص معاوية حين فرغ من عبيد الله بن عباس والحسن رضي الله عنهم إلى مكايدة رجل هو أهم الناس عنده مكايدة ، ومعه أربعون ألفاً . وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام . وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول : على طاعة من تقاتل . وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك ؟! فأبى قيس أن يلين له) (١) .

وليست هذه هي التجربة الأولى لمعاوية مع قيس رضي الله عنهما ، لقد كانت المحاولة الأولى حين كان قيس بن سعد أمير مصر ، وبذل معاوية كل طاقاته ودهائه ليلين جانبه فعجز . ولا زلنا نذكر كيف غضب معاوية غضباً شديداً يوم اضطر والي المدينة قيساً أن يمضي إلى الكوفة ، وقال يومئذ :

(أمددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكايدته ! فوالله لو

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٥ وهي رواية عبد الله بن أحمد عن أبيه عن سليمان بن الفضل عن عبد الله عن يونس عن الزهري وسبق أن تكلمنا عن رواتها من قبل وهي عموماً مقبولة. وقد رواها الزهري في مغازيه برواية عبد الرزاق عن معمر عنه ص ١٥٧ .

انكما أمددتماه بمائة الف مقاتل ما كان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي) .

وبذل محاولات مضنية في استدراجه إلى صفه ؛ لكنه لم يفلح .

لكن الفرق واضح بين موقفين :

الموقف الأول : وهو موالٍ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الموقف الحالي : ليس له أمير يواليه !!

وليس من شيمة قيس وخلقه أن يشق عصا الطاعة ، فهو الذي رأب صدع المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، وبايع الخليفة أبا بكر وترك أباه . وهو الذي اختاره رسول الله فأعطاه راية قومه ليعز قريشاً يوم فتح مكة بعد أن نزعها من أبيه .

وحتى يؤكد معاوية ثقته بقيس :

(أرسل إليه بسجل قد ختم عليه في أسفله . فقال :

اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك)(١) .

واستغرب عمرو بن العاص هـذا التساهل من معاوية أمير المؤمنين إلى هذا الحد . وهو يرى أن جانب معاوية قد رجح ، ولم يعد ينازعه أحد ، فلم لا يقاتل قيس بن سعد ، ويضطره للخضوع له أو يقتله ؟!

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٥ الرواية السابقة .

أما منطلق معاوية رضي الله عنه فهو الهدي النبوي في معرفة الرجال وفقه معاملتهم . إنـه يريد أن يمسح جراحات القلوب ، والمحاولة الدؤوبة للحل المقنع ما دام في قوس الصبر منزع . وفرق كبير بين أن يخضد شوكة الخصوم أو يستأصلهم ، وتبقى الأحقاد والضغائن فيمن تبقى منهم ؛ وبين أن يجبر مصيبتهم ويؤلف قلوبهم ويكسب ودهم .

(قال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله .

قال معاوية : على رسلك ، فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ؛ فما خير العيش بعد ذلك !! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدا ً) (١) . وكانت خطة حكيمة غاية الحكمة ، فلقد اضطر معاوية قيساً أن يفتح صدره للأمن والسلام معه رغم شديد تحمسه للحرب من قبل .

(واشترط قيس فيه له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً .

وأعطاه معاوية ما سأل)(٢) .

ورغم أنها مخاطرة كبيرة ولا شك . فكثير أولئك الذين تتلظى قلوبهم حقداً على معاوية . وكثير أولئك الذين قد يفتحون حرباً عنيفة عليه في كل وقت . لكن تفتيت هذا الجمع وإعطاءه الأمان هو ربح كبير لمعاوية في صفوف رعيته ، وكسب قيس بن سعد لجانبه

(١-٢) الطبري ج٥ ص١٢٥ الرواية السابقة .

هو أكبر الأرباح في تصوره ، لأنه يعدل عنده مائة الف في موازين الرجال ، بسبب دهائه وصبره ، وحنكته وشجاعته .

وأعطاه معاوية ما سأل ، ودخل الكوفة التي وقفت ضده أربع سنين متوالية . وما هي إلا ايام قليلة حتى توجه خارجاً من الكوفة ، وقد نكأ الجرح الذي عانى منه طويلاً .



وتحركت الكتائب الأولى للخوارج .

إنه وهو في النخيلة تداعت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي قائلة :

قد جاء الآن مالاشك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .

وابتدأت خطواتهم الأولى بالاستيلاء على الكوفة .

وأراد معاوية أن يجنب أهل الكوفة مقاومة الخوارج ، فبعث خيلاً من أهل الشام ، وما إن كان اللقاء بين الفريقين حتى انكشف أهل الشام وعادوا مهزومين .

وتدبر معاوية الأمر . . لا بد من حل حازم .

إنه لا يتقن الحرب مع الخوارج إلا بنو جلدتهم من أهل الكوفة .

وكما تحدث عن نفسه ، فقد خلقه الله للمعضلة ، وهذا باب واسع إن فتح عليه من الخوارج فلن يغلق ، وهو قد يجرىء الخوارج على غزو الشام إن بدا تراجع جيش الخلافة ، وعزم عندئذ عزمته القوية ، وأمر مناديه أن ينادي أهل الكوفة :

لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم .

وهذا تهديد خطير يلف اهل الكوفـة الذين غدوا في قبضـة معاوية ، فكان أن تسارعوا إلى سيوفهم ، ومضوا إلى قتال الخوارج فقاتلوهم .

وقالت الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ، اليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا .

قالوا : لا والله حتى نقاتلكم .

فقالوا : رحم الله إخواننا من أهل النهر هم كانوا اعلم بكم منا يا أهل الكوفة (١) .

ولم تجد المناقشات ، وكان لا بد من الحرب .

وأجهز أهل الكوفة على الخوارج ، وأعادوا الكوفة مرة ثانية إلى ظئر الخلافة .

والبصرة البلد الثاني في العراق ، هل استسلم لمعاوية بسهولة؟

عادت التحركات من جديد فهذا حمران بن أبان يغلب على البصرة ، ويحكمها ويصرف الأمور فيها ، فيسارع أمـير المؤمنين معاوية ، ويرسل أحد بني القين إليها .

غير أن الخبير المجرب في العراق لم ينصحه بذلك ، ومن هو هذا الخبير ؟

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٦ سنة ٤١ وهي رواية زياد عن عوانة .

إنه شخصية جديدة كانت قبل لأي من أشد المخاصمين ، وأنكى الأعداء له . ولكن الإسلام العظيم الذي ربى هذا الجيل على مفهوم الجماعة ؛ علمه الانصياع للعقيدة لا للعاطفة . إنه الساعد الأشد لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأحد دهاة العرب وقادتها ، وترجمان القرآن الكريم : حبر الأمة عبد الله بن عباس . وسنلتقي مع ابن عباس من الآن كثيراً ، بصفته المستشار الأمين لأمير المؤمنين معاويـــة .

أشار ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية أن يولي عليها بسر بن أبي أرطاة . وابن عباس أدرى الناس بالبصرة وأهلها فهو والي أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عليها طيلة حياته .

واستجاب معاوية حالاً لمشورة ابن عباس ، وولى بسراً على البصرة ، فاستطاع أن يذللها له ويهيئها للطاعة لإمام المسلمين .



كانت الكوفة بلا شك هي أخطر البلدان على الإطلاق ، إنهـا مركز الخلافة الأول ومركز شيعة علي رضي الله عنه ، وأكبر تجمع خطر على معاوية وخلافته .

فمن لها ؟

فكر معاوية كثيراً ، ورأى أن مصر محفوظة مضبوطة من عمرو ابن العاص . ولكن اين له مثل عمرو ؟

وفكر ملياً في الأمر : فليجرب ابنه عبد الله ، فولاه الكوفة ، ولم يمر طويلاً على توجيه الوالي الجديد حتى كان الداهية الشهير ؛ المغيرة بن شعبة يستأذن عليه ويقول له بعد معرفته بولاية ابن عمرو:

استعملت عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحيي الأسد !

ولعل كلمة المغيرة لم تجد وقعاً مهماً لدى معاوية . لكن اليس هذا الذي أمامه المغيرة ، داهية ثقيف المحنك المجرب ؟! لم لا يرمي به في خضم الكوفة ، وهو أعرف الناس اليوم بما في الكوفة ؟!

ويالها من موافقات عجيبة ، فيوم كانت الكوفة تصدع راس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فينقل همه للمغيرة بن شعبة أن أهل الكوفة لا يعجبهم أمير ، فمن يضبطها له ؟

ويقترح المغيرة النوعية المؤهلة للكوفة في مواصفاتها وحنكتها ، فلا يجد عمر غير المغيرة يحمل هذه المواصفات . فيقول له :

اذهب فليس لها إلا انت .

ويصبح المغيرة والي عمر على الكوفة،وما أعرف عمر بالرجال!!

الموقف نفسه ، يستثير كل اهتمام معاوية ، وينظر بالمغيرة ، ويستعرض الكوفة ، فيعلم أن ليس لها إلا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب المغيرة بن شعبة . واصدر أمره بالحال ، فعزل عبد الله بن عمرو ، واستعمل المغيرة على الكوفة ، وهكذا انضمت هذه الطاقة العبقرية إلى معاوية أمير المؤمنين .



الدّاهيَة الثالث وَالليثْ المتربّص

كان هناك في أقصى الأرض الإسلامية ليث متربص شديد ، وكان هو آخر من يخشاه أمير المؤمنين معاوية . فلقد كـان في ذكائه ودهائه لا يقل عن قيس بن سعد أو عبد الله بن عباس اللذين أعطياه بيعتهما وثمرة قلبيهما .

كان زياد بن أبيـه هو ذاك الليث الذي يقلق معاوية ويقض مضجعه ، فهو يخشى أن ينتقض بالمسلمين في فارس . وبدأ معاوية خطواته الأولى في هذا الميدان ، هذه الخطوات التي تعطينا صورة فذة عـن عبقريته في أصول السياسة والإدارة والحكـم ، وكيف استطاع بما وهبه الله من حلم وأناة وتعقل ؛ أن يضم تحت جناحه أكبر المبغضين له .

كانت الخطوة الأولى رسالة بعث بها أمير المؤمنين معاوية إلى زياد قال فيها :

(إن في يديك مالاً مـن مال الله ، وقـد وليت ولايـة ، فأد ما عندك من المال) (١) . وقرأ زياد الرسالة ، وبعث على جنـاح السرعة جوابه الآتي بعد حمد الله وثنائه :

---

(١) الطبري ج٥ سنة ٤١ هـ . عن أحمد بن زهير عن علي بن محمد عن سليمان بن بلال عن الجارود بن أبي سبرة .

(إنه لم يبق عندي شيء من المال ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه ، واستودعت بعضه قوماً لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه) (١) .

عرف معاوية من الرسالة أنه لن يظفر بما في يد زياد ، وحاول أن يظهر له كل ود ، ويذلل الصعاب أمامه فكتب له :

(أن أقبل إلي ننظر فيما وليت وجرى على يديك ، فإن استقام بنا أمر فهو ذاك وإلا رجعت إلى مأمنك) .

ولكن زياداً اعتصم بفارس ، ولـم تلن قناته ، ولـم يرض بالقدوم على معاوية .

وبقيت المعضلة تملأ رأس معاوية ، وتملك عليه فؤاده .

لقد قال معاوية يوماً عن زياد : إنه لكل صغيرة وكبيرة .

فكم الفرق بين أن يكون زياد ابو المعضلات له أو عليه .

وبلغ بسر بن أبي أرطاة أن زياداً استعصى على أمير المؤمنين ، وحسب أن القوة هي السلاح الوحيد الذي يحل المستعصي مـن الأمور .

وسارع فألقى القبض على أولاد زياد جميعاً ، وزج بهم في السجن ، وقام من توه فكتب رسالة إلى زياد يقول فيها :

لتقدمن على أمير المؤمنين أو لاقتلن بنيك .

وكانت الرسالة غصة في حلق زياد ، لكن رجولته أبت عليه

---

(١) الطبري ج٥ سنة ٤١ ، الرواية التي في الصفحة السابقة .

أن ينقاد انقياد الذليل ، ويستسلم استسلام العبيد ؛ فكتب جواب الرسالة من نفس شجية مثخنة بالجراح :

لست بارحاً من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك ، فإن قتلتَ من في يديك من ولدي ، فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا وورائكم الحساب : (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وكان المفروض أن تثني هذه الرسالة عزم بسر عن القتل استحياءً وخوفاً من حكم الله ، لكنه صمم على قتلهم ، وانتشر النبأ في البصرة ، وتناهى إلى أبي بكرة صاحب رسول الله ، وكان أخا زياد من أمه .

وأبو بكرة قد حبس ولده مع ولد اخيه ، وبات في شر ليلة .

إنه ليس من السهل أبداً أن يقدم على الأمير ، وقد أهانه من قبل ، وعرض نفسه للقتل .

كان ذلك يوم خطب بسر على منبر البصرة فشتم علياً رضي الله عنه ثم قال :

نشدت الله رجلاً علم أني صادق إلا صدقني أو كاذب إلا كذّبني .

فقال أبو بكرة : اللهم لا نعلمك إلا كاذباً !!

فأمر به فخنق ، فقام أبو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه ، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب .

وقيل لأبي بكرة :

ما أردت إلى ما صنعت ؟

قال : أيناشدنا بالله ثم لا نصدقه (١) ؟!!

استعاد بذكرياته تلك الحادثة يوم كادت نفسه تتلف ، وعادت عوالج همومه تتوالى ، وهو يرى بسراً مصمماً على قتل بنيـه ، وبني أخيه ، وخيّل إليه أن ولده وولد أخيه صرعى على بابه ، فانتفض انتفاضة المذعور ، وصمم على أن يدخل على الأمير ، ولو كلفه ذلك حياته .

لم يذق للنوم طعماً وهو يرقب انبلاج الفجر ، وما إن تدلت خيوط الشمس حتى كان على راحلته ماضياً إلى الأمير ، حيث استأذن عليه ودخل وبادره قائلاً :

أخذت ولدي وولد أخي غلماناً بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا ؛ فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل .

قال بسر : إن على أخيك أموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها .

قال : ما عليه شيء .

وهمّ بسر أن يتكلم ، فقاطعه أبو بكرة قبل أن يفلت زمام الكلام من يده فقال : فاكفف عن بني أخي حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليتهم .

ولم يصدق نفسه أنه ضمن حياة بنيه وبني أخيه لفترة حتى مضى يسابق الريح نحو معاوية .

---

(١) الطبري : عن عمر بن شبة عن علي بن محمد سنة ٤١ هـ ج٥ ص١٢٨ .

وسبقت الأخبار إلى معاوية رضي الله عنه بمقدمه ، فاحتفى به امير المؤمنين اعظم حفاوة ، وقال :

ــ يا أبا بكرة أزائراً جئت ، أم دعتك إلينا حاجة ؟

ــ لا أقول باطلاً ما جئت إلا لحاجة .

ــ تشفع يا أبا بكرة ، ونرى لك بذلك فضلاً ، وانت لذلك أهل ، فما هو ؟

ــ تؤمن اخي زياداً ، وتكتب إلى بسرٍ بتخلية ولده ، وبترك التعرض لهم .

وهكذا وفي الوقت الذي كاد أبو بكرة رضي الله عنه أن يخنق على يدي بسر بن أبي ارطاة ؛ كان لدى معاوية أمير المؤمنين مبجلاً معززاً مكرماً !!

لقد كان معاوية أرحب أفقاً ، وأبعد مدى من المحيط الذي حوله ، لقد كانت تطلعاته إلى دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهي سيل الدماء فيها إلى الأبد . وها هو يرى ابا بكرة الصحابي العظيم ، فحنا عليه ، ورقّ له وجدانه العظيم ، واكرمه ، وقال له :

أما بنو زياد فنكتب لك فيهم ما سألت .

وأما زياد ففي يده مال المسلمين، فإذا أداه فلا سبيل لنا عليه.

ــ يا أمير المؤمنين إن يكن عنده شيء فليس يحبسه عنك إن شاء الله . فكتب معاوية لأبي بكرة كتاباً إلى بسر الاّ يتعرض لأحدٍ من ولد زياد .

ورأى معاوية فرصة سانحة ان ينهل من معين النبوة العظيم ــ وأبو بكرة أحد تلامذتها ــ فتوجه إلى أبي بكرة يقول : (أتعهد إلينا عهداً يا أبا بكرة ؟!

قال : نعم . أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً ؛ فإنك قد تقلّدت عظيماً : خلافة الله في خلقه . فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها ،ومن ورائك طالب حثيث، فأوشك أن تبلغ المدى فيلحق الطالب ، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه ، وهو أعلم به منك . وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرن على رضا الله عز وجل شيئاً) (١) .

وأقبل اليوم السابع ـ وهو آخر أيام عودة أبي بكرة ـ وسحب الغم تتكاثف لدى المسلمين بالكوفة ، خوفاً من أن ينفذ بسر تهديده .

وطلعت الشمس وأخرج بسر بني زياد ينتظر بهم غروب الشمس ليقتلهم إذا وجبت .

فاجتمع الناس لذلك ، وأعينهم طامحة ينتظرون أبا بكرة . إذ رفع لهم على نجيب أو برذون يكده ويجهده .

فقام عليه فنزل عنه والاح بثوبه وكبر وكبر الناس ، فأقبل يسعى على رجليه حتى أدرك بسراً قبل أن يقتلهم ، فدفع إليه كتاب معاوية فأطلقهم !!

وهكذا وافق معاوية أمير المؤمنين على إطلاق سراح بني زياد ، والمتسرع العجول يرى في هذا التصرف من معاوية تهوراً شديداً ، لكن صبر معاوية وحلمه كان يفتت كل المصاعب ، فلقد خلق للمعضلة كما تحدث عن نفسه ، ومع هذا فقد كادت هذه المعضلة تنهكه .

انتظر أشهراً لعل أبا بكرة يقدر أن يقنع زياداً بالبيعة فلم يحصل على شيء ، وبات ذات ليلة يتقلب على فراشه لا يجد النوم إلى عينيه سبيلاً ، فليس زياد ممن يستهان به ، وحاول معاوية

(١) الطبري ج٥ ص ١٢٩ .

ان يتسلى بالناس عن هذا الهم ، فأذن لمن يريد الدخـول عليه ، ودخل عليه داهيـة العرب المغيرة بن شعبة ، فرحب به ترحيباً حاراً . فقد جاءه من يبثه شكاته ، علّه يعينه على همه . فـإن ثقيف قوم مناكير ، ولعل دهاء المغيرة يذلل الصعاب .

وقال معاوية حين نظر إليه :

إنمـا موضـع سر المـرء إن بـاح بالسر أخـوه لمنتصح
فـإذا بحـت بسـرٍ فـإلى نـاصح يستـره أو لا تبـح

ولقد كنا عهدنا المغيرة في بداية الفتنة بجوار علي رضي الله عنه وهو الذي اقترح على أمير المؤمنين علي أن لا يعزل معاوية ، لأنـه يدرك شخصية معاوية ومدى سلطانه في الشام،ثم إنه اعتزل الفتنة. أما الآن فهو عند أمير المؤمنين معاوية يضع طاقاته وعبقريته بـين يديه ، وهو الآن واليه على الكوفة .

وعندما وجد معاوية مهموماً ، قال له :

يا أمير المؤمنين إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً ، ورعاً وثيقاً ، فماذاك يا أمير المؤمنين ؟!

معاوية : ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ، وامتناعه بها ؛ فلم أنم ليلتي .

وأحب المغيرة أن يهوّن من شأن زياد وخطره ليخفف مـن قلق الخليفة فقال :

ــ ما زياد هناك يا أمير المؤمنين !

ــ بئس الوطء العجز !!

داهية العرب معه الأموال متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل ما يؤمنني أن يبايع لرجلٍ من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد علي الحرب جذعة .؟!

ــ اتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ؟

ــ نعم فأته وتلطف له .

وهيأ المغيرة رحله ، وجمع حوائجه ، ومضى يكد السير إلى فارس .

وطرق المغيرة باب زياد بفارس .

فسأل عمن في الباب فقيل له : المغيرة بن شعبة ، فخرج مهرولاً يستقبل ضيفه الكبير المغيرة الذي لم يلقه من وقت طويل .

وقال زياد : أفلح رائد .

واهتبلها المغيرة فرصة سانحة يتحدث فيها عما بدا له بعد أن رحب زياد به وأدناه .

وقال المغيرة : إليك ينتهي الخبر ابا المغيرة ، إن معاوية استخفه الوجل حين بعثني إليك .

وهنا سكت المغيرة هنيهة ، وتفرس في وجه زياد ليرى وقع الكلام عنده فوجده مصغياً بكليته إليه فتابع قائلاً :

ولم يكن يعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية . ثم اختلس نظرة ثانية تفحص بها وجه زياد ؛ فوجده على أشد ما يكون من الاهتمام .

قال عندئذٍ : فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغني عنك معاوية .

زياد : أشر عليَّ ، وارمِ الفرض الأقصى ، ودع عنك الفضول فإن المستشار مؤتمن .

المغيرة : في محض الراي بشاعة (لب الراي) ولاخير في المذيق (هامشه) .

أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله .

زياد : أرى ويقضي الله .

وعاد المغيرة أدراجه من حيث جاء .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد زياد بين يديه كتاباً من أمير المؤمنين ، ففضه فإذا فيه :

علام تهلك نفسك . فأقبل إلي فأعلمني علم ما صار إليك مما اجتبيت من الأموال وما خرج من يديك ، وما بقي عندك وانت آمن ؛ فإن أحببت المقام عندنا اقمت ، وإن أحببت أن ترجع إلى مأمنك رجعت .

وكانت هذه الرسالة هي الحاسمة في الأمر ، فإشخاص المغيرة إليه ، والوثيقة الخطية بيده ، ليؤكدان حرص معاوية على سلامته وأمانه . فعزم على السير دون تردد ، ومضى يقطع سهوب فارس وجبالها الوعرة يركب كل صعب وذلول حتى قدم الشام ، ونزل على أمير المؤمنين معاوية .

وكان لقاءً طالما انتظره معاوية ، واحسن استقبال زياد ، واحتفى به ، وانتقل بعدها للموضوع الذي أشجاه . موضوع المال الذي يقدر به زياد أن يزعزع الحكم ، ويزحزح الأرض من تحت معاوية .

وحق لمعاوية هذا الخوف .

فالرايات السود التي أقبلت من فارس والتي بايعت لرجل من آل بيت النبي ، هي التي قوضت دعائم الدولة الأموية واجتثتها بعد قريب من مائة عام .

و (سأل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس ، فأخبره بما حمل منها إلى علي رضي الله عنه ، وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة ، فصدّقه معاوية على ما أنفق ، وما بقي عنده ، وقبضه منه وقال :

قد كنت أمين خلفائنا) (١) .

قال زياد : يا أمير المؤمنين قد كان لي مال قبل الولاية فوددت أن ذلك المال بقي ، وذهب ما أخذت من الولاية .

وكان المغيرة يتنسم أخبار زياد ، فما إن عرف بتوجهه لأمير المؤمنين ، حتى مضى إلى الشام ، وأخر وصوله إليها شهراً بعد وصول زياد .

قال معاوية : يا مغيرة، زياد أبعد منك بمسيرة شهر، وخرجت قبله وسبقك .

فقال : يا أمير المؤمنين إن الأريب إذا كلم الأريب أفحمه .

قال : خذ حذرك ، واطوِ عني سرَّك .

فأجاب المغيرة :

إن زياداً قدم يرجو الزيادة ، وقدمت أتخوف النقصان .

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٧٨ رواه ابن جرير عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي بن محمد (صدوق) عن مسلمة بن محارب. وقد ذكره البخاري في التاريخ ٣٨٧/٧ وابن أبي حاتم بدون جرح ولا تعديل.

وهكذا التقى الدهاة الثلاثة ، وكان رابعهم عمرو بن العـاص متربصاً في مصر . أما الداهيتان الآخران فقد اكتفى منهما معاوية بالاستشارة . وكان هؤلاء جبالاً في الدهاء والحكمة ، لكن زياداً لا يزال حتى الآن تحت الاختبار .

واستأذن زياد معاوية أن يمضي للإقامة في الكوفة ، فأذن له على حذر :

فالخليفة يعلم أن الكوفة معقل خصومه ، وهم وإن دخلوا في البيعة والولاية لكن قلوبهم لا تزال منطوية على البغضاء له .

نزل زياد الكوفة ، وأخبار معاوية تلاحقه ، وزياد يعلم أن معاوية لا بد وأن يلاحقه ، فسلك سبيلاً هيناً حيث ربط حبلـه بحبل المغيرة بن شعبة أمير الكوفـة . وتناهى إلى معاويـة بعض الأخبار أن زياداً قد يتفلت من الجماعة بعض الأحيان ، فأسرع بإرسال كتاب هذا نصه :

خذ زياداً وسليمان بن صرد ، وحجر بن عدي ، وشبث بن ربعي ، وابن الكواء ، وعمرو بن الحمق ، بالصلاة في الجماعة .

فكانوا يحضرون معه الصلاة .

وأحب المغيرة أن يكرم زياداً أكثر فأكثر ، فعندما حضرت الصلاة قال له : تقدم فصل .

فقال : لا أفعل انت أحق مني بالصلاة في سلطانك(١) .

* * *

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٨٠ . عمر بن شبة عن علي بن محمد عن سليمان بن أرقم (ضعيف) .

شيعة عليّ في وجه المارقين

السنة الثالثة من خلافة معاوية تدلف ، والخلاف بين المسلمين تفتت أوكاد ، وحلم معاوية يذيب المعضلات . ولقد آن الأوان للتطلع إلى الجهاد من جديد ، بعد أن تعطل أربع سنين أو يزيد . فكان عوداً على بـدء ، وبدات الغزوات تتوالى في أرض الروم ، وحوّل معاوية بسر بن أبي أرطاة من البصرة إلى قيادة الجيش على الثغور الإسلامية ، فلقد كان شديداً في ولايته ، فلتكن هذه الشدة على أعداء الله . وتفرغ معاوية لمشاكل المسلمين ، وكان الحدث الذي هزه في هذا العام هو نبأ وفاة عمرو بن العاص الذي كان يكفيـه أرض مصر ، فسارع وولى ابنه عبد الله هناك . ومن مثل عبد الله في صلاحه وتقواه (١) .

---

(١) ولنحضر عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يعالج سكرات الموت :

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن شماسة قال :

(لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى، فقال له ابنه عبد الله : لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت ؟

فقال : لا والله ولكن مما بعد الموت .

فقال له :

قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبة رسول الله وفتوحه الشام .

فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله .)

←

وبينا هو كذلك ، إذ فتحت عليــه ثغرة داخلية كبيرة حيث اشتعلت ثورة الخوارج في العراق . لكن قلقه من جراء هذا الحدث

←

وراح عمرو يستعرض شريط حياته كله . فقال :

(إني كنت على ثلاثة اطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه :

كنت أول قريش كافراً ، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار .

فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياءً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ، ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله حياءً .

فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه نرجو له الجنة .

ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء . فلا أدري عليَّ أم لي ، فإذا مت فلا تبكينْ علي باكية ، ولا يتبعني مادح ولا نار ، وشدوا عليَّ إزاري فإني مخاصم ، وشنوا عليَّ التراب شناً ، فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحرجزور أستأنس بكم) .

وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه من حديث يزيـد ابن أبي حبيب بإسناده نحوه .

ولعل هذا العرض الذي قدمه عمرو بن العاص رضي الله عنه لأطباقه الثلاثة هو الذي يعطينا صورة عن نفسيته في موقفه مع معاوية ، إنه اجتهد . ولا يدري أصاب باجتهاده أم أخطأ ، وعمل ما في وسعه لتحري الحق وهو يسأل الله عز وجل المغفرة إن أخطأه الصواب .

لم يكن كبيراً ، فهو يعلم أن المغيرة بن شعبة ابو المعضلات ، وكان من عبقرية المغيرة أن وجه الطاقات الكامنة المتفجرة في الشجاعة والبطولة إلى قتال الخوارج ، إذ ابتدأ خطواته عندما علم بخروجهم فقال : قد علمتم ايها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم . فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بدأ من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل (١) .

إنها بوادر تغيير جديدة في سياسة المغيرة ، وما استطاع امرؤ أن يسبر نفسية أهل الكوفة ، ويقدر على حل مشاكلهم مثل المغيرة بن شعبة ، وهو الذي اختاره أمير المؤمنين عمر ليحل معضلة أهل الكوفة ، وأحس أهل الكوفة بالوجل خاصة عندما رأوا اللهجة الصارمة في حديثه والتهديد العنيف الذي يقول :

(فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف ؛ وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا ابدتهم ، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) (٢) .

وتحرك أكبر سادات الكوفة : معقل بن قيس الرياحي ، والذي كان من كرام شيعة علي فقال :

---

(١) الطبري ج٥ ص١٨٢ ، سنة ٤٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص١٨٢ ــ ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

أيها الأمير هل سمّي لك أحد من هؤلاء القوم ؟ فإن كانوا سموا لك ، فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم ، وإن كانوا من غيرنا ، أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها .

قال المغيرة : ما سمي لي أحد منهم ، ولكن قد قيل لي إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر .

اجاب معقل : أصلحك الله فإني أسير في قومي ، وأكفيك ماهم فيه ؛ فليكفك كل امرىء من الرؤساء قومه .

واهتبلها المغيرة من فم معقل بن قيس ، فبادر فوراً بالدعوة إلى اجتماع مغلق لرؤساء الكوفة .

ولما التأم الشمل قام فيهم خطيباً فقال :

إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ؛ فليكفني كل امرىء من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره (لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لائم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر) (١) .

وانتهى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه من إنذاره ليتحرك الرؤساء جميعاً إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والاسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة او يفارق جماعة .

ونجحت خطة المغيرة أيما نجاح ، لقد حرك الآساد من آجامها ، وراحت الكتائب تترى تحمساً للقتال ، وكأنما علي امير المؤمنين هو الذي يقودها .

---

(١) الطبري ج٥ ص١٨٢ ــ ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

هذا صعصعة بن صوحان رئيس عبد قيس ــ والخوارج بين ظهرانيهم ــ يخطب قومه قائلاً :

إن الله ــ وله الحمد كثيراً ــ لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره لنفسه ، وارتضاه لملائكته ورسله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله ﷺ ، ثم اختلف الناس بعده فثبتت طائفة وارتدت طائفة ، وأدهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمتم دين الله إيماناً به وبرسوله وقاتلتم المرتدين حتى قام الدين وأهلك الله الظالمين .

فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء وعلى كل حال حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة نريد أهل المغرب ، وقالت طائفة نريد عبد الله بن وهب الراسبي راسب الأزد .

وقلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدأنا الله من قبلهم بالكرامة تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ؛ حتى أهلك الله بكم وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم الناكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر .

(وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم) .

ولا قوم أعدى لله ولكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ؛ من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ، واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر .

فإياكم أن تؤوهم في دوركم ، أو تكتموا عليهم ؛ فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد

والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وانا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم فإن دماءهم حلال ، ثم قال :

يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

ثم تنحى فجلس) (١) .

وكان لابد لصعصعة ان يستعرض مواقف عشيرته ، ليضعهم على الخط الأقوم الذي يحملون عبأه منذ ان دخلوا افواجاً في دين الله ، واستطاع أن يجعل عشيرته صفاً واحداً معه ضد الخوارج ، وكان جريئاً في الحق حيث تحدث عن نصرته لآل البيت ، وانه مع قومه من اتباعهم . وبهذه الخطة انتزع من كل رؤساء عشيرته موافقته ، فكل قومه قال : لعنهم الله وبرىء الله منهم ، فلا والله لا نؤوينهم ، ولئن علمنا بمكانهم لنطلعنك عليهم .

غير سليم بن محدوج الذي اختفى الخوارج عنده ، حيث مضى إلى بيته والهم يعتلج في صدره ، وضيقه جاثم على انفاسه ، وعرف الخوارج ذلك منه، فما طلع الفجر، وفي بيته منهم مخبر) (٢) .

فلقد رحلوا بعيداً دون أن يبقى منهم أحد .

وكان الأولى بسليم ان يهيىء المجال لحصر الفتنة ، والقبض عليهم قبل انتشارهم ، وانتشار الفتنة معهم أين حلوا وأينما رحلوا ؛

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٨٦ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٧ .

غير أنه رفض أن يخفر ذمته ويغدر بمن وثق به ، ولم يجد حلاً إلا الرحيل .

أما صعصعة بن صوحان فقد صحا ، ومع الضحى مضى إلى الأمير المغيرة بن شعبة تتنازعه هواجس شتى ؟!!

ترى هل يكون على قيادة الحملة التي تقابل الخوارج ؟!!

لكن بينه وبين الأمير بعض الملامة ، وحب آل البيت مشتعل في فؤاده ، ولكم نصحه الأمير ان يكف عن مديحهم في المجالس العامة، لكن دون جدوى ؛ كما أن هناك منافسين آخرين قد يصلون إلى قيادة الحملة ضد هؤلاء المارقة ، لكن لا عليه ، فهو يعرض نفسه رغم خطورة المهمة التي يمضي بها .

ووصل صعصعة إلى مجلس الأمير ، وقبل أن تفوته الفرصة في المجلس أسرع ليعرض نفسه لقيادة حملة الخوارج ، وهو يدافع شكوكه بعتب الأمير عليــه ، لكنه لا يمكن أن يبتدىء بالحديث في مجلس أمير الكوفة ، فأخذ ينتظر الفرصة السانحة .

واتت الفرصة حين افتتح الأمير الحديث بعد حمد الله والثناء عليه بقوله ــ وحوله رؤساء الناس ــ : إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين ــ الهلاك ــ وسوء الرأي ، فمن ترون أبعث إليهم ؟!

فقال عدي بن حاتم : كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه ، وبطاعتك مستمسك ، فأينا شئت سار إليهم .

وقال معقل بن قيس : إنك لا تبعث اليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً ، ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً .

ولا أرى ـ أصلحك الله ـ أن تبعث إليهم احداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني ، فابعثني إليهم فإني أكفيكهم بإذن الله .

وبعد كلام كثير جرى في المجلس ؛ توجه الأمير المغيرة بن شعبة لمعقل بن قيس الرياحي قائلاً :

اخرج على اسم الله .

ودعا المغيرة احد رؤساء جنده ـ وهو قبيصة بن الدمون ـ وافضى إليه بخطة التعبئة قائلاً له :

(الصق لي بشيعة علي فأخرجهم مع معقل بن قيس ، فإنه كان من رؤوس أصحابه ، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون ، فاجتمعوا جميعاً ؛ استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا ، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة ، وأجرأ عليهم من غيرهم ، وقد قاتلوا قبل هذه المرة) .

وكان قبيصة عند حسن ظن المغيرة ، فعبأ ثلاثة آلاف مقاتل ، وهم نقاوة الشيعة ، وفرسانهم ، فأتى معقل بن قيس المغيرة يسلم عليه ويودعه ، فقال له المغيرة : يا معقل بن قيس إني قد بعثت معك فرسان أهل المصر ، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً ، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فادعهم إلى التوبة ، وإلى الدخول في الجماعة ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم واستعن بالله عليهم.

فأجابه معقل بحماس ووعي :

سندعوهم ونعذر ، وايم الله ما ارى ان يقبلوا ، ولئن لم يقبلوا الحق لا نقبل منهم الباطل .

ومضى الجيش على اسم الله ، ولم تنته معاركه الطاحنة مع الخوارج إلا بقمع الفتنة والقضاء على المارقين ، وقتل قائدهم ، وعادت وحدة الكلمة للأمة بعبقرية المغيرة ، وحسن بلاء المجاهدين من شيعة علي رضي الله عنه في العراق .

لقد توحدت الطاقات كلها ضــد الخوارج ، وكانت نهرواناً جديدة حسـمت الموقف مع العابثين بوحدة الأمة المسلمة .

* * *

زياد بن أبيه أمير المشرق

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اكثر ما يشغله ـ العراقان ـ الكوفة والبصرة . وهذا معاوية قد اطمأن إلى الكوفة رغم وجود اكبر خصومه السياسيين فيها ، وذلك بسبب حكمة المغيرة وعبقريته ، وهو الذي استطاع أن يوجه الطاقات كلها ضد الخوارج ، ويذلل الأمر للخليفة في هذا المصر بحسن سياسته .

أما البصرة وما وراءها فكان عليها عبد الله بن عامر ، ورغم بلاء عبد الله بن عامر في الفتوح ؛ إلا ان جانب اللين عنده كان غالباً عليه ، فأدى ذلك اللين إلى أن يفلت زمام الأمر من يده ، فشاعت الفوضى، وانتشر اللصوص، وعبث الفساق واختل الأمن، وأصبحت البصرة وما وراءها مسرحاً للفتن .

وكان زياد بن أبيه قد اختار الكوفة مقاماً له بعد بيعته للخليفة ، وهو كالأسد المصفد في أغلاله ، يرى هذا العبث والفوضى، والرعب بين الناس ، ولا سبيل له ولا سلطان له على أحد ، وشكا ابن عامر أمير البصرة إلى زياد بن ابيه فساد الناس وظهور الخبث ، فقال : جرد فيهم السيف .

قال الأمير : إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي .

وبلغ السيل الزبى ، فتداعى العقلاء ، ودعوه إلى الصرامة في تنفيذ حدود الله .

فقال : أنا أتألف الناس فكيف انظر إلى رجل قد قطعت أباه وأخاه .

وكان هذا الخط كذلك خروجاً على المنهج الإسلامي الذي جعل الحدود نكالاً بالمجرمين وجعلها ردعاً للعابثين ، واكد القرآن على أن الرحمة في مثل هذه الأمور خيانة للأمانة الملقاة على عاتق الإمام .

لقد أكد القرآن هذا المعنى حين قال بصدد عقوبة الزنى :

(... ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) .

أما معاوية الخليفة ، فقد بقي يحمل اعباء الخلافة على عاتقه وحده بعد أن فقد ركنه الركين عمرو بن العاص ، وتتبع انباء العراق وما يجري في هذا البلد الذي حاربه اربع سنين ، وجعل كلما حضر وفد إليه سأله سؤال اللهفان .

كان أكثر ما يشغله شأن البصرة ، وذات مرة أحب ان يعلم علمها من أهل الكوفة حين حضر وفد منها إليه وفيهم ابن الكواء اليشكري .

فقال الرجل :

إن أهل البصرة اكلهم سفهاؤهم ، وضعف عنهم سلطانهم !!

ولم تكن هذه اول الأخبار التي تصل معاوية عن البصرة ، وهي قد شغلت تفكيره طويلاً .. وأخيراً رأى ان لابد من تولية زياد للبصرة ، ليضبط الساحة العابثة . لكن لابن عامر من حق القرابة ، وقدم الجهاد ما يحرجه .. لا ، إن مصلحة الأمة فوق مصلحة

الافراد ، ولا بدّ من وال حازم عاقل للبصرة ، وليس لها إلا زياد ، الذي أصبح يدعى : زياد بن ابيه بعد أن استلحقه معاوية بنسبه(١) .

وكان هذا في السنة الرابعة من خلافته ، حيث أحكم أمير المؤمنين إدارة الدولة من كل جوانبها ، وأحاطها جميعها بسياج حزمه وحكمته .

واستدعى معاوية عبد الله بن عامر أمير البصرة لزيارته ، فجاء ابن عامر ونزل ضيفاً على الخليفة معززاً مكرماً ، ولم يفاتح بشيء من أمر إمارته . وعندما أوشك على المسير قام معاوية يودعه ويشيعه ، وفي اللحظة الأخيرة القى سهمه الصائب :

معاوية : إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هنّ لك .

ابن عامر : هنّ لك وأنا ابن أم حكيم .

---

(١) يقول القاضي ابو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم ص ٢٤٠ — ٢٤١ :

وأما نكتة الكلام وهو القول في استلحاق معاوية زياداً ، وأخذ الناس عليه في ذلك فأي أخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من أبيه ؟ وأي عار على أبي سفيان في أن يليط بنفسه ولد زنى كان في الجاهلية! فمعلوم أن سمية لم تكن لأبي سفيان ، كما لم تكن وليدة زمعة لعتبة . لكن كان لعتبة منازع تعين القضاء له ، ولم يكن لمعاوية منازع في زياد .... فالحارث بن كلدة لم يدع زياداً ، ولا كان إليه منسوباً ، وإنما كان ابن أمته ولد على فراشه — أي في داره — فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه . فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز ؛ بل فعل فيه الحق على مذهب مالك . فإن قيل : فلمَ أنكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهاد ، فمن رأى أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد أنكر ذلك وعظّمه .

معاوية : ترد عليَّ عملي ولا تغضب .
ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي مالك بعرفة ؟
ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي دورك بمكة .
ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وصلتك رحم .

وعرف ابن عامر أن الأمر أفلت من يده ، وهو يحس في أعماقه أن الأمر أكبر منه ، واستعمل ذكاءه في اللحظة المناسبة ، فقال ابن عامر :

يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هن لك .

قال : هن لك وأنا ابن هند .

ابن عامر : ترد عليَّ مالي بعرفة .
معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً .
معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : وتنكحني ابنتك هنداً .
معاوية : قد فعلت(١) .

وبذلك انتهت الأزمة .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ . عن عمر بن شبة عن علي بن محمد .

وخلافاً للمعهود بعث معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي في نوعٍ من الإيهام ليكون والياً على البصرة حتى ينسى الناس والأهل عزل ابن عامر . كان هذا في سنة خمس وأربعين ، وبعد مرور أربعة أشهرٍ أعلن معاوية توليــة زياد أميراً على البصرة ، ومــع البصرة خراسان وسجستان ، وبذلك اطمأن إلى المشرق كله فقد جمع له الهند والبحرين وعمان .

فلنتابع زياداً والي البصرة ، لنشهد عبقريته ، ووقع إمارته على قادة البصرة وعلى سفهائها العابثين .

ولنستمع مع المسلمين في المسجد الجامع بالبصرة ، تلك الخطبة التي قلبت الموازين وزلزلت أركان العابثين (١) .



---

(١) قيل : إنه لم يحمد الله فيها فسميت البتراء . وقيل : إنه حمد الله فقال : الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمتك علينا .

مِنَ الخلافة إلى المُلك

قال زياد في خطبته :

أما بعد :

فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر (الفجور) الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها ؛ ما يأتي سفهاءكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله ، ولم تقرؤوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمد الذي لا يزول .

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به ؛ من تركم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل .

ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟!!

قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً !! ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً (مستترين) في مكانس الريب .

حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ؛ لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف . . .) .

وصدق زياد . فالإسلام هو الذي يصلح هذه الأمة ، ولا بد من تهديم المواخير وقمع المنكر ، وتسوية بيوت الانحراف بالأرض هدماً وإحراقاً .

وماذا يستطيع أهل البصرة أن يردوا به على زياد أميرهم الجديد ؟!

أما المبدأ الذي أعلنه في الجانب السياسي فهو مبدأ إسلامي خالد ، وهو الذي يناسب الأمة الوسط في دينها ، في بعدها عن الغلو في الإفراط أو التفريط .

أما القسم الثاني من الخطبة ، فيختلف تماماً عن المنهج الأول.

قال : وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد . أو تستقيم لي قناتكم . . .) .

ووقوفنا مع هذه الخطبة عند هذه الفقرة يطلعنا على انحراف ضخم عن المفهوم الإسلامي للحكم ، وهو الذي كان المنطلق الأول لتحول الحكم من خلافة إلى ملك .

إن الملك ينطلق من اتخاذ كل الوسائل الممكنة نظيفة أو غير نظيفة للوصول إلى الغاية ، أما مفهوم الخلافة فلا يتنازل عن سلامة الوسيلة وسلامة الغاية ، بل يتعبد الله بالوسيلة والغاية معاً .

فالملك يعتمد الإرهاب والقوة والفتك ليصل إلى غايته ، ولو كانت الغاية الحكم بشريعة الله ، بينما ترفض الخلافة ذلك .

ثم يعلن زياد بيانه السياسي الهام المعبر عن اتجاهات الدولة :

١ ـ إن كذبة المنبر تبقى مشهورة ، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة ، فقد حلّت لكم معصيتي .

٢ ـ من بُيِّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له .

٣ ـ إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي .

٤ ـ وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا اجد احداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

٥ ـ وقد احدثتم احداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف يدي واذاي .

٦ ـ لا يظهر من احدٍ منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين أقوام إحَن ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .

٧ ـ إني لو علمت أن احدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم اناظره .

٨ ـ فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئسٍ بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس .

٩ ــ أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا) .

إن مفهوم الخلافة الإسلامي ينطلق من بيعة الناس للخليفة ، وميزان الطاعة والمعصية فيه هو طاعة الله ومعصيته ، فالسلطان ليس تفويضاً من الله بمقدار ما هو وكالة من الأمة .

يقول الصدّيق سيد الخلفاء رضي الله عنه :

(إني وليت عليكم ولست بخيركم ، إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني) .

وشتّان بين هذا النص ونص زياد :

(إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا) .

فالصدّيق يربط الولاية بالأمة نفسها ، وللأمة التقويم عند الخطأ ، أما زياد فيربط الولاية بعطاء الله هذا السلطان للحاكم .

وهذا هو الفرق الأول بين الخلافة والملك ، ونلاحظ هذا الموقف من خلال المبادىء التالية :

ــ إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .

ــ إياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

ــ لا يظهر احد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

فسفك الدم وقطع اللسان وضرب العنق ومنع المناظرة ، ليست من نظام الإسلام في الحكم في شيء .

فرسول الله ﷺ يقول :

(لا يحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) .

اما ان يكون مجرد إعلان الراي او المعارضة كافياً لضرب العنق وسفك الدم ؛ فهذا مالم يعهده نظام الخلافة الإسلامي ابداً .

ومنــع المناظرة لمن أبدى رأيــه ، هي سمات الفتك في الملك وليست من سمات الخلافة . أين هذا الموقف من موقف عثمان رضي الله عنه وهو يناقش الناس ويناظرهم على المنبر ، ويدعوهم من الآفاق ليستمع منهم إلى رأيهم في ولاتهم ، ويعزل الولاة ممن يثبت لديه صحة اتهامهم .

أين هذا من منع المناظرة وسفك الدم ، ودفن الأحياء .

إن في شريعة الله وأحكامه سعة (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) .

وتطبيق شريعة الله هو الكفيل بتحقيق العدل ، وضبط الأمن ، وحفظ الاعراض والأموال ، أما التجاوز بقتل اي معارض ، ودفن اي معترض ، وسفك دم أي مجرم ، وضرب عنق اي مخالف للرأي العام حوله ، وضبط النفس بالإرهاب والقوة ، ثم تطبيق شريعة الله بعد ذلك ؛ فهذا من مفهوم الملك بلا شك ، وليس من مفهوم الخلافة.

اما الفرق الثاني فهو في مفهوم المال :

ونحن نرى ان مفهوم المال في نظام الخلافة الإسلامي لا يخرج عن ان يكون مالاً للأمة ؛ كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف) .

وقد حدد هذا المعروف بقوله :

(إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ثم أنا بَعْد رجل من المسلمين) .

ولقد أقام أبو ذر الدنيا وأقعدها على معاوية رضي الله عنهما يوم قال عن المال : مال الله ، ولم يقل مال المسلمين ، ولم يتركه حتى تعهد له معاوية رضي الله عنه بإعادة التسمية .

(أما إني لن أقول أن المال لغير الله ، ولكني أقول المال مال المسلمين) .

وكم الفرق كبير بين قول عمر رضي الله عنه السابق ، وقول زياد :

(ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا) .

وهذا معاوية رضي الله عنه نراه يختبر وضع الناس ومفهومهم حول المال في الحادثة المذكورة .

فعن أبي قبيل عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه صعد المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته : إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال : كلا إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا !!

فنزل معاوية ، فأرسل إلى الرجل فأدخله ، فقال القوم : هلك الرجل . ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير ، فقال معاوية :

إن هذا أحياني أحياه الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة) . وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليّ أحد ، فخشيت أن أكون منهم ، ثم تكلمت في الجمعة الثانية ، فلم يرد عليّ احد ، فقلت في نفسي : إني من القوم . فلما تكلمت في الجمعة الثالثة ، فقام هذا الرجل فرد عليّ فأحياني أحياه الله (1) .

إنها تقوى معاوية رضي الله عنه في حرصه على هدي النبوة ، وخشيته ان يكون في حكمه بعيداً عن منهج الله فيتقحم في النار .

وأي شيء يقوله حتى يثير ردود الفعل عند الناس ؟!

لم يجد خيراً من أن يمسهم في أموالهم ، وهو أول حاكم يعلن هذا الموقف النشاز عن منهج سلفه .

ولقد ملأ قلبه الرعب يوم لم يرد عليه أحد في خطبته هذه .

ترى هل هلك نتيجة خوف الناس ورعبهم منه .؟!!

إن اي حاكم في الأرض بلا عقيدة ينتفش وينتفخ يوم يرى انصياع الناس وطاعتهم له ، فلا يجرؤ صوت أن يرتفع بمخالفة .

وتكراره الأمر في الجمعة الثانية والثالثة يدل على مدى عظمة العقيدة في كيانه ، ومدى خوفه الرهيب من النار أن يهلك بهذا الحكم الذي آل إليه .

---

(1) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وابو يعلى ، قال الهيثمي : ورجاله ثقات .

ولكنه في الجمعة الثالثة اطمأن إلى أن الأمة لا تزال بخير ، وانها تقول للظالم يا ظالم ، وانها لا تخاف في الله لومة لائم .

أما عندما يبلغ الطغيان مبلغه ، ويبلغ الذعر بالناس كما قال زياد : انج سعد فقد هلك سعيد ؛ عندها تستحق الأمة الفناء ، وتصيب الفتنة الحاكمين والمحكومين على السواء. ولا شك أن معاوية الخليفة رضي الله عنه قد أعاد الثقة للنفوس ، حين تهامسوا فيما بينهم فيما قاله عن تخوفه الهلاك ، وعرفت الأمة أن حاكمها هو تتمة ذلك العقد من الخلفاء .

إنما يمكن القول : إن هذا لم يكن عاماً في أرجاء الخلافة الاسلامية ، ففي بعض الولايات اصبح الناس يخافون قول الحق ، ولا يأمنون على حياتهم إذا طالبوا بحقوقهم ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الانتقال من الخلافة إلى الملك . وهذا بعض الاضطراب الذي نلحظه في خطبة زياد التي عمل ببنودها بدقة متناهية ، ولا يمكن الفصل بين معاوية وزياد في الوقت نفسه لأن زياداً والي معاوية ، ولو كان غير راضٍ عن هذا الموقف السياسي لعزل زياداً ووضع والياً آخر مكانه .

والجانب الثالث الذي نرى فيه اختلافاً عن منهج الخلافة الراشدة هو ميزان الطاعة للحاكم .

فالميزان الذي قدمه زياد لفرض الطاعة على المسلمين ، واستحقاق الحاكمين لها ؛ هو العدل ، وهذا الميزان وإن كان من الموازين الدقيقة التي يقوّم بها الحاكمون في الإسلام ، لكنما الميزان الأول الذي يشمل فيما يشمل العدل هو طاعة الله ورسوله . حدّد ذلك رسول الله ﷺ حين قال :

(اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن راسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى) (١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، إلا ان يؤمر بمعصية ، فإن امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٢) .

ولقد طبق سيد الخلفاء ابو بكر رضي الله عنه هذا المنهج تمام التطبيق يوم قال في خطبة توليّه الخلافة : (اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) .

وهنا تفترق الخلافة عن الملك كذلك .

ويختم زياد خطبته بقوله :

(واعلموا اني مهما قصرت عنه فإني لا اقصر عن ثلاث :

لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه ، ولا مُجَمِّراً لكم بعثاً (مبقياً جيشاً) في أرض العدو أكثر من اربعة اشهر .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليــه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ؛ فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولاتدركوا حاجتكم ؛ مع انه لو استجيب لكم لكان شراً لكم . اسأل الله أن يعين كلاً على كل . وإذا رأيتموني انفذ فيكم الأمر فانفذوه على اذلاله .

---

(١) اخرجه البخاري .

(٢) اخرجه الخمسة .

وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة . فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي) (١) .

هذا البرنامج السياسي الذي أعلنه زياد من النقاط العشر ؛ كان أمراً خطيراً في تاريخ الامارات الاسلامية ، فهدف إقامة الحدود، وضبط المجتمع بالشريعة الإسلامية ، وإقامة الجهاد في سبيل الله ؛ بقي هو الأول والأعلى في هذا البرنامج السياسي . أما الخروج على المنهج الإسلامي ، فكان في :

١ ــ التخلي عن إرادة الأمة المسلمة في الحكم .

٢ ــ اللجوء إلى العنف والارهاب فيه .

٣ ــ منع الناس من محاسبة الولاة على تصرفاتهم المالية .

٤ ــ اعتبار الطاعة مرتبطة بالعدل ، لا بتطبيق شريعة الله .

وإن كانت هذه الأخيرة لا تعني خروج الحاكمين عن هذه الشريعة الى شريعة اخرى ، إنما تعني أن بعض المخالفات لهذه الشريعة في المال والحكم قد تمرّ دون تغيير أو إصلاح .

ولعل هناك من يعذر زياداً في هذا النهج لطبيعة الفوضى والعبث والفساد المنتشر في البصرة ، لكن الإسلام لا يقبل هذا العذر ، ويعتبر الحكم بهذه الطريقة انتقالاً من الخلافة إلى الملك .

فعن سعيد بن جمهان، عن سفينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٧ ــ ٢١٩ . عن عمر (ثقة) عن علي (ثقة) عن مسلمة (مجهول) والهذلي (اخباري علامة لين الحديث).

(خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء) .

قال سعيد : قال لي سفينة : امسِك عليك !! أبو بكر سنتين، وعمر عشراً ، وعثمان اثنتي عشرة ، وعلي كذا .

قال سعيد : قلت لسفينة : إن هؤلاء يزعمون أن علياً رضي الله عنه لم يكن بخليفة ، قال : كذبت أستاه بني الزرقاء ــ يعني بني مروان ــ (١) .



(١) رواه الامام أحمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، واللفظ لأبي داود .

وقال الترمذي عن هذا الحديث : حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جهمان ولا نعرفه إلا من حديثه .

يقول الهيثمي : قلت : قد رواه عبد الله ابن الإمام أحمد من حديث أبي ريحانة ــ واسمه عبد الله بن مطر البصري ــ عن سفينة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، فقال رجل كان حاضراً في المجلس :

قد دخلت من هذه الثلاثين سنة وستة شهور في خلافة معاوية.

فقال : من هاهنا أتيت ، تلك الشهور كانت البيعة للحسن ابن علي بايعه أربعون ألفاً ، أو اثنان وأربعون ألفاً .

قال ابن كثير :

كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال . وكانت خلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر

←

وإذا عدنا في الذاكرة إلى زياد وهو معتصم بفارس ، وإلى اخيه من أمه ابي بكرة صاحب رسول الله ﷺ وهو يحمي ولد زياد عند معاوية ويأخذ الأمان لزياد ، ورأينا مدى إجلال معاوية لأبي بكرة ؛ يطالعنا هذا الحديث بين ابي بكرة الذي لا يخشى في الله لومة لائم مع معاوية الحاكم :

فعن عبد الرحمن بن ابي بكرة قال :

وفدنا إلى معاوية مع زياد ومعنا ابو بكرة رضي الله عنه ، فدخلنا عليه ، فقال له معاوية رضي الله عنه :

حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عسى الله ان ينفعنا به.

قال : نعم . كان نبي الله ﷺ يعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ : ايكم راى رؤيا ؟

فقال رجل : انا يا رسول الله ، إني رايت رؤيا : رايت كأن ميزاناً دلّي من السماء فوزنت انت وابو بكر فرجحت بأبي بكر ،

→

وأربعة أيام . وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً . وكانت خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه خمس سنين إلا شهرين . قال : وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

وقال ابن كثير ايضاً : والسُنة ان يقال لمعاوية رضي الله عنه : ملك ، ولا يقال له : خليفة ؛ لحديث سفينة رضي الله عنه .

ثم وزن ابو بكر بعمر فرجح ابو بكر بعمر ، ثم وزن عمر بعثمان فرجح عمر بعثمان ، ثم رفع الميزان . فاستاء لها رسول الله ﷺ ثم قال :

خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء .

فغضب معاوية فزج في اقفائنا واخرجنا .

فقال زياد لأبي بكرة : اما وجدت من حديث رسول الله ﷺ حديثاً تحدثه غير هذا .

فقال : والله لا احدثه إلا به حتى افارقه .

قال : فلم يزل زياد يطلب الاذن حتى اذن لنا ، فادخلنا ، فقال معاوية : يا ابا بكرة حدثنا بحديث عن رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعنا به .

قال : فحدثه ايضاً بمثل حديثه الأول ، فقال له معاوية :

لا ابا لك تخبرنا انا ملوك ، فقد رضينا ان نكون ملوكاً(١) .

* * *

ثم نتساءل بعد هذا كله : كيف كان وقع بيان زياد على الأمة المسلمة ؟

نلاحظ ذلك من خلال ثلاثة نماذج :

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والطيالسي . ورواه ابو داود مختصراً دون الوفادة على معاوية ، وهو حديث حسن . وقد رواه مختصراً كذلك الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

أولاً : انموذج المتزلفين والمنافقين ، نراه من خلال عبد الله بن الأهتم حيث قال :

أشهد أيها الأمير انك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .

وعلى ما يبدو فهؤلاء لن يكون لهم صولة ودور عند زياد ، إذ اجابه على الثناء الكاذب بقوله :

(كذبت ذاك نبي الله داود عليه السلام) .

وبذلك قطع دابر الفئة التي تعيش على الفتات وتحيا بالمديح الزائف للحكام .

ثانياً : انموذج قلب الأمة وعصبها الحي . ويمثل هؤلاءالأحنف ابن قيس سيد بني تميم ، الذي قال :

(قد قلت فأحسنت ايها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثني حتى نبتلي) .

فقال زياد : صدقت .

ثالثاً : انموذج المتطرفين في الأمة ــ الخوارج ــ ونرى نموذجاً لهؤلاء ابا بلال مرداس بن اديّة الذي قال وهو يهمس :

(انبأ الله بغير ما قلت ، قال الله عز وجل : « وإبراهيم الذي وّفى . الا تزر وازرة وزر اخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فأوعدنا الله خيراً مما واعدت يا زياد)(١) .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٩ ، عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي ابن محمد (صدوق) عن مسلمة (مجهول) والهذلي (أخباري لين الحديث) .

وصدق أبو بلال بن اديَة . ولكن أنى للبشر ان يملك العدل التام الشامل .

ويعلم زياد ما وراء قول ابي بلال ، والتجمع الذي يمثل رأيه. فقال له وقد فهم كل منهما على صاحبه :

إنا لا نجد إلى ما تريد انت واصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء .

وإشارة زياد تعني انه لا بد من العنف والاخذ بالظنّة حتى يستقيم العدل فيما بعد ، وكان زياد كما قال ابن جرير :

أول من شدّ أمر السلطان ، واكد الملك لمعاوية ، والزم الناس بالطاعة .

وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف واخذ بالظنّة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً . حتى امن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها . وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وأدرّ العطاء وبنى مدينة الرزق .

وقيل لزياد : إن السبل مخوفة .

فقال : لا أعاني شيئاً سوى المصر ؛ حتى اغلب على المصر وأصلحه ، فإن غلبني المصر فغيره أشد غلبة .

فلما ضبط المصر تكلف ما سوى ذلك فأحكمه . وكان يقول :

(لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من اخذه) .

واستعان زياد بعدة من أصحاب النبي ﷺ ، منهم : عمران بن حصين الخزاعي ، ولاه قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري ولاه خراسان ، وسمرة بن جندب ، وانس بن مالك ، وعبد الرحمن ابن سمرة . فاستعفاه عمران فأعفاه . واستقضى عبد الله بن فَضالة الليثي ، ثم اخاه عاصم بن فضالة ، ثم زرارة بن أوفى الجرشي ، وكانت أخته لبابة عند زياد (١) .

وكان من مظاهر الملك لدى زياد : انه أول من سيّر بين يديه بالحراب ، ومشي بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطةخمسمائة، واستعمل عليهم شيبان صاحب مقبرة شيبان من بني سعد ، فكانوا لا يبرحون المسجد .

وبذلك اطمأن معاوية إلى المشرق الإسلامي الذي عاداه أربع سنين متواليات .

* * *

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤ عن عمر بن شبة عن علي بن محمد. وقد سبقت ترجمتهم .

قيادات بني أمية تحتج وتنذر

لا شك أن بني أمية قد وقفوا مع معاوية بكل ثقلهم في حربه مع علي رضي الله عنه. وعندما انتهى الأمر ببيعة أمير المؤمنين كانوا يتطلعون إلى قيادة الدولة بجانبه، وأن يكون لهم المواقع الأولى في السلطة. فهم شيعته ومحل ثقته وعندهم من الكفاءات والطاقات ما لا يقل عن غيرهم. وعلى رأس هؤلاء ثلاثة من ستة كانوا مرشحين عنده للخلافة بعده وهم:

كريم قريش سعيد بن العاص.

وفتى قريش دهاءً وحياءً وسخاءً عبد الله بن عامر.

والقارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله مروان بن الحكم[1].

ولم يكن بعيداً عن الساحة كذلك ولدا عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن عثمان وإبان بن عثمان.

وإذا بهم يواجهون بأن أعظم السلطات بيد الرجلين عمرو بن

---

(١) الثلاثة الآخرون كما سيأتي هم: الحسن بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

العاص وزياد بن أبيه. فالمشرق الإسلامي بيد زياد. والمغرب الإسلامي بيد عمرو.

تداعى بنو أمية إلى لقاء عاجل واجتمعوا في دار مروان بن الحكم.

لكن عبقرية معاوية كانت قد أدركت مثل هذا القلق. وقبل أن يتم مثل هذا اللقاء كان قد عهد بالمدينة لمروان بن الحكم. بصفته ممثلاً لهذه القيادات.

وولاية المدينة المنورة ليست بالأمر السهل. فجيل الصحابة والتابعين. وكرام الأمة وقياداتها وشخصياتها العلمية والسياسية والعسكرية في المدينة. وقبل أربع سنين أو خمس كانت هي العاصمة الكبرى لدولة الإسلام.

(فأتوا مروان بن الحكم في بيته، وقد كتب له معاوية عهده على المدينة وأمره أن يسير يومه ذلك فقال القوم:

يا مروان إنك شيخنا وكبيرنا، وقد ترى ما ركبنا معاوية من أمر ليس لنا عليه صبر ولا قرار، ولا ينام عن مثله الأحرار، إدخاله فينا مَن ليس منّا، يريد أن يدخله على حرمنا ونسائنا، وقد اجتمع رأينا على أن تأتيه فتعاتبه. فإن رجع قبلنا وإن أبى اعتزلنا.

فقال مروان: قد والله كلّمته في هذا الأمر غير مرة فلم يجبني إلى شيء مما أحب، بل يظهر لي التعتب والغضب. ويزعم أني في هذا الأمر أوحد.

فقال له سعيد بن العاص: يا مروان بل والله تحامي عن عهدك.

فقال مروان: والله لصلاحكم في فساد عهدي أحبّ إليَّ من

فسادكم في صلاح عهدي فاتوه فإنه رجل له إرب (دهاء) ونظر فكلّموه بملء أفواهكم).

ولقد أصاب معاوية مرماه، وجاء سهمه في مقتل. فأن يتخلّف مروان عن مشاركتهم في هذا الاحتجاج هو أول ثلمة ووهن في تحركهم للهدف الذي يريدون. وسواءً كان تخلّف مروان ليأسه من التغيير أم المحافظة على عهده في المدينة، فالقضيتان لصالح معاوية أمير المؤمنين. فهو لا يريد أن يبخس أهله حقهم. فيتخلوا عنه ويخذلوه. ولا يريد أن يطأ الناس بهم ويفسح لهم مجال الاستغلال والعلوّ على عباد الله.

فانطلق القوم فاستأذنوا على معاوية. فأذن لهم، فسلموا، فأحسن الرد وكان فيما قال: أهلاً وسهلاً، قرَّبَ الله الديار، وأدنى المزار، أزيارة فتخطى؟ أم حاجة فتقضى؟ أم سخطة فتُرضى؟

فقالوا: كلا يا أمير المؤمنين.

قال: هاتوا. فجلس القوم ومثَلَ عبد الرحمن بن الحكم بين يديه فقال:

يا أمير المؤمنين جاءتك عصابة من رهطك، وأحرار من أُسرتك، كلهم عارف بفضلك، راعٍ لحقك، تابع لأمرك، رافع لذكرك. في أمر ستره خير من نشره، وتركه خير من ذكره. لعظم البلية والخطيئة واللأواء والبلوى والآفات والعاهات، واعلم أنّا لم نأتك تجنياً ولا تجرماً ولا تعتباً. بل جئناك في أمر قد عجزت عن حمله الجُنُوب، وضاقت به القلوب. وكرهنا أن نطويه عنك، فيثبت ذلك في قلوبنا ما لا يحصد لإبانه، ولا يبيد لزمانه. فإن تأذن قبلنا، وإن تأب صمتنا. مع أنك إن رجعت إلى ما تحب حمدنا وشكرنا، وإن تأب ذلك سمعنا وأطعنا).

لئن غاب مروان بن الحكم عن شهـود المجلس. فهذا عبـد الرحمن بن الحكم أخوه. قد حضر وعبد الرحمن شاعر فحل. قد وضع كل ثقله وبلاغته وفصاحته بين يدي أمير المؤمنين معاوية ليثنيه عن رأيه. والفشل في الهدف هذه المرة هو فشل نهائي، فالوفد كله قدم والإذن إن تم. فقد لا يتم مرة ثانية.

وحرص عبد الرحمن أن يقدم الكثير عن الأمر الخطير الذي جاؤوا من أجله، ليستجمع قلب معاوية كله، وانتباهه كله. ويوضّح من جهة ثانية خطر ما جاؤوا من أجله. ومدى استفظاعهم له، واستهجانهم إياه.

لكن هل تزعزع بلاغة ابن الحكم هذا الجبل الأشم؟ لنر.

(فقال معاوية: هات لله أبوك.

قال: يا أمير المؤمنين إن أمية بن عبد شمس ولد عشرة ذكوراً. ولد حرباً وأبا حرب وسفيان وأبا سفيان، وعمراً وأبا عمرو، والعاصي وأبا العاص والعيص وأبا العيص. لم يلد عُبيد[1] مولى ثقيف، ولا العاص بن وائل. وقد جعلتها شعارك دون دثارك، بل سربالك دون إزارك، بل نفسك بين جنبيك، ثم لم ترضَ لابن عبيد حتى جعلته ابن أبي سفيان عضيهة لأبيك، وازدراء ببنيك، ومع أن في ذلك السخطة من ربك، والمخالفة لنبيِّك ﷺ إذ قضى بالولد للفراش، وللعاهر الحجر[2]،

---

(١) وُلِدَ زياد على فراش عُبيد مولى ثقيف. فكان يقال له زياد بن عبيد ثم استلحقه معاوية بأبيه.

(٢) الولد للفراش وللعاهر الحجر. أخرجه البخاري ٩/٢٠٤ والترمذي ١٠٣/٥.

فقضيت أنت بالولد ثم نسبت أباك عاهراً. وكان غنياً عن ذلك، فشهرت أمراً تريد أن تدخله على حرمك، وتمنح ولده غداً نساءك. ثم قال:

أتـرضى يـا معـاويـة بن حـرب
بـأن تحبـو كـرائمـك العبيـدا
كـأني والـذي أصبحـت عـبـداً
لـه بـالقـوم قـد شـركـوا يـزيـدا
فـإن تـرجـع فـمثلك زاد خيـراً
وإن تـأبى فـلم تـطع الـرشيـدا

وأما عمرو بن العاص فإنك ألزمت نفسك الحاجة إليه. فألزم نفسه الغنى عنك، وايم الله لنحن أنصع جيوباً، وأقل عيوناً، وأمسّ رحماً، وأوجب حقاً منه وما من أمر يبلغ فيه بنا عنه تقصير. غير أنك رفعت المرء فوق قدره، فطغى علينا بفخره، وزخر ببحره. حتى صار كأنه شيء وليس بشيء. وإنك وإياه وإيانا كما قال الشاعر الأول:

من النـاس مَن يصـل الأبـعـدين
ويـشـقـى بـه الأقـرب الأقـرب)

لقد كانت جرأة ابن الحكم لا حدّ لها بين يدي معاوية، وتجاوز كل المخاوف وهو يفضي عمّا في نفسه. ولولا اعتماده على ما اشتهر به معاوية من حلم، لما اقتحم هذه المهلكة. فلم يترك باباً إلا طرقه، ولا منفذاً إلا دخله ليحطم هذين الرجلين بين يدي معاوية، والذي جعل ظهره قوياً لذلك أن أشراف بني أمية وراءه جميعاً، لم يتخلّف منهم رجل واحد. ولقد اعتمد العصبية القبلية وأثارها من قبرها الهاجعة فيه،

فأعادها حيّة تجأر وتثأر. وغمز من قناة معاوية في رفعه لنَسب زياد أن يزوِّجه من كرائم بني أُمية غداً هو وولده. وهو ابن سفاح وليس ابن نكاح. ونال من عمرو، وصغّر من شأنه. وأنه لم يبلغ هذا المقام بكفاءته بمقدار ما ناله من رفع معاوية له. ثم عرج على الجانب الإسلامي واعتبر استلحاق زياد معصية لله سبحانه، مع أن ابن الحكم هذا كان لا يتورع في هجائه عند حد.

وحقيقة الأمر لو كان غير معاوية لأسقط في يده فكراً بما ساقه ابن الحكم من حجج، وأسقط في يده عاطفة وهو يرى احتمال انشقاق قبيلته عنه وتخلّيها عن عونه، وخضع لمثل هذا الابتزاز الرهيب.

ثم ثنى السيد الثاني في بني أُمية سعيد بن العاص. فانبرى يقول:

(يا أمير المؤمنين: إن خير القول أصدقه، وأشد القول أملقه، وإن الحق الأبلج أقوم إلى طريق النهج. وإنك قد أتيت أمراً عظيماً ناهياً متبايناً تابعت فيه، وركبت في ذلك عقبة كؤوداً، صيخدا[1] صيخوداً في تنائف[2] لا يهتدى فيها بدليل، ولا يؤم فيها قصد سبيل. قصَّرت في ذلك برأيك، وأزريت بأبيك فإن ترجع قبلنا، وإن تأب غضبنا. فارجع إلى الله تباركت أسماؤه، وانظر ما الذي أقدمت عليه من أنك عمدت إلى امرىء لا رحم بينك وبينه ولا هوادة. وإنما عهدك به بالأمس وهو عامل علي بن أبي طالب يلعنك ويلعن أباك وأهل بيتك على المنبر، يتأول فينا القرآن، ويقول البهتان، وقد كنت تجتزىء من ذلك إذا عظمته أن تجعله وزيراً وخلصاناً فلا يعاب ذلك عليك، ولا ينسب الخطأ إليك. فلم

(١) الصيخود: الشديدة.

(٢) تنائف: واحدتها تنوفة وهي الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

يرض حتى نسبته لأبي سفيان؛ إلى نسب إن يقبل منه عيِّرت به آخر دهرك. وإن رُدَّ عليك أزريت به، وصدقت في ذلك قول الشاعر حيث يقول[1]:

ألا أبــلغ مــعــاويــة بــن حــرب
مـغلغـلة[2] من الـرجـل اليمـاني
أتـغـضـب أن يـقـال أبـوك عـفٌّ
وتـرضـى أن يـقـول أبـاك زان
فـأشـهـد أن رحـمـك مـن زيـاد
كـرحم الفيـل من ولـد الأتـان[3]

وايم الله لكأني أنظر إلى ولده من بعده قد تفخذوا نساء بني عبد شمس بنسب أبي سفيان. فهذا ما وصلت به كرائمك من بعدك. وأما عمرو بن العاص فإنك آثرته علينا، وأدنيته دوننا، ونحن في حالٍ وعمرو في أُخرى. أما نحن فنعامل الناس بالوفاء والحياء، وعمرو يعامل الناس بالمكر والخداع. ومَن كان كذلك فلا وفاء له، وقد تبين لأمير المؤمنين غشّه إياه في بعض الحالات. فليس ينبغي لمن غش أولاً أن يقبل منه آخراً)..

ومع أن لهجة سعيد كانت أخفّ حنقاً من لهجة ابن الحكم. لكنها

---

(١) الأبيات ليزيد بن مفرغ الحميري ويقال إنها لعبد الرحمن بن الحكم.
(٢) مغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.
(٣) الأتان: أُنثى الحمار.

كانت تحمل في ثناياها نقداً لاذعاً، وتهديداً خفياً كما يقول:

(فإن ترجع قبلنا، وإن تأب غضبنا)

وليس سهلاً على معاوية غضب أعمدة عشيرته منه.

وهو حين يذكِّرُه بالله لا ينسى أن يثير فيه نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء (وايم الله لكأني أنظر إلى ولده من بعده قد تفخذوا نساء بني أُمية).

ولا ينسى أن يثير الإحن القديمة يوم أن كان زياد عدواً لدوداً له. وشخصية سعيد ودعاءه لا يتناسب معها هذه الإثارة الخبيثة. فليس ينقص من قدر معاوية أن استطاع أن يستلّ بغضه من قلب عدوه اللدود له، وأن يسخِّره لصالح الأُمة والجماعة. وقد أدرك سعيد ذلك، وسرعان ما تدارك هذه السقطة. واعتبر اتخاذ عمرو وزيراً لمعاوية لا تنقص من قدره. إنما مضى ليلحّ على استلحاقه بنَسَبه. وهيَّج نخوة معاوية في لحاق العار له بزنا أبيه، ثم ثنى بعمرو بن العاص، فنال من إخلاصه لمعاوية، وشكّك في وفائه له، بينما هو وقادة بني أُمية لا يتطرق الشك بإخلاصهم ووفائهم له، فالحكم حكمهم، والدولة دولتهم.

(ثم دخل مروان عند جلوس القوم فقال معاوية: هيه يا مروان أعَنْ رأيك صدر هؤلاء حتى أسمعوني ما أكره؟

قال: يا أمير المؤمنين هل تدري ما مثلَنا ومثَلَك؟

قال: هات تخطيطاً كتخطيط أصحابك.

قال: إن عديّ بن زيد العبادي نصح النعمان بن المنذر، وقدّمه على إخوته وأشار على كسرى بولايته. فكان جزاؤه منه أن حبسه في السجن. فكتب إليه وهو محبوس:

أبا منذر جازيت بالودّ بغضة
فماذا جزاء المبغض المتبغض
مجازاته في ذا المثال كراهة
ولست لشيء بعد بالمتعرّض

واعلم أنّا غير متعرضين لشيء من معاتبتك في هذا الأمر بعد اليوم. فإن ترجع قبلنا، وإن تأب سخطنا. مع أنك ـ والله يا أمير المؤمنين ـ لو قدرت أن تتكثر بالذبح على آل أبي العاص لفعلت توحشاً منك لعددهم، وتكرّهاً منك لجمعهم، وتبرماً منك بهم. وايم الله ما ذاك جزاؤهم منك، لقد آثروك وأكرموك فما كافيت ولا جازيت ولا آسيت).

إن معاوية بن أبا سفيان أمام تهديد سافر بتخلّي عشيرته عنه وغضبهم منه. فهل يخضع لهذه الضغوط، ويقصي هذين الرجلين حفاظاً على ودّ عشيرته، ونصرتها له؟ إنه وهو يسمع لهم يستعرض بذهنه خريطة العالم الإسلامي كله والذي أصبح في عُهدته. فهل يثيرها عصبية أموية. وبالتالي كلما خضع لضغط لا بدّ أن يخضع لضغط آخر بعده. حتى يصبح أسيراً لهم يتحكمون به كما يشاؤون وشخصيات العالم الإسلامي، وقياداته، ورجالات بني هاشم، وبني مخزوم، والبقية الباقية من قريش، ماذا يفعل بهم؟ هل يثير هؤلاء جميعاً ضده؟

إنه لو قبل هذه الضغوط. فهذا يعني أنه لا يملك حرية الاستفادة من الطاقات الضخمة في الدولة الإسلامية. ولن يتمكّن من تقريب أحد إلا من عشيرته الأدنين. إنه بين نارين وخطرين.

بين نار تخلي رجالات بني أُمية عنه، وهذا قصم لظهره، وتركه في

العراء دون نصير في الوقت الذي تعتلج عشرات القلوب ببغضه من بني هاشم وشيعة علي، والخوارج فهولا يطمئن لهؤلاء أن يقود بهم دولته.

وبين نار وقوعه في براثن رجالات بني أُمية، ولن يفلت بعد من قبضتهم، وسيضطر إلى نصرهم في الحق والباطل، أو يتوعدونه بالتخلّي عنه، وهو بحاجة إلى الأكفّاء من الأُمة مهما كان مشربهم ونسبهم.

هنا تتجلى عبقرية معاوية رضي الله عنه في حساب هذه التوازنات جميعاً في الأُمة وعلى طبيعته وسجيته. فلن يترك المجال لغضبه وثورته أن تتحكم في الأمر.

لقد سمع كل ما أفرغوه من جعبتهم نحوه (وقام فدخل المنزل وأطال المكث) إنه لا يرضى أن يتخذ موقفاً انطلاقاً من نزوة عارضة أو انفصال طارىء.

كما قال عن دهائه لعمرو بن العاص:

(لكني ما دخلت في شيء قطّ وأردت الخروج منه)..

فلم تتمكن كل تلك الإثارات أن تدفعه لموقف عاجل يندم عليه. بل مضى، وترك قومه وما يقررون، وراجع كل ما سمع، واستعرض الأحداث والمواقف والرجال والاحتمالات. وقلّب كل وجوه النظر، وخرج في موقف محدد واضح لمواجهة هذه الأزمة العنيفة والتي تستعصي على جهابذة الرجال.

وثم خرج قاطباً ما بين عينيه يمسح عارضيه[1]، ثم جلس على

(١) العارضان: جانبا الوجه وصفحتا الخد.

سريره واستقبل القوم، وأنشأ يقول:

أمـا والـذي نـادى من الـطور عبـده
نـداءً سميـعـاً فـاستـجـاب وسـلما
لقـد كـدت لـولا الله لا شيء غـيـره
تـبـارك ربي ذو الـعـلى أن أصـمـا
ولـكـنـني رُوِّيـت في الحـلم والـنهـى
وقـد قـال فيـه ذو المقـال وأحكـما)

عرف معاوية أن الثلاثة قد صدروا عن معنىً واحد وهو النّيْل منه لموقفه من زياد واستلحاقه له بالنَسَب. فعالج هذه القضية من كل جانب، وسدّ عليهم كل المنافذ من خلال عرض محكم متسلسل.

(وايم الله مع ذلك لقد قطعتم من زياد رحماً قريبة، ونفساً حبيبة، وقلتم البهتان في غير ما تثبت ولا بيان. وإني لعلى يقين من أمري).

فإذا كان الأمر عندهم هو تعيير أبي سفيان بالزنا.

(ولقد وضع الله ما كان من الجاهلية من البغي والحمية، وطلب التراث، وذكر قبيح الأمهات فسفك الدماء، والشرك برب السماء أعظم مما كان فيه أبو سفيان).

وما كان الزنا في الجاهلية عاراً يعيّر به الرجل. وليس بعد الإشراك بالله عار. فما يسقط من مقام أبي سفيان أن يذكر بأمر كان في الجاهلية. والإسلام جبّ ما قبله ثم عرّج على الدوافع العميقة التي دفعتهم لهذا الموقف، وأنه ليس رضا الله هو الهدف.

(وايم الله ما إياه راقبتم، ولا لي نظرتم. بل أدرككم الحسد

القديم لبني حرب بن أُمية). ها هو يضرب على وتر جديد يكشف فيه مخبوءاً عند عشيرته. ألا وهو حسد معاوية بالذات، أو بتعبير أدق حسد بني أبي العاص بن أُمية لبني حرب بن أُمية.

ثم ها هو يعرض بهم بتنفيذ حدّ الله فيهم فيما يفترون على معاوية، وما يتهمونه به من عدم الغيرة على عرضه ونسائه، وما يثيرونه من حمية الجاهلية.

(وإن نفسي لتؤامرني أن أُقيم فيكم حدّ الله، وما أراه يسعني غير ذلك) ثم ترتفع لهجة التهديد إلى الذروة.

(ولئن عدتم إلى ما أرى، وجاءني من وراء ما أكره لأنهلنّكم[1] صاباً[2]، ثم لأعلنكم[3] علقماً، ثم لأوردنّكم حياضاً مريراً طعمها، ثم لا تتركون بغير كرعها وإن جاءكم الموت من كل مكان حتى تعلموا مع طول علمي أن قد مُنِّيتم بمَن إن حزَّ قطع وإن همز أوجع، ثم لا تقبل عندي لكم العثرات، ولا تعفى لكم السيئات، ثم ليستصعبن عليكم ما كان عندي سهلاً، ولتتركن ما كان هيناً. . .).

وظاهر الأمر أنه قطع ما بينه وبينهم من أوصال، وحكم بالقطيعة. لكن له جولات وجولات.

والجولة الثانية عنده هي أن لا يدعهم يمضون وهم يشعرون بهزيمته إذا تخلّوا عنه، أو أنهم قادرون على إسقاطه إذا ابتعدوا عنه.

---

(١) النهل: أول الشرب.
(٢) الصاب والعلقم: الشراب المرّ.
(٣) العل: الشربة الثانية.

(فأما ما ذكرتم أني أصبت السلطان والمُلْك بحقكم ونسبتكم فوالله إنكم لتعلمون يا آل أبي العاص أن عثمان بن عفان ـ رحمة الله عليه ـ قُتل وأنتم حضور وأنا غائب. فوالله ما كان فيكم مَن مدّ باعاً ولا بسط ذراعاً. بل أسلمتموه للحُتوف وشمتم[1] من بعده السيوف. فما نصرتموه ولا آسيتموه، ولا منعتموه بأكثر من الكلام فما أبليتم بذلك عذراً ولا ألهبتم ناراً. وإن جميع مَن ألَّب عليكم وأجلب لبسببكم وإيثاره إياكم، وبذلك قطعت أوداجه[2] على أثباجه[3]، وسفك دمه واستحلّت حرمته فما شببتم فيه ناراً ولا طلبتم ثأراً. . .).

وإنه لتقريع أيّ تقريع فهو من جهة تعيير لهم بتخاذلهم عن نصرة عثمان رضي الله عنه وهو أقرب منهم رحماً. فهو من آل أبي العاص بن أمية وليس من ولد حرب بن أمية ومن جهة أخرى فهو نيل منهم كذلك أنهم إن عجزوا عن نصرة عثمان فهم أعجز من أن يهزّوا كيان الدولة الإسلامية إن تخاذلوا عن معاوية.

ثم مضى في جولة ثالثة؛ وبحصافة وصراحة متناهيتين يبرز لهم الأهوال التي خاضها والمراكب الصعبة التي ركبها في حرب علي رضي الله عنه، ووجدها فرصة سانحة يثني فيها على خصمه بما لم يسمع منه إلا في مثل هذا الموقف.

(. . . حتى كنت أنا الطالب بالتراث، المثكل للأُمهات، ولقد منيت من الطلب بدمه بحرب امرىء لا تخور قناته، ولا تتصدع صفاته،

---

(1) شمتم: أغمدتم.
(2) الأوداج: عروق في العنق.
(3) الأثباج: واحدها الثبج وهو ما بين الكاهل إلى الظهر.

من إذا فزعتُ لم يفزع، وإن أُطمعتُ لم يطمع. مَن لا يطمع في قراره، ولا يُنام من حذاره. بليت ـ والله ـ بليث ثابتة أنيابه، قليل غُلابه مصمم غضوب، شثن مهيب[1]. فلم أزل له ولأصحابه صابراً حتى قضى الله منه ما أحبّ. وهو الحاكم في ملكه بما يشاء تبارك وتعالى. فأدركت بالثأر إذ لم تدركوا، وصبرت إذا لم تصبروا. . .).

ولا شك أنه كلما كان القرن المناجز قوياً وشجاعاً كلما كان النصر أضخم. وما ساق معاوية هذه الأمور بقصد الفخر والثناء على علي فقط. ولكنه يريد أن يصل إلى هدف محدد، وأن يوضّح فكرة غاية في الأهمية بالنسبة لهم وله. إنه يودّ أن يؤكد أنه لم يستمدّ سلطانه منهم، أو عزته وقوته من قوتهم. إنما وصل إلى ما وصل إليه بصبره وجَلَده وجهاده وحكمته، وتأدب مع ذلك، فلم يعتبر انتصاره على علي رضوان الله عليه عائداً إلى قوته وشجاعته فيزدهيه الغرور بذلك، إنما اعتبر الأمر إرادة ربانية أن يؤتي الله المُلْك مَن يشاء، وينزعه ممّن يشاء خاصة وهو يعرف أنه لم يستطع أن يحسم الأمر مع أمير المؤمنين علي في معركة، ولم يهزمه في موقعه، ولم يكن قتله بتخطيطه، وكل ما أعانه في ذلك هو تنازل الحسن رضوان الله عليه عن الأمر له. ولا شك أنه من تمام مروءة الرجال أن يعرف الحقوق لأصحابها. وأن يقدّر بطولة علي رضي الله عنه وصولاته، ولو كان خصمه الألدّ.

وها هو قد استطاع في الجولة الأخيرة أن يصرع أنداده من بني أُمية بالحجة والبيان، ويتغلب عليهم عقلياً ونفسياً من خلال ما رسم وخطط.

---

(١) شثن: خشن غليظ الكف.

(... فأيّنا أحقّ بالشكر أنا لكم أم أنتم لي)..

وبهذه البلاغة الرائعة أعاد الكُرة إلى مرماهم. وهيهات أن يقدروا الدفاع. (وقد كانت تبلغني عنكم هنات قبل مخضة زبدتكم. كل ذلك أتعطف عليكم بحلمي وأتحنّن عليكم بجهدي، وكنت في ذلك كما قال أخو بكر بن وائل:

أعـوذ عـلى ذي الـذنب والجهـل منكم
بحلمي ولـو عـاقبت غـرَّقكم بحـري
فـما بـال مَن يسـعى لأجبـر عـظمـه
حفـاظاً وينـوي من سفاهتـه كسـري

والله ما رأيتني قطُّ إلا ونفسي تدعوني إلى الحلم قبل ساعتي هذه. فالحمد لله الذي كفاني شرّ ما دعتني إليه نفسي. ثم قال:

أولى ثم أولى، أما إني في وعيدي إياكم كما قال الأول:

لـقـد كـدتمُ يـا آل بـكـر سفـاهـة
تثيـرون مني أعصـل[1] النـاب ضيغـما
هـزّ بـرأ هـريتـاً[2] يكـره القـرن قـربـه
إذا صـال مـن بعـد الـزئـير وصـمـا

وها هو يصرعهم في الجولة الأخيرة، ثم يدعو عمرو بن العاص ليجهز عليهم ويذفف عليهم.

---

(١) أعصل الناب: معوج في صلابة.
(٢) هريتاً: مهيباً.

(. . . وأما عمرو بن العاص فها هو حاضر فإن شاء أن يجيب عن نفسه فليفعل وإن شاء أن يدع فليدع، أما إني أرضاه للخصم إذا جمح، وللقرن إذا طمح.

فقام عمرو بن العاص ماثلاً بين يديه فقال:

يا أمير المؤمنين أنا الذي أقول بصفِّين:

إذا تخازرت وما بي من خزر[١]
ثم كسرت العين من غير عور

ألفتني ألوي بعيد المستمر
أحمل ما حملت من خير وشر

إني والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بالغرّ[٢] ولا الغمر[٣]، ولا الضرع[٤] ولا الورع[٥]، ولا الواني ولا الفاني، وإني لأنا الحيّة الصمّاء التي لا يُبَلُّ[٦] سليمها، ولا ينام كليمها[٧]. وإني أنا المرء إن كُويت أنضجت، وإن همزت كسرت. فمَن شاء فليشاور، ومَن شاء فليؤامر).

---

(١) الخزر: النظر في مؤخرة العين أمارة الغضب.
(٢) الغر: الشاب الذي لا تجربة له.
(٣) الغمر: لم يجرب الأمور.
(٤) الضرع: الضعيف.
(٥) الورع: الجبان.
(٦) يُبَلُّ: يشفى.
(٧) كليمها: جريحها.

كان هدف معاوية من كلام عمرو متعدّد الجوانب. فهو يودّ منه أن يدافع عن نفسه وقد ظلم، كما يودّ أن يريَ قومه طاقاته وإمكاناته. ويودّ من وراء هذا كله المشاركة معه في غزو القوم، وتأكيد معاني قوته وسلطانه.

(... مع أنهم يا أمير المؤمنين لو عاينوا من يوم الهرير ما عانيت، أو ولّوا مثل ما وليّت، إذ شدّ علينا أبو حسن في كتائبه مع أهل البصائر، وأبطال العشائر، فهناك يا أمير المؤمنين شخصت الأبصار، وارتفع الشرار، وقلصت الخصي إلى مواضع الكلى[1] وقارعت الأمهات عن ثكلها، وذهلت عن حملها، واحمر الحدق، واغبرّ الأفق، وألجم العرق وارتفع غبار القتام[2]، وصبر الكرام وغاض اللئام وذهب الكلام، وأزبدت الأشداق، وقامت الحرب على ساق، وحضر الفراق، وكثر العناق، وبانت الأعناق، وقامت الرجال على ركبها[3] بعد فناءٍ في نبلها، وتقصف في رماحها، فلا يسمح إلا التغمغم في الرجال والتحمحم[4] في الخيل، ووقع السيوف في الهام. فدار يومنا ذلك حتى طفقنا الليل بغسقه ثم انجلى الصبح بفلقه ولم يبق من القتال إلا الهرير[5] والزئير. أما والله لعلموا أني أعظم غناءً، وأحسن بلاءً، وأصبر على اللأواء منهم، وإني كما قال الشاعر:

---

(١) قلصت الخصي إلى مواضع الكلى: كناية عن الخوف.

(٢) القتام: الغبار الأسود.

(٣) قامت الرجال على ركبها: كناية عن الالتحام المباشر بالسيوف.

(٤) التحمحم: صوت صهيل الخيل.

(٥) الهرير: من أيام صفين وهو صوت الكلب دون نباحه.

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها
ولو قلتها لم أبقِ للصلح موضعا

فإن كان عودي من نضارٍ[1] فإنني
لأكره يوماً أن أُحطم خروعا[2]

ولئن جعلني أمير المؤمنين شعاره دون دثاره، أو سرباله دون إزاره، أو نفسه بين جنبيه، لقد أوليت ذلك فوجدته شكوراً ذكوراً، إذ لم تشكروه ولم تذكروه ولا إياي إذ طلبنا بدم عثمان إذ لم تحسبوه، وبلغنا الغاية إذ لم تبلغوا، وإذ جحدتم أمير المؤمنين فأنتم للنعمى أنكر وأكفر.

وأما ما زعمت يا سعيد بن العاص[3] أني أُعامل الناس بالمكر والخداع فإني أنال بالأدب واللبّ، والرفق والصدق، إذ خرق مَن لم يرفق، وخاب مَن لم يصدق.

وأما قولك أني غششت أمير المؤمنين فما غشّ امرؤ كريم امرأً كريماً، إن دعا إلى النصف أن يقبله، وإنك في قولك لأمير المؤمنين لأهل للتضعيف والتعنيف، والغضاضة والمضاضة، غير أن حلمه يأتي ما وراء ذلك كله. وإني أسألك يا أمير المؤمنين أن تعفو للقوم ما قالوا إن هم آلوا لاستتمام نعمتك عليهم، وأياديك عندهم، فليسوا راجعين إلى أمر تكرهه إن شاء الله.

---

(١) عود من نضار: عود من أثل بغور الحجاز وهو قوي.
(٢) الخروع: كل نَبْت ضعيف يتثنى.
(٣) لا بدّ من الملاحظة أن عمرو بن العاص ليس من بني أُمية ولكنه من بني سهم وكانوا أقل شأناً من بني أُمية.

قال معاوية: قد فعلت يا أبا عبد الله.

ودخل، وأمر القوم فانصرفوا»[1].

وهل انتهى الأمر يا تُرى بهذه الصورة بينه وبين قادة بني أُمية؟

إن خسارة واحد من هذين الرجلين الكبيرين خسارة لا تعوّض. وكان معاوية رضي الله عنه يدرك هذا المعنى أيما إدراك. وقد رأينا كيف أنه رمى المدينة بمروان بن الحكم، ومَن يستطيع حكم المدينة غيره، وغير صاحبه سعيد بن العاص؟

تُرى هل يغيِّر معاوية نهجه فيعزل مروان عن المدينة بعد تلك المواجهة العنيفة؟! أبداً، لقد عاد فأكد ولاية مروان بن الحكم عليها. وكان هذا الأمر يعني استجابة غير مباشرة لاحتجاج قادة بني أُمية. وبلغ به الدهاء مبلغاً أعظم. أن صار يراوح بين الرجلين سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم في إمرة المدينة، وكما ذكر ابن كثير عن سعيد (وولّاه المدينة مرتين، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم)[2].

ولا أدلّ على مستوى التنافس بين الرجلين من هذه المحاورة بين سعيد ومعاوية.

معاوية: كيف تركت أبا عبد الله (يعني مروان).

---

(١) ورد هذا النص بكامله في كتاب الموفقيات للزبير بن بكار. ورواته الزبير (ثقة أخطأ السليماني في تضعيفه) عن أبي الحسن الأثرم (فيه لين) عن أبي عبيدة معمر بن المثنى (صدوق أخباري).

(٢) البداية بوالنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٨٧.

قال: تركته منفِّذاً لأمرك مصلِحاً لعملك.

قال معاوية: إنه كصاحب الخبزة، كفي إنضاجها فأكلها.

قال: كلا يا أمير المؤمنين إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا.

قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟

قال: خفته على شرفي، وخافني على مثله.

قال: فأيّ شيء كان له عندك؟

قال: اسوؤه حاضراً، وأسره غائباً[1].

وقد أثبت الرجلان جدارة وكفاءة عالية في ولايتهما. والمدينة مصانع الرجال ومعاقل الأبطال. تكاد لا تجد فيها إلا شريفاً أو قائداً. من المهاجرين والأنصار وذراريهم.

وحرص معاوية على الاستفادة من كل الطاقات في الأُمة دون أن يكون لأحد سيف مصلّت عليه، بل الجميع يتسابقون في طاعته.

غير أنه كان يرفض زعامة فارغة. فهذا أخوه عنبسة بن أبي سفيان، كان له ثأر عند عبد الله بن خالد بن أسيد، وقد أخذ عبد الله ألفي درهم بعد ولايته ومضى إلى مكة، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يمتحن مروءة عنبسة، فقال له:

قد ولّيتك على الحجاز (حيث يقيم عبد الله).

فتهيأ عنبسة ثم دخل عليه يودعه فقال له: ما أنت صانع بعبد الله بن خالد؟

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

قال: أضرب والله بيده وجهه. فقال معاوية:

بئس ـ والله ـ ابن العشيرة، أنت تصنع بعبد الله هذا؟، والله لقد كنت عليه حنيقاً مغتاظاً وقد عطفني عليه ما سمعته من عنفك به، هي والله له، ولا كتبت إليك في شيء منها أبداً، قد عزلتك عن عملك.

* * *

معاوية وأشراف أهل البيت

هذا موقف معاوية رضي الله عنه من أهل بيته وشيعته. لكن ما هو موقفه من أشراف بني هاشم وأهل بيت رسول الله ﷺ، وشيعة علي بن أبي طالب؟

إن الحكم العضوض الذي نعرفه يستأصل دائماً شأفة أعدائه ومنافسيه. وكثيراً ما يستقر الحكم على جماجم هؤلاء الأعـداء والخصوم. فأين نرى شخصية معاوية رضي الله عنه في هذا الميزان؟.

لقد كان معاوية ملكاً حقاً. لكنه كان يملك من العبقرية والكفاءة ما يجعله خليقاً بهذا المُلْك، ولم يعتمد البطش والإرهاب سبيلاً لسيطرته واستتباب حكمه، بل كانت السياسة الرشيدة العاقلة الحكيمة التي اختطّها هي التي حفظت له هذا المُلْك عشرين عاماً دون منازع. ولا أُبالغ إذا قلت إن نهج معاوية في هذا الشأن هو قبس من نهج النبوّة. فكان غزو القلوب والإحسان إليها هو الأصل، مع الوعي والحذر الشديدين أن لا تنتفض الأُمه عليه.

لقد كان يبذل المال بلا حساب لهذه القيادات، ويعتبر أن عليها

مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأُمة، فلا بدّ أن تكون مليئة لتسد الخلّة، وتلبّي الحاجة، وتحلّ المعضلة. ولعلّ أشراف بني هاشم كانوا في هذا الصدد أكثر قيادات الأُمة إغداقاً عليهم بالمال، ولا بدع، فهم لا يزالون في عُرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأُمة، وتلجأ الأُمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأُمراء.

هذا من جانب. أما من جانب آخر، فلم يشارك من هـذه القيادات أحد في الحكم. إنها كانت تمثل حزب المعارضة، ولا ترتاح للمشاركة في الحكم تحت قيادة معاوية. والحفاظ على وحدة الأُمة هو الذي ألجأها إلى قبول معاوية أميراً للمؤمنيـن ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا شخصية زياد بن أبيه الذي ضمّه معاوية إلى حزبه حين استلحقه بنسبه.

فكل الذين شاركوا في حرب معاوية أربع سنين متواليات، لا يتصوّر أن يشاركوا معه في الحكم من الناحية النفسية، ومن الناحية السياسية غير مؤهلة للمشاركة مع النظام الحاكم، لكنها انتهت إليها السيادة الشعبية.

ولنلق نظرة على هذه الشخصيات:

الحسن بن علي، الحسين، عبـد الله بن عباس، عقيـل بن أبي طالب، عبد الله بن جعفر، عبيد الله بن عباس.

هذا الحسن يغادر الكوفة بعد تنازله لمعاوية رضي الله عنهما (ومعه

أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمِّهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة)[1]. وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النِعَم عليه. وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس أن يحطمونها مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما. وكان ابن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسين بن علي، وقال غيره: كان الحسن بن علي إذا صلى الغداة في مسجد رسول الله ﷺ يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه مَن يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده، ثم يقول فيدخل على أُمهات المؤمنين فيسلم عليهنّ، وربما أتحفنه ثم ينصرف إلى منزله. ولما نزل لمعاوية عن الخلافة من ورعه صيانة لدماء المسلمين، كان له على معاوية في كل عام جائزة، وكان يفد إليه، فربما أجازه بأربعمئة ألف درهم، وراتبه في كل سنة مائة ألف. فانقطع سنة عن الذهاب، وجاء وقت الجائزة فاحتاج الحسن إليها ـ وكان من أكرم الناس ـ فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه، فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله في المنام فقال له: يا بني أتكتب إلى مخلوق بحاجتك؟ وعلّمه دعاء يدعو به، فترك الحسن ما كان همّ به من الكتابة، فذكره معاوية وافتقده، وقال: ابعثوا إليه بمائتي ألف فلعل له ضرورة من تركه القدوم علينا، فحملت إليه من غير سؤال.. قالوا: وقاسم الله ما له ثلاث مرات، وخرج عن ماله مرتين، وحجّ خمساً

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٠.

وعشرين مرة ماشياً وإن النجائب[1] لتُقاد بين يديه[2].

هذا هو زعيم المعارضة في المجتمع الإسلامي، الحسن بن علي رضي الله عنهما، وهذه هي مواصفاته، وهذا موقف معاوية منه. فأيّ مجتمع هذا الذي تسوده هذه العلاقات بعد حرب ضروس استمرت أربع سنين متواليات؟!

لقد كان الحسن على عهده الذي هو فيه أميراً غير متوّج تفد إليه السادات من كل مكان، ويقصده طلاب الحاجات من كل صقيع. وأشدّ ما وقع بينه وبين الحاكمين ما رواه محمد بن إسحاق قال: (ما تكلم عندي أحد كان أحبّ إليّ إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قطُّ إلا مرة، فإنه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومة. فقال: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه، فهذه أشدّ كلمة فحش سمعتها منه قطُّ.

وعن رزين بن سوار قال: كان بين الحسن ومروان خصومة فجعل مروان يغلظ للحسن وحسن ساكت. فامتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن: ويحك! أما علمت أن اليمنى للوجه، والشمال للفرج؟ أُفٍّ لك، فسكت مروان.

---

(١) النجائب: النوق.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨، ص ٣٨ و٣٩.

وقال جويرية بن أسماء: لما مات الحسن بكى عليه مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟ فقال: إني كنت أفعل إلى أحلم من هذا. وأشار إلى الجبل[1].

وعن جابر قال: شهدنا حسن بن علي يوم مات وكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي ومروان بن الحكم. وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يدفن مع رسول الله ﷺ فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليدفن بالبقيع. فأبى مروان أن يدعه.. قال جابر فكلّمت يومئذ حسين بن علي فقلت: اتق الله ولا تُثر فتنة، فإن أخاك كان لا يحبّ ما ترى، فادفنه بالبقيع مع أُمه ففعل[2].

وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام[3].

بعد وفاة الحسن رضي الله عنه آلت زعامة المعارضة إلى أخيه الحسين رضي الله عنه، ولم تتغير سياسة الدولة معه.

فعن بريدة قال: قَدِمَ الحسن بن علي والحسين فأجازهما على الفور بمائتي ألف وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي، فقال له الحسين: ولم تعط أحداً أفضل منّا.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٦.

أما ابن عباس رضي الله عنهما فقال:

(دخلت على معاوية حين كان الصلح وهو أول ما التقيت أنا وهو، فإذا عنده أُناس فقال: مرحباً بابن عباس، ما تحاكت الفتنة بيني وبين أحد كان أعزَّ عليَّ بُعداً ولا أحبّ إليَّ قُرباً منك، الحمد لله الذي أمات عليّاً، فقلت له: إن الله لا يذمّ في قضائه، وغير هذا الحديث أحسن منه، ثم قلت له: أُحب أن تعفيني من ابن عمّي، وأعفيك من ابن عمّك، قال: ذلك لك)[1].

(ثم وفد على معاوية فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظّمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية، فعزّاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس ردّاً حسناً[2]، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس)[2].

أما تعزية معاوية رضي الله عنه وإجازته لابن عباس. فكما رواها قتادة (.. ثم قال لابن عباس: لا يسؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨، ص ٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه ٣٠٧/٨.

فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء، وقال: خذها فاقسمها في أهلك)[1].

أما كيف كان ابن عباس يقود الأُمة فنستمع إلى ما رواه أبو صالح عنه قال:

(لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها به الفخر، لقد رأيت الناس اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر أن يجيء ولا أن يذهب قال، فدخلت عليه، فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وضوءاً، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: مَن كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أُريد منه فليدخل، قال فخرجت فآذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحُجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثله ما سألوا عنه وأكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل مَن أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، قال فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحُجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله أو أكثر ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: مَن كان يريد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها، فليدخل، فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة. فما

(١) المصدر نفسه ٨/ ١٤٠.

سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثله أو أكثر. ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: مَن كان يريد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب في الكلام فليدخل، فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله. قال أبو صالح: فلو أن قريشاً كلها فخرت بذلك لكان فخراً. فما رأيت مثل هذا لأحدٍ من الناس)[1].

هذا مع الأُمة... وحتى مع أمير المؤمنين فهو مصدر العلم الذي يفيء إليه.

(فعن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن أحبِّ الكلام إلى الله عزّ وجل، ومَن أكرم العباد على الله عزّ وجل، ومَن أكرم الإماء على الله عزّ وجل، وعن أربعة فيهم الروح فلم يركضوا في رحم، وعن قبر سار بصاحبه، وعن مكان في الأرض لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة، وعن قوس قزح ما هو؟ وعن المجرّة.

فبعث معاوية فسأل ابن عباس عنهنّ فكتب ابن عباس إليه:

أما أحبّ الكلام إلى الله فسبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأكرم العباد على الله، آدم، خلقه

---

(١) المصدر نفسه ٨/٣٠٥.

بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، وأكرم الإماء على الله مريم بنت عمران وأما الأربعة الذين لم يركضوا في رحم فآدم وحواء وعصى موسى وكبش إبراهيم الذي فدى به إسماعيل ـ وفي رواية ناقة صالح ـ وأما القبر الذي سار بصاحبه فهو حوت يونس، وأما المكان الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فهو البحر لما انفلق لموسى حتى جاز بنو إسرائيل فيه، وأما قوس قزح فأمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرّة باب في السماء (وفي رواية) الذي ينشقّ منه)[1].

* * *

أما أخوه عبيد الله بن عباس، فهذه لمحة عن شخصيته..

(وكان يقدّم هو وأخوه عبد الله المدينة، فيوسعهم عبد الله علماً، ويوسعهم عبيد الله كرماً. وقد روي أنه نزل في مسير له مع مولىً له على خيمة رجل من الأعراب، فلما رآه الأعرابي أعظمه وأجلّه، ورأى حُسنه وشكله، فقال لامرأته: ويحك ماذا عندك لضيفنا هذا؟ فقالت: ليس عندنا إلا هذه التسويهة التي حياة ابنتك من لبنها، فقال: إنه لا بد من ذبحها، فقالت: أتقتل ابنتك؟ فقال: وإن.

فأخذ الشفرة والشاة وجعل يذبحها ويسلخها وهو يقول مرتجزاً:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٦/٨ ـ ٣٠٧.

يا جارتي لا توقظي البنية إن توقظيها تنتحب عليه

وتنزع الشفرة بين يديه

ثم هيأها طعاماً فوضعها بين يدي عبيد الله ومولاه فعشّاهما، وكان عبيد الله قد سمع محاورته لامرأته في الشاة، فلما أراد الارتحال قال لمولاه: ويلك ماذا معك من المال؟ فقال: معي خمسمائة دينار فضلت من نفقتك، فقال: ادفعها إلى الأعرابي، فقال: سبحان الله! تعطيه خمسمائة دينار، وإنما ذبح لك شاة واحدة تساوي خمسة دراهم؟ فقال: ويحك والله لهو أسخى منّا وأجود، لأنه إنما أعطيناه بعض ما نملك، وجاد هو علينا بجميع ما يملك، وآثرنا على مهجة نفسه وولده. فبلغ ذلك معاوية فقال: لله درّ عبيد الله، من أيّ بيضة خرج؟ ومن أيّ شيء درج)[1].

* * *

وماذا عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي ارتفعت حظوته عند معاوية رضي الله عنهم، فصار صديقاً مقرّباً له.

قال ابن داب: (كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف، ويقضي له مائة حاجة. فقَدِمَ عليه عاماً فأعطاه المال، وقضى له الحاجات، وبقيت منها واحدة فبينما هو عنده إذ قَدِمَ أصفَهَند سجستان يطلب من معاوية أن يملِّكه على تلك البلاد، ووعد مَن قضى

(١) المصدر نفسه ٩٤/٨.

له هذه الحاجة من ماله ألف ألف، فطاف على رؤوس الأشهاد والأمراء من أهل الشام وأمراء العراق، ممّن قَدِمَ مع الأحنف بن قيس، فكلهم يقولون: عليك بعبد الله بن جعفر، فقصده الدهقان فكلم فيه ابن جعفر معاوية، فقضى حاجته تكملة المائة حاجة، وأمر الكاتب فكتب له عهده، وخرج به ابن جعفر إلى الدهقان فسجد له وحمل إليه ألف ألف درهم. فقال له ابن جعفر:

اسجد لله واحمل مالك إلى منزلك فإنّا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن فبلغ ذلك معاوية فقال: لأن يكون يزيد قالها أحبّ إليَّ من خراج العراق، أبت بنو هاشم إلا كرماً[1].

* * *

ولعل عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قد جرت الصلات معه ومعاوية في الإمرة وقبل الخلافة. ومن أطرف ما يروى عن هذه العلاقة.

عن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال:

بلغني أن معاوية قال لعمرو بن العاص: إن الناس قد رفعوا أعينهم، ومدّوا أعناقهم إلى بني عبد المطلب. فلو نظرنا إلى رجل منهم فيه لوثة فاستملناه. فقال عمرو: عندك عقيل بن أبي طالب. فلما أصبح واجتمع الناس دخل عليه عقيل.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/١٤٠.

فقال له: يا أبا يزيد أنا خير لك أم علي؟

فقال: أنت خير لنا من علي، وعلي خير لنفسه منك.

فضحك معاوية، فضحك عقيل، فقال له: ما يضحكك يا أبا يزيد؟

قال: أضحك أني كنت أنظر إلى أصحاب عليّ يوم أتيتُه، فلمْ أرَ معه إلا المهاجرين والأنصار وأبناءهم، وألتفت الساعة، فلم أرَ إلا أبناء الطلقاء وبقايا الأحزاب. فقال معاوية: يا أهل الشام أتدرون مَن هذا؟ قالوا: لا. قال: أسمعتم قول الله عزّ جل: ﴿ تبّت يدا أبي لهب ﴾ قالوا: نعم. قال: إنه والله عمّ هذا.

قال عقيل: صدق أمير المؤمنين، فهل قرأتم في كتاب الله تعالى ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ فهي والله عمّة معاوية.

قال له معاوية: الحق بأهلك حسبنا ما لقينا من أخيك.

قال له عقيل: أما والله لقد تركتُ مع علي الدين والسابقة، وأقبلتُ إلى دنياك فما أصبتُ دينه، ولا نلتُ من دنياك طائلاً. فأعطاه وأكثرَ له.

قال: فدعا معاوية عمرو بن العاص فقال: ويحك يا عمرو هذا الذي زعمت أنه أهوج بني عبد المطلب؟

قال: ما ذنبي يا أمير المؤمنين، ما علمت منه إلا ما تعلم، فقال معاوية في ذلك:

ألا يا عمرو وعمرو قبيل سهم
لقد أخطأت رأيك في عقيل
بليتُ بحيّة صمّاء باتت
تلفَّتُ أين ملتمس القتيل
بعين تنفذ البيداء لحظاً
وناب غير مصقول كليل
وقد كانت ترجّمُهُ قريش
على عمياء من قالٍ وقيل
ألا لله درُّ أبي يزيد
لهرج الأمر والخطب الجليل
فما خاصمت مثلك من خصيم
ولا حاولت مثلك من حويل
أتاني زائراً، ورأى عليّاً
قليل المال منقطع الخليل
فقيل له معاوية بن حربٍ
فمال أبو يزيد إلى مميل
فأجزلت العطاء له ودبَّت
عقاربه لسالفة الدخول

فلم يرض الكثير وقد أراه
سخوطاً للكثير وللقليل

فرجع عقيل إلى علي، فأخبره الخبر. فقال:

كان في نفس معاوية شيء، فما أحب أنك لم تأته، فقد انقطع ظهر من بني عبد المطلب)[1].

* * *

(١) الموفقيات للزبير بن بكار ص ٣٣٦.

مَعاوية وموقفه من الخصوم

رأينا موقف أمير المؤمنين من الخصوم المنافسين سواءً مَن كان منهم من أهل بيته أو من بني هاشم. ويمكن أن نلحظ هذا الموقف من نموذجين آخرين.

النموذج الأول: قريش، وأبناؤها الذين ينافسون على الخلافة. إذ أن هذا الأمر قد استقر في الفقه الإسلامي أن الخلافة في قريش حيث حسم هذا الأمر بعد بيعة الصدِّيق رضي الله عنه. ولم يشذ في المجتمع الإسلامي عن هذا الرأي إلا الخوارج، وقد رأينا موقفه منهم من قبل.

النموذج الثاني: الشخصيات الكبيرة على مستوى قادة القبائل العربية ومن الذين كانوا في حربهم بجانب علي رضي الله عنه. والتي كانت تشكل قلقاً لمعاوية فيما تحمل من حبٍّ وولاء لأهل البيت.

وسنلحظ معالم شخصيته، من خلال عرض هذه النماذج، ونشهد أيّ شخصية عبقرية فذّة كان معاوية... بحيث مسك بيده وحده كل التوازنات بحيث لا يطغى أحد على أحد ويطمئن الجميع إلى السمع والطاعة والولاء لأمير المؤمنين. دون أن يكون البطش والإرهاب سبيله. وإلى أيّ حدٍّ كانت حرية الرأي متاحة في ظل حكمه المديد.

لقد مضى العشرة المبشَّرون في الجنة ممّن كانت الأنظار تتوجه

إليهم ليكونوا مرشحين للخلافة، ما عدا سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد.

أما سعد، فقد اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

(قال ابن عساكر: ذكر بعض أهل العلم أن ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص جاءه فقال له: يا عمّ هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحقّ الناس بهذا الأمر، فقال: أُريد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع. وقال عبد الرزاق عن ابن جريج حدّثني زكريا بن عمرو أن سعد بن أبي وقاص وفد على معاوية فأقام عنده شهر رمضان يقصد الصلاة ويفطر. وقال غيره: فبايعه وما سأله سعد شيئاً إلا أعطاه)[1].

وثبت في صحيح مسلم أن ابنه عمر جاء إليه وهو معتزل في إبله فقال: الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا؟ فقال: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد الغني الخفي التقي»[2].

فقد كفى سعد معاوية المؤونة، واعتزل الخلافة والتفكير فيها. وبايع مع مَن بايع لأمير المؤمنين معاوية. وتوفي رحمه الله عام خمسة وخمسين.

* * *

وأما سعيد بن زيد (فلم يذكره عمر في أهل الشورى لئلا يحابى بسبب قرابته من عمر فيولى ، فتركه لذلك، وإلا فهو ممّن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة في جملة العشرة كما صحّت بذلك الأحاديث

---

(١) و (٢) من البداية والنهاية لابن كثير ٨/٧٥.

الصحيحة المتعددة، ولم يتـول بعده ولاية. وما زال كذلك حتى مات بالكوفة وقيل بالمدينة وهو الأصح، قال الفلاس وغيره سنة إحدى وخمسين وقيل سنة اثنتين وخمسين والله أعلم)[1].

لكن الأنظار كانت تتجه إلى الجيل الجديد وتتطلع إليهم من أجل الخلافة إلى أبناء هؤلاء العشرة وعلى رأسهم الحسن والحسين. وقد رأينا موقفه منهم. ثم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير.

* * *

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقد اعتزل الفتنة كما اعتزلها سعد رضي الله عنه وبايع مَع مَن بايع لمعاوية. وكان قد اتجه للعلم وتربية الأجيال المسلمة كما اتجه ابن عباس رضي الله عنهم، ولا يألو نصحاً لحاكم أو أمير (فقد قال عنه مالك:

بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة.

وما مات حتى أعتق ألف رقبة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً. وكان تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر ولا يذوق فيه لحماً إلا وعلى يديه يتيم. وبعث إليـه من معاوية بمائة ألف، فما حالَ عليه الحول وعنده منها شيء، وكان يقول: إني لا أسأل أحد شيئاً. وما رزقني الله فلا أردّه)[2].

(وقال أبو مروان المرواني: بعث معاوية إلى الحسن بن علي بمائة

---

(١) المصدر نفسه ٨/٥٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٩/٦.

ألف فقسمها بين جلسائه وكانوا عشرة، فأصاب كل واحد عشرة آلاف وبعث إلى عبد الله بن جعفر بمائة ألف فاستوهبتها منه امرأته فاطمة فأطلقها لها. وبعث إلى مروان بن الحكم بمائة ألف فقسم منها خمسين ألفاً وحبس خمسين ألفاً، وبعث إلى ابن عمر بمائة ألف ففرّق منها تسعين واستبقى عشرة آلاف. فقال معاوية: إنه لمقتصد يحبّ الاقتصاد)[1].

ولعلّ الأمر الوحيد الذي آذى عبد الله بن عمر في خلافة معاوية هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن علية عن ابن عون عن ابن نافع قال: كان ابن عمر في السوق فنعي له حجر، فأطلق حبوته، وقام وغلب عليه النحيب.

* * *

أما عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما. فقد كان بعيداً عن أجواء معاوية رضي الله عنه رغم بيعته له. وكانت عائشة رضي الله عنها هي التي تسدّ هذا الجانب من العلاقة وتطغى عليه.

قال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه للناس. وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: فهلاّ أبقيت لنا درهماً نشتري به لحماً تفطرين عليه؟ فقالت: لو ذكرتيني لفعلت. وقال عطاء: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته.

(١) المصدر نفسه ١٤٠/٨.

(وقال الزهري: حدّثني القاسم بن محمد أن معاوية حين قَدِمَ المدينة يريد الحج دخل على عائشة فكلّمها خالين لم يشهد كلامهما أحد إلا ذكوان أبو عمرو ومولى عائشة، فقالت: أمنت أن أُخبيء لك رجلاً يقتلك بقتل أخي محمداً؟ فقال: صدقتي. فلما قضى معاوية كلامه معها تشهدت عائشة ثم ذكرت ما بعث الله به نبيه ﷺ من الهدى ودين الحق، والذي سنّ الخلفاء بعده، وحضّت معاوية على العدل واتباع أثرهم، فقالت في ذلك فلم تترك له عذراً، فلما قضت مقالتها قال لها معاوية:

أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله ﷺ - الناصحة المشفقة البليغة الموعظة، حضضتِ على الخير، وأمرت به، ولم تأمرينا إلا بالذي هو لنا مصلحة، وأنت أهل أن تُطاعي.

وتكلمت هي ومعاوية كلاماً كثيراً. فلما قام معاوية اتكأ على ذكوان، وقال: والله ما سمعت خطيباً ليس رسول الله ﷺ أبلغ من عائشة)[1].

* * *

أما عبد الله بن الزبير، فكان له شأن آخر، فلم يكن معاوية يخشى من أحد خشيته من ابن الزبير، لقد كان يعطيه ويمنعه، وكان يدنيه ويرهبه.

فقدَ (روى الأصمعي قال: وفد الحسن وعبد الله بن الزبير على معاوية فقال: مرحباً وأهلاً بابن رسول الله وأمر ه بثلاثمائة ألف، وقال لابن الزبير مرحباً وأهلاً بابن عمة رسول الله وأمر له بمائة ألف).

(وقال أبو مروان المرواني: . . وبعث إلى عبد الله بن الزبير (يعني

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/٨.

معاوية) بمائة ألف فقال للرسول: لِمَ جئت بالنهار؟ هلاّ جئت بها بالليل؟ ثم حبسها عنده ولم يعط منها أحد شيئاً فقال معاوية: إنه لخب ضب، كأنك به قد رفع ذنبه، وقع حبله)[1].

(وروى ابن أبي الدنيا عن أبي يزيد النميري، عن أبي عاصم النبيل، عن جويرية بن أسماء[2] أن معاوية لما حجّ تلقته الناس، وتخلّف ابن الزبير، ثم جاءه وقد حلق رأسه فقال: يا أمير المؤمنين ما أكبر حجرة رأسك!! فقال: اتقِ الله أن لا يخرج عليك منها حيّة تقتلك. فلما أفاض معاوية طاف معه ابن الزبير، وهو آخذ بيده، ثم استدعاه إلى داره ومنازله بقيقعان، فذهب معه إليها، فلما خرجا قال: يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون جاء معه أمير المؤمنين إلى دوره ومنازله ففعل معه ماذا، لا والله لا أدعك حتى تعطيني مائة ألف فأعطاه)[3].

وقال ابن أبي الدنيا عن.. مجاهد بن عروة اسأل ابن الزبير معاوية شيئاً فمنعه فقال: والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية (الكعبة) فلا أشتم لك عرضاً ولا أقصم لك حسباً ولكني أسدل عمامتي بين يدي ذراعاً، ومن خلفي ذراعاً في طريق أهل الشام، وأذكر سيرة أبي بكر وعمر فيقول الناس: مَن هذا؟ فيقولون ابن حواري رسول الله ﷺ وابن بنت الصديق. فقال معاوية: حسبك بهذا شرفاً. هات حوائجك)[4].

---

(١) المصدر نفسه ٨/١٤٠.

(٢) أبو زيد النميري (لم أجده) أبو عاصم النبيل (ثقة ثبْت) جويرية بن أسماء (صدوق).

(٣) و(٤) المصدر نفسه ٨/٣٤٢ ـ ٣٤٣.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن عبد الله بن أبي بكر قال:

لحق ابن الزبير معاوية وهو سائر إلى الشام فوجده وهو ينعس على راحلته فقال له: أتنعس وأنا معك؟ أما تخاف منّي أن أقتلك؟ فقال: إنك لست من قتال الملوك إنما يصيد كل طائر قدره. قال: لقد سرت تحت لواء أبي إلى علي بن أبي طالب وهو مَن تعلمه. قال: لا جرم قتلكم والله بشماله. قال: أما إن ذلك كان في نصرة عثمان ثم لم يجز بها. قال: إنما كان لبغض علي لا لنصرة عثمان، فقال له ابن الزبير:

إنّا قد أعطينا له عهداً فنحن وافون لك به ما عشت، فسيعلم من بعدك. فقال: أما والله ما أخافك إلا على نفسك. وكأني بك قد خبطت في الحبالة[1]، واستحكمت علي الأنشوطة[2]. فذكرتني وأنت فيها، فقلت: ليت أبا عبد الرحمن لها، ليتني والله لها أما والله لأحللتك رويداً، ولأطلقتك سريعاً، ولبئس الوليّ أنت تلك الساعة[3].

وكأنما كان معاوية أمير المؤمنين رضي الله عنه يستشفّ حجب الغيب. ولم يأن هو صاحب ابن الزبير حينما وقع، إنما كان الحجّاج ابن يوسف الثقفي، ومن أجل ذلك لم يتركه حتى قتله وصلبه. ولو كان صاحبه معاوية لكان أول مَن عفى عنه.

---

(١) الحبالة: المصيدة من الحبال.

(٢) الأنشوطة: العقدة.

(٣) البداية والنهاية ٣٤٣/٨.

وقبل أن نودِّع ابن الزبير، نعرض هذا الوصف له، ونرى كيف أن معاوية كان محقاً في تخوفه منه:

(كان عالماً عابداً مهيباً وقوراً كثير الصلاة والصوم، شديد الخشوع جيد السياسة. قال أبو نعيم الأصبهاني بسنده عن عمر بن قيس: كان لابن الزبير مائة غلام تكلم كل غلام منهم بلغة غير لغة الآخر، وكان ابن الزبير يكلِّم كل واحدٍ منهم بلغته، وكنت إذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله والآخرة طرفة عين)[1].

وحيث علمنا رأي معاوية رضي الله عنه بعبد الله بن الزبير، فلا بدّ أن نعرف رأي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بمعاوية إذ يقول:

لله درّ ابن هند إن كنّا لنُفرقه، وما الليث في براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا.

وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا. والله لوددت أنّا متعنا به ما دام في الجبل حجر (وأشار إلى أبي قيس)[2].

* * *

وإذا خرجنا من دائرة قريش، فأمامنا سيد بني تميم الذي إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب. وقد كان في صفّين من أخطر القيادات مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن

(١) المصدر نفسه ٨/٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه ٨ ١٣٨.

أشد المتحمسين له. وهذا جانب من دوره بجانب علي:

ذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج أن أول مَن أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال.

وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز. قال علي: فإني أجعل الأشتر حكماً فقالوا: وهل سعَّر الحرب وشعر الأرض إلا الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما شئتم، فقال الأحنف بن قيس لعلي:

والله لقد رُميت بحجر إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم، يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً وثالثاً، فإنه لم يعقد عقدة إلا أحلّها، ولا يحلّ عقدة إلا عقدت لك مثلها أو أحكم منها، قال: فأبوا إلا أبا موسى)[1].

هذه هي شخصية الأحنف كما رسمها عن نفسه ذكاءً ودهاءً وحكمة. قاد جحافل المسلمين في أرض فارس وفتح الفتوح، ووقف بجوار أمير المؤمنين بكل ثقله وثقل قومه. حتى عندما جرى التحكيم (كتبوا بينهم كتاباً هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين. فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم وليس بأميرنا. فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين. فقال علي: امح أمير المؤمنين واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب)[2].

---

(١) و(٢) البداية والنهاية ٢٨٧/٧.

وعندما انتهت الفتنة ودخل الناس في الجماعة. كان معاوية رضي الله عنه يدرك قدر الأحنف، ويعرف مَن وراءه من قومه. فكان يكرمه أيما إكرام، ويستشيره في المعضلات. ولا يترك مسامرته إن وجد سبيلاً إلى ذلك.

(قال له ذات يوم: أخبرني عن قول الشاعر:

إذا ما مات ميت من تميم
فسرَّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن
أو الشيء الملفف بالبجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً
ليأكل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشيء الملفف بالبجاد؟

قال الأحنف: السخينة[1] يا أمير المؤمنين. قال معاوية: واحدة بأُخرى والبادىء أظلم[2].

وقَدِمَ الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية. فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدّم الأحنف

---

(١) السخينة: طعام كانت تعمله قريش من دقيق وهو الحريرة فكانت تُسبُّ به وفيه يقول حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها
ولتُغلَبنَّ مغالب الغلاب

(٢) العقد الفريد/ ٢/٢٨٤.

ودخل قبله. فلما رآه معاوية غَمَّهُ ذلك وأحنقه، فالتفت إليه وقال:

والله إني ما أذنت له قبلك، وأنا أُريد أن تدخل قبله، وإنّا كما نلي أُموركم نلي آدابكم. ولا يزيد متزيِّد في خطوة إلا لنقص يجده في نفسه[١].

وأرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس فقال: يا أبا بحر ما نقول في الولد؟ قال: ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلّبوا فأعطهم، وإن غضبوا فارضهم يمنحوك ودّهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً، فيملّوا حياتك ويحبوا وفاتك فقال:

لله أنت يا أحنف. لقد دخلتَ عليَّ وإني لمملوء غيظاً على يزيد، فسللته من قلبي. فلما خرج الأحنف من عنده بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب. وشاطره البعثة)[٢].

واستعمل الأحنف كل حكمته عند بيعة يزيد عام ستة وخمسين.

و(وفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد. فكان فيمن قَدِمَ الأحنف بن قيس، فأمره معاوية أن يحادث يزيد. فجلسا ثم خرج الأحنف فقال له معاوية: ماذا رأيت من ابن أخيك؟ فقال: إنّا نخاف الله إن كذبنا، ونخافكم إن صدقنا، وأنت أعلم به في ليله ونهاره، وسرِّه وعلانيته، ومدخله ومخرجه. وأنت أعلم بما أردت،

---

(١) المصدر نفسه ٢/٥٥.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢.

وإنما علينا أن نسمع ونطيع، وعليك أن تنصح للأمة.

ولقد كانت أبعاد الأحنف ذات مدىً شاسع. فهو يدرك أن يزيد قد اتسق له الأمر، وفي الوقت الذي لم يجد من الحكمة فيه أن يواجه يزيد أو يهاجمه. لكن أشار إلى ذلك بذكاء الأريب: ونخافكم إن صدقنا. رفض أن يثني عليه بقليل أو كثير، وحمَّل المسؤولية كاملة لأمير المؤمنين معاوية.

وكان زياد والي البصرة يعرف قدره، وكيف لا وكانا سوية في جيش أمير المؤمنين والأحنف أمير البصرة غير المتوّج.

وكما روى أبو الضحاك قال:

(رأيت مصعب بن الزبير يمشي في جنازة الأحنف بغير رداء، وكان سيد الناس يومئذ ـ يعني الأحنف ـ)[1].

(وقد سأل معاوية الأحنف: بِمَ سدْت قومك وأنت ليس بأسنّهم ولا أشرفهم؟ قال: لا أتناول ما كفيت ولا أضع ما ولّيت)[2]. وقد نالته دعوة الرسول ﷺ.

وعن الحسن (البصري) قال: إن الحنف بن قيس قال:

بينا أنا أطوف بالبيت زمن عثمان بن عفان إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال: ألا أُبشِّرك؟ فقلت: بلى. قال: هل تذكر أن بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك بني سعد فجعلت أعرض عليهم الإسلام،

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ١/٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه ١/٢٣١.

وأدعوهم إليه فقلت أنت: إنه يدعو إلى الجنة، ويأمر بالخير مرتين، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: اللّهمّ اغفر للأحنف.

وكان الأحنف يقول: ما لي عمل أرجى لي منه)[1].

لكن الجيل الجديد لم يكن يعرف مقامه. فعندما تولى عبيد الله بن زياد بعد وفاة أبيه لم يكن يأبه له. وهو في غمرة بهجته بولايته الجديدة.

و(وفد عبيد الله بن زياد على معاوية ومعه أشراف أهل البصرة والعراق. فاستأذن لهم عبيد الله عليه على منازلهم منه، وكان آخر مَن أدخله على معاوية الأحنف بن قيس ـ ولم يكن عبيد الله يجلُّه ـ فلما رأى معاوية الأحنف رحَّبَ به وعظَّمه وأجلَّهُ وأجلسه معه على السرير ورفع منزلته، ثم تكلم القوم فأثنوا على عبيد الله والأحنف ساكت. فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمت خالفت القوم، فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا والياً ترضونه. فمكثوا أياماً يترددون إلى أشراف بني أمية يسألون كل واحد أن يتولى عليهم فلم يقبل أحد منهم ذلك. ثم جمعهم معاوية فقال: مَن اخترتم؟ فاختلفوا عليه والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد غير أهل بيتك فرأيك، فقال معاوية: قد أعدته إليكم. وقال ابن جرير: قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن وليت عنّا من أهل بيتك فإنّا لا نعدل بعبيد الله بن زياد أحداً. وإن وليت علينا غيرهم فانظر لنا في ذلك. فقال معاوية: قد

---

(١) المصدر نفسه / ٢٣٠.

أعدته إليكم. ثم إن معاوية أوصى عبيد الله بن زياد بالأحنف خيراً، وقبّح رأيه فيه وفي مباعدته ثم قال له بينه وبينه: كيف جهلت مثل الأحنف؟ إنه والله الذي عزلك وولّاك وهو ساكت. فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد جداً)[1].

* * *

وكان من أكبر خصوم معاوية على الإطلاق قيس بن سعد الأنصاري الذي قال فيه معاوية لمروان بن الحكم والأسود حين ضايقاه فألجآه إلى معاوية:

(أمددتما علياً بقيس بن سعود ورأيه ومكايدته. والله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان بأغيظ عليّ من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي)[2].

وثبت في صحيح البخاري عن أنس قال: كان قيس بن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير.

(وأقام قيس عند علي فشهد معه صفّين والنهروان ولزمه حتى قتل وصار إلى المدينة) وفي رواية (ثم كان مع الحسن بن علي حين سار إلى معاوية ليقاتله. فكان قيس على مقدمة الجيش. فلما بايع الحسن معاوية ساء قيساً ذلك وما أحبّه)[3].

فلما اجتمعت الكلمة على معاوية جاء ليبايعه كما بايعه

---

(١) البداية والنهاية ٩٨/٨ و٣٣٢.

(٢) الطبري ٧٠/٥.

(٣) البداية والنهاية ١٠٤/٨.

أصحابه، قال عبد الرزاق عن ابن عيينة قال: فقَدِمَ قيس بن سعد على معاوية. فقال له معاوية:

وأنت يا قيس تلجم علي مع مَن ألجم؟ أما والله لقد كنت أُحب أن لا تأتيني هذا اليوم إلا وقد ظفر بك ظفر من أظفاري موجع، فقال له قيس: وأنا والله قد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأُحيِّيك بهذه التحية، فقال له معاوية: ولِمَ؟ وهل أنت إلا حَبْر من أحبار اليهود؟ فقال له قيس: وأنت يا معاوية كنت صنماً من أصنام الجاهلية، دخلت في الإسلام كارهاً، وخرجت منه طائعاً؟ فقال معاوية: اللَّهمّ غفراً مدّ يدك. فقال له قيس بن سعد: إن شئت زدتَ وزدتُ).

كان معاوية في غنىً عن سماع ما يكره، فما مثل قيس بن سعد تغمز قناته، ومن أجل ذلك سارع فاعتذر وقبل بيعته.

(يقول الزهري: دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، وكانا مع علي.. كان المغيرة معتزلاً بالطائف)[1].

(هذا عن دهائه أما عن كرمه فحدّث ولا حرج، ويكفي (أن يختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم. فقال أحدهم عبد الله بن جعفر، وقال الآخر قيس بن سعد وقال الآخر: عرابة الأوسي. فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة)[2].

(وقَدِمَ على معاوية في وفد من الأنصار فبايع معاوية بعد معاتبة

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٠٥.
(٢) المصدر نفسه ٨/١٠٤.

شديدة وقعت بينهما، وكلام فيه غلظة، ثم أكرمه معاوية وقدّمه وحظي عنده) [1].

(وفي رواية أن ملك الروم بعث إلى معاوية برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم، والآخر أطول الروم. فانظر هل في قومك مَن يفوقهما في قوة هذا وطول هذا. فإن كان في قومك مَن يفوقهما بعثت إليك من الأسارى كذا وكذا، ومن التحف كذا وكذا، وإن لم يكن في جيشك مَن هو أقوى منهما وأطول منهما فهادني ثلاث سنين. فلما حضرا عند معاوية قال: مَن لهذا القوي، فقالوا: ما له إلا أحد رجلين، إما محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب) أو عبد الله بن الزبير. فجيء بمحمد بن الحنفية. فلما اجتمع الناس عند معاوية قال له معاوية: أتعلم فيمَ أرسلت إليك؟ قال: لا، فذكر له الرومي وشدّة بأسه، فقال للرومي إما أن تجلس لي أو أجلس إليك، وتناولني يدك أو أُناولك يدي، فأيُّنا قدر على أن يقيم الآخر من مكانه غلبه، وإلا فقد غلب. فقال له: ماذا تريد؟ تجلس أو أجلس؟ فقال له الرومي: بل اجلس أنت. فجلس محمد بن الحنفية، وأعطى الرومي يده. فاجتهد الرومي بكل ما يقدر عليه من القوة أن يزيله من مكانه أو يحرِّكه ليقيمه فلم يقدر على ذلك. ولا وجد إليه سبيلاً. فغلب الرومي عند ذلك وظهر لمن معه من الوفود من بلاد الروم أنه قد غلب. ثم قام محمد بن الحنفية فقال للرومي اجلس لي، وأعطى محمداً يده فما أمهله أن أقامه سريعاً ورفعه في الهواء ثم ألقاه على الأرض فسُرَّ بذلك معاوية سروراً عظيماً. .

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٠٥.

(فبينما هو مع الوفود ـ أي قيس بن سعد ـ إذ قَدِمَ كتاب ملك الروم على معاوية وفيه: أن ابعث لي بسراويل أطول رجل من العرب.

فقال معاوية: ما أرانا إلا قد احتجنا إلى سراويلك؟ وكان قيس مديد القامة جداً لا يصل أطول الرجال إلى صدره. فقام قيس فتنحى ثم خلع سراويله فألقاها إلى معاوية. فقال له معاوية: لو ذهبت إلى منزلك ثم أرسلت بها إلينا فأنشأ قيس يقول عند ذلك:

أردت بها كي يعلم الناس أنها
سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه
سراويل عادي سمد وثمود
وإني من الحيّ اليماني لسيد
وما الناس إلا سيد ومسود
فكدهم بمثلي إن مثلي عليهم
شديد وخلقي في الرجال مديد
وفضلني في الناس أصل ووالد
وباع به أعلو الرجال مديد

فأمر معاوية أطول رجل في الوفد فوضعها على أنفه فوقعت بالأرض. فاعترف الرومي بالغلب، وبعث ملكهم ما كان التزمه لمعاوية)(١).

لقد غدت هذه الطاقات ملكاً للأمة الإسلامية. بعد أن كانت

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٠٥ ـ ١٠٦.

تتصارع مع بعضها لقد كان من الممكن أن يكون معاوية في صفّين هو ذلك الرجل الرومي الذي يمسك به محمد بن الحنفية فيصرع به الأرض ويقتله، وكان من الممكن أن يكون معاوية طعماً لرمح قيس بن سعد وسيفه، ولكنها الألفة والجماعة التي جعلت هذه الطاقات كلها لمناجزة الكفّار والمشركين وأن توجّه الأوامر لابن الحنفية فيحضر استجابة لأمر أمير المؤمنين، وأن توجّه الأوامر لأعدى العدو، لقيس بن سعد أن يخلع سراويله فيخلعها. وكم هي هذه النعمة عظيمة؟ وكم كان معاوية عبقرياً، وهو يستفرغ كل هذه الطاقات العلمية والعسكرية والسياسية لخدمة الدولة الإسلامية.

لقد غدت الدولة للجميع بلا استثناء. وغدا معاوية بن حرب أميراً للمؤمنين في الأرض.

* * *

مَعاويَـةُ وَالرعيَّة

ولم يكن يرى حرجاً رضي الله عنه أن يسمع آراء الناس فيه، ورأيهم في علي رضي الله عنه بل كان أحياناً يحرص على ذلك، ليرى مدى استعداد الناس لطاعته أو للثورة عليه فها هو يدغدغ عواطف شريفين من قريش. وهما سيدا بني مخزوم وبني جمح فعن علي بن سليم قال:

حضـر قوم من قـريش مجلس معاويـة بن أبي سفيـان فيهم عمـرو بن العاص وعبـد الله بن صفـوان بن أمية بن خلف، وعبـد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة.

فقال عمرو بن العاص: أحمد والله يا معشر قريش إذ جعل والي أموركم من يغضي على القذى، ويتصام عن العوراء، ويجرّ ذيله على الخدائع[١]. فقال عبد الله بن صفوان:

لو لم يكن كذلك لمشينا إليه الضرّاء، ودبينا له الخمر، وقلبنا له ظهر المجن[٢]، ورجونا أن يقوم بأمرنا أمر ولا يطعمك مال مضر.

قال معاوية: يا معشر قريش حتى متى لا تنصفون من أنفسكم.

---

(١) كناية عن مغفرته للذنب وتجاهله للزلات.

(٢) كناية عن الخروج والثورة عليه لو لم يكن كذلك.

فقال عبد الرحمن: إن عمراً وذويه أفسدوك علينا، وأفسدونا عليك. ما كان عليك لو أغضيت على هذا.

قال: إن عمراً ناصح لي. فقال عبد الرحمن: أطعمنا مثل ما أطعمته، ثم خذنا بمثل نصيحته. إنّا يا معاوية رأيناك تضرب عوّام قريش بأياديك في خواصها. كأنك ترى كرامك حازوك دون لئامها. وإيم الله إنك تفرغ من وعاء فم في إناء ضخم، ولكأنك بالحرب قد حُلَّ عقالها عليك ثم لا ينظر لك.

ثم لا ينظر لك.

قال معاوية: يا ابن أخي ما أحوج أهلك إليك يقول: لو فعلتُ ذلك قتلت ثم أنشد:

أغـرَّ رجـالاً مـن قـريش تـتـابـعـوا
عـلى سفـه مـنّي الـحـيـا والـتـكـرّم[1]

فالقوم لا يحملون في قلوبهم الرضا عن معاوية وخاصة عن عمرو بن العاص الذي كان وزيره الأول، ولا شك أن هذه الحادثة كانت في بداية عهده، لأن عمرو رضي الله عنه قد توفي بعد سنتين من خلافة معاوية، ولم تكن الأمور قد استقرت بعد. ومن أجل هذا كان جواب معاوية فيه من الحزم والشدة والعنف ما يتناسب مع طبعه التهديد الذي أطلقه شريفا قريش، عبد الله بن صفوان، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ويأتي الموقف والجواب بحجم الحادثة وضخامتها.

---

(١) الموفقيات للزبير بن بكار ١٥٣ ـ ١٥٤.

(فقد أُتي معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق. فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك قال: لا تقل ذلك يا معاوية، فإنها مصيبة. قال: وأيّ نعمة أعظم من أن أمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة، اضرب عتقه يا غلام. فقال الأسير: اللّهمّ اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، ولا لأنك ترضى بقتلي. وإنما يقتلني في الغلبة وعلى حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.

قال له: ويحك لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسنت. خلّيا عنه)[1]. فهو يعلم أن هذا الأسير لا حول له ولا طول، ولا داعي بأن يتملكه الغضب من كلامه، وهو على استعداد أن يسمع كامل حجته. بل ويعجب بها، وينتقل من حاكم يقتل بالإشارة إلى متّعظ بكلام بليغ من أعرابي أسير.

* * *

ويدخل عليه أحد الخصوم الكبار أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني شاعر كنانة وأحد فرسانها ومن ذوي السيادة فيها. (فقال له معاوية: ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكني ممّن حضره ولم ينصره. قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار. قال معاوية: أما لقد كان حقه واجباً، وكان عليهم أن ينصروه قال: غما يمنعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟ فقال معاوية: أو ليس طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل وقال:

أنت وعثمان كما قال الشاعر:

---

(١) العقد الفريد ٢/٤٤.

لا ألفينّك بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي

فقال معاوية: يا أبا الطفيل: ما أبقى الدهر من ثكلك عليّاً؟

قال: ثكل العجوز المقلات[1]، والشيخ الرقوب[2].

قال: فكيف حبّك له؟

قال: حبّ أُم موسى لموسى، وإلى الله أشكو التقصير[3].

ومعاوية يعلم أن القلب المفطور على حب علي رضي الله عنه والذي يعادل حب أُم موسى لموسى لن يحمل له شيئاً من الحب، بل يمتلىء بالغيظ والحنق عليه، ولا يضيره أن يسمع هذا الكلام فحرية الرأي متاحة للجميع، ما لم تشكل ثورة أو تهدد النظام العام الذي بايعت عليه الأُمة.

* * *

والأغرب من هذا كله أن يدعو شيعة علي إليه ليسمع ثناءهم عليه، وحبهم له. فعن الشعبي قال:

حدثني جماعة من بني أُمية ممّن كان يمر مع معاوية، قال: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد إذ ذكروا الزرقاء ابنة عديّ بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومها بصفِّين. فقال: أيّكم يحفظ كلامها. قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال:

---

(١) المقلات: التي لا يبقى لها ولد.

(٢) الرقوب: الذي لم يبق له ولد.

(٣) الموفقيات ١٥٤ ـ ٥٥.

فأشيروا عليَّ بأمرها فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها قال:

بئس الرأي، أشرتم به عليّ. أيحسن لمثلي أن يتحدّث عنه الناس أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها؟!. فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها مع ثلّة من ذوي محارمها، وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاءً ليِّناً، ويسترها بستر خصيف، ويوسع لها بالنفقة فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب فقالت:

إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإني لا آتيه، وإن كان حتّم عليّ فالطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها على ما أُمِر به، فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً وأهلاً. قدمت خير مقدم قدمه وافد. كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً. قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيمَ بعثت إليك؟ قالت: أنّى لي بعلم ما لم أعلم؟

قال: ألست الراكبة الجمل الأحمر! والواقفة بين الصفّين بصفين حضين الناس على القتال وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب. والدهر ذو عبر، ومَن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله لا أحفظه وقد أنسيته.

قال: لكني والله أحفظه. لله أبوك حين تقولين: أيها الناس ارعووا وارجعوا إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم

عن قصد المحجة. فيا لها فتنة عمياء صمّاء بكماء لا تسمع لناعقها، ولا تنساق لقائدها، إن المصباح لا يضيء مع الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا مَن استرشد أرشدناه، ومَن سألنا أخبرناه.

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين على الغصص فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة الحق، ودفع الحق الظلمة، فلا يجهلن أحد فيقول: كيف وأنّى؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب النساء الحنّاء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا الأمر ما بعده، والصبر خير في الأُمور كلها. إيهاً في الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت عليّاً في كل دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، مثلك من بشَّر بخير وسرَّ جليسه.

قال: أو يسرّك ذلك؟

قالت: نعم والله لقد سررت بالخبر، فأنّى لي بتصديق الفعل؟

فضحك معاوية وقال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته.

اذكر حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين: آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً. ومثلك أعطى من غير مسألة، وجاء من غير طلبة.

قال: صدقت.

وأمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكسي)[1].

لقد كانت همذان كلها تذوب حبّاً ووفاءً لعلي رضي الله عنه وله الشعر الذي يقول:

ولو كنت بوّاباً على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وذلك من شدة إعجابه بوفائهم وتضحيتهم معه.

وجرأة الزرقاء في جوابها عن مشاركتها في الدماء التي سفكها علي هي التي تمثل نفسية المرأة المسلمة السويّة الفذّة، التي تقول كل ما تؤمن به أمام أمير المؤمنين الذي حارب عليّاً رضي الله عنه أربع سنين متواليات.

إن جو الحرية الذي مارسه المسلمون في ظل معاوية هو الذي هيأ المجال الخصب للطاقات الإسلامية أن تنمو وتبدع. وهيأ المناخ لمتابعة الفتوحات الإسلامية التي توقفت قرابة عشر سنين نتيجة الصراعات الداخلية والفتنة الكبيرة في الدولة الإسلامية.

ومعرفة معاوية بالرجال وحرصه على الكفاءات سدّ الطريق أمام المتسلقين والمتزلفين والمنافقين أن يكون لهم صولة في سلطانه حتى الشخصيات الكبيرة كان لا يغفر لها الهفوة والزلّة إذا كانت تمسّ المبدأ والعقيدة.

---

(١) العقد الفريد ١/٣٣١.

فعبد الرحمن بن خالد رضي الله عنهما كان من أبرز الشخصيات بجوار معاوية في محنته. وكما رأينا معاوية مع أخيه عنبسة كيف يعزله عندما رأى عنصر التشفّي والحقد هو الذي يحكمه. فها هو يعامل ابن خالد كذلك.

فعن عوانة بن الحكم أن معاوية بن أبي سفيان استعمل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي على الصائفة ثم قال له: ما تصنع بعهدي يا عبد الرحمن؟

قال: أتّخذه إماماً ولا أعصيه.

قال: اردد عليَّ عهدي.

قال: تعزلني بعد أن استعملتني عن غير حدث؟ أما والله لو أنا بمكة على السواء لانتصفت منك.

قال: ويحكِ لو كنّا بمكة على السواء لكنتُ معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أُمية ولكنتَ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. ولكان منزلي بالأبطح ينسق عنه الوادي، وكان منزلك أجياداً أسفله عِذرة وأعلاه مدرة.

ثم قال معاوية: عليَّ بسفيان بن عوف الغامدي، فكتب له عهده ثم قال: يا سفيان، ما تصنع بعهدي؟

قال: أتّخذه إماماً ما أعم الحرم فإذا خالفه خالفته...).

وهذه هي زلّة عبد الرحمن: أنه اعتبر طاعة معاوية ثابتة على كل حال.

والمبدأ الإسلامي الثابت: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بينما انتبه سفيان للمبدأ. وربط الطاعة بطاعة الله، والمعصية بمعصيته.

ونحن لا نشك أن عبد الرحمن بن خالد من حيث الفعل سيكون كسفيان بن عوف. لكن معاوية لا يرضى هذا التسرّع ولو بالقول، ويقيم الشخصية من خلاله. ومن أجل ذلك تابع قائلاً على موقف سفيان:

(هذا والله ـ الذي لا يكفكف عن عجلة[1]، ولا يدفع في ظهره عن بطاء[2]، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثفال[3]. سِرْ على بركة الله.

فسار فهلك في أرض الروم. واستعمل على الناس عبد الله بن مسعود الفزاري وقال له: إن ظفراً عظيماً وغنماً كبيراً أن يرجع بالمسلمين سالمين لم ينكبوا.

وكانت أول ولاية وليها ابن مسعود. فأقدم بالمسلمين فنكبوا.

فقال الشاعر لابن مسعود:

---

(١) لا يكفكف عن عجلة. أي لا يتهور بحيث يطلب منه الإحجام والتوقف.

(٢) لا يدفع في ظهره عن بطاء: أي لا يتراخى بحيث يدفع إلى الحركة والمواجهة.

(٣) لا يضرب ضرب الجمل الثفال: أي ليس من طينته البطء والتراخي.

أقم يا ابن مسعود قناة قويمة
كما كان سفيان بن عوف يقيمها
وسمّ يا ابن مسعود مدائن قيصرٍ
كما كان سفيان بن عوف يسومها

فلما دخل عبد الله بن مسعود على معاوية قال:

أقم يا ابن مسعود قناة قويمة.

فقال: يا أمير المؤمنين إن الشاعر ضمَّني إلى رجل لا تضم إليه الرجال فقال معاوية: والله إن من فضيلتك عندي معرفتك بفضله)[1].

والذي لا ينفذ إلى أعماق معاوية ويدرس أغوار شخصيته يجد عجباً أن يعزل عبد الرحمن بن خالد عن الصائفة لأنه أكد طاعة معاوية.

وأن يغفر لابن مسعود الفزاري هزيمته المنكرة على يدي الروم. والنكبة التي نزلت بالمسلمين في مخالفة توجيهات القائد الفذ سفيان بن عوف الغامدي الذي حقق انتصارات ضخمة وأمعن في بلاد الروم، ثم قدَّر بعد ذلك أن التقدّم أكثر مخاطرة، وقد تؤدي بجميع الانتصارات السابقة.

والقائد الفذ هو الذي يتقن متى يتقدم، ومتى يتراجع.

والتاريخ العسكري الحديث يبيِّن لنا كيف أن قائدين من أكبر قادة العصر الحديث تحطموا على صخرة غرور انتصاراتهم، وتابعوا

---

(١) الموفقيات: ١١٣ ـ ١١٤.

زحفهم من حيث يحسن الرجوع والعودة وهما نابليون بونابرت وهتلر. وكيف أن ثلوج روسيا واتساع أراضيها ومقاومة الشعب هناك، حطمت هاتين الشخصيتين. وذهبت بانتصاراتهما أدراج الرياح.

وعندما قَدِم ابن مسعود الفزاري على معاوية. كان لا بدّ أن يحاسبه على موقفه وعلى النكبة التي ألمّت بالمسلمين من وراء إقدامه، فواجهه بقول الشاعر:

أقم يا ابنَ مسعود قناة قويمة.

والشخصية المهتزة المغرورة سرعان ما تهاجم خصمها. وتريد أن تصغِّر من انتصاراته وتضع لنفسها انتصارات وهمية، وتبرر هزائمها. لكن ابن مسعود لم يكن كذلك، وأدرك خطأه. ورأى أنه ليس بمقام المقارنة مع سفيان في مجال القيادة.

إن الشاعر ضمّني إلى رجل لا تضم إليه الرجال..

وكان هذا الجواب الحكيم، والاعتراف غير المباشر بالخطأ والتقصير كبيراً في عين معاوية والذي يدرك خطأه ويستفيد منه. هو مؤهل للإبداع فيما بعد. فعبّر معاوية عن إعجابه بابن مسعود بقوله:

والله إن من فضيلتك عندي معرفتك بفضله.

فلا يعرف الفضل إلا ذووه. ولا يعرف أقدار الرجال إلا الرجال.

ولقد رأينا معرفة معاوية بفضل علي وبطولته وقيادته عندما كان يكلّم قيادات بني أُمية ويواجههم على الموقف العنيف.

* * *

لقد لخص لنا معاوية رضي الله عنه سياسته الفذة مع خصومه وجمهور الأُمة الإِسلامية من خلال لقائه مع عائشة بنت عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

فعن علوان بن صالح بن كيسان أن معاوية قَدِمَ المدينة أول حجة حجّها بعد اجتماع الناس عليه. فلقيه الحسن والحسين ورجال من قريش، فتوجه إلى دار عثمان بن عفان. فلما دنا إلى باب الدار صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها. فقال معاوية لمن معه: انصرفوا إلى منازلكم فإن لي حاجة في هذه الدار. فانصرفوا ودخل مسكن عائشة بنت عثمان، وأمرها بالكفّ وقال لها:

يا ابنة أخي إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلماً تحته غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منّا شحّوا علينا بحقنا وغمطناهم حقهم. ومع كل إنسان منهم شيعته، وهو يرى مكان شيعته، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا؟ وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين أحبّ إليَّ أن تكوني أَمة من إماء المسلمين، ونِعمَ الخلف أنا لك بعد أبيك)[1].

وما نرى بعد كلام معاوية هذا زيادة لمستزيد. إنه لا تغرّه هذه المظاهر الضخمة من الطاعة في الولايات الإِسلامية كلها فهو يعرف القلوب تحمل حقداً عليه. وهو يتعامل بالتحلّم ليستلّ هذا الحقد، وإلا انتقضت الأُمة عليه، لكلٍّ منهم شيعته ويعرف مكان شيعته.

---

(١) البداية والنهاية ١٣٥/٨.

وكما يروى عن الأحنف بن قيس حين استشاره معاوية ذات يوم فقال:

يا أمير المؤمنين إن القلوب التي أبغضناك فيها لا تزال في صدورها، وإن السيوف التي حاربناك فيها لا تزال في أغمادها...

ولا يزال في الأُمة مَن يستطيع أن يحرك مائة ألف سيف دون أن يسألوه عن السبب ومن أجل هذا وجدناه يمسك بأعناق هذه الشخصيات جميعاً دون أن تفلت منه ويبذل لها المعروف والإحسان، ويقدِّر لها قيمتها وفضلها، ولا يبخس شرف واحدٍ منها ولعله كان أجرأ ما يكون على بني عمه. ولو لم يفعل ذلك لركبوا على رقاب الناس، وطغوا باسمه وفي ظل سلطانه.

وهذا جانب آخر من فقه السياسة عنده لرعيته وجنده:

يقول عمرو بن العاص:

رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفِّين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها فوقف في قلب عسكره، فجعل يلحظ ميمنته. فيرى الخلل فيبدر إليه من ميسرته. فتغنيه اللحظة عن الإشارة. فدخله زهو مما رأى. فقال: يا ابن العاص: كيف ترى هؤلاء وما هم عليه: فقلت: والله لقد رأيت مَن يسوس الناس بالدِّين والدنيا، فما رأيت أحداً أُوتي له من طاعة رعيته ما أُوتي لك من هؤلاء. فقال: أفتدري متى يفسد هذا وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا، قال: في يوم واحد! قال: فأكثرت العجب. قال: أي والله وفي بعض يوم. قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين. قال:

إذا كذبوا في الوعد والوعيد. وأُعطوا على الهوى لا على الغناء.

فسدّ جميع ما ترى)[1]. إنه صدق العطاء والمنع، والرغبة والرهبة، والعطاء للكفاءة لا للهوى والمزاج. إنه درس عظيم في السياسة ما أحوج القادة والحاكمين إليه، ويعرفون من خلاله سرّ هذا الملك الذي قاد الأمة عشرين عاماً وحكم ثلث الأرض ودانت له القلوب التي تهتز حقداً عليه، وتتميز غيظاً منه. فكان كما قال فيه الشاعر الأخطل:

تسمـو العيـون إلى إمـام عـادلٍ
معـطي المهابـة نـافـعٍ ضـرار
وتـرى عليـه إذا العيـون لمحنـه
سيمـا الحليـم وهيبـة الجبـار

وكما قال عن نفسه: إني لأستحي أن أظلم مَن لا يجد عليَّ ناصراً إلا الله.

* * *

(١) العقد الفريد ١/٢٥.

إلى الفتوح من جديد

آن الأوان لأن يفرغ المسلمون إلى عدوهم الخارجي ، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ممعناً في بلاد الروم يحمل راية الجهاد التي حملها أبوه سيف الله خالد بن الوليد من قبل .

ولئن كان أبو بكر رضي الله عنه قال :

لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد !!

فلقد انسى معاوية الروم وساوس الشيطان بعبد الرحمن ابن خالد !!

ولئن قال خالد يوم حانت منيته :

والله ما في جسدي مقدار شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

فلقد امتدت أيدي الجبناء إلى عبد الرحمن بن خالد ، وقتلته غيلة بالسم (١) ؛ وذلك حين عجزت الصليبية أن تنال منه وجهاً

---

(١) أورد الطبري رواية يفهم منها أن لمعاوية ضلعاً في موت ابن خالد بالسم ، وأن العملية تمت بإيعاز منه ؛ والرواية ضعيفة ، وفيها مسلمة بن محارب (مجهول لا ذكر له في كل كتب التراجم) . وعلق عليها ابن كثير قائلاً : (وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ، ولا يصح) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١ .

لوجه ، بعد أن خضد شوكتها ، وحطم كبرياءها ، فأوعزت إلى ابن أثال أحد نصارى الشام ، فسقاه شربة فيها سم ، فمات على إثرها متأثراً بسمه . فتحرك خالد بن عبد الرحمن بن خالد من المدينة إلى حمص فقتل ابن أثال ثأراً لأبيه .

وكان بجانب عبد الرحمن بن خالد فرسان آخرون يحملون لواء الجهاد في تخوم الروم وهم : بسر بن أبي أرطاة ، ومالك بن هبيرة السكوني .

ومرت السنوات تترى والجهاد فيها قائم في بلاد الروم ، وكانت سنة تسع واربعين حافلة بالجهاد . فقد ذكر ابن جرير أنه :

(كان فيها مشتى مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم ، وفيها كانت غزوة فضالة بن عبيد جربة ، وشتا بجربة وفتحت على يديه ، وأصاب فيها سبياً كثيراً ، وفيها كانت صائفة عبد الله ابن كرز البجلي ، وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشتا بأهل الشام ، وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتا بأهل مصر ، وفيها كانت غزوة يزيد بن معاوية الروم حتى بلـغ قسطنطينية ومعـه ابن عباس وابن عمـر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصـاري)(١) .

وتحقق موعود الله لهذه الأمة في غزو القسطنطينية مدينـة قيصر ، وشارك في هذا الغزو كبار صحابة رسول الله ، حيث تبدّت وحدة الأمة المسلمة في أروع مظاهرها في هذه المشاركة ، فكان فيهم ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣٢ . سنة تسع وأربعين .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فيما اخرجه البخاري رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام :

(أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) (١) .

وكان هذا أول جيش يغزو القسطنطينية .

وكان هذا إشارة من جانب آخر على مدى الاستقرار والتمكن والألفة التي وصلت إليه الأمة المسلمة بعد أن رقأت جراحها ،وقطعت نزيفها الداخلي .

وكان هذا في الميزان العالمي يعني زعزعة الامبراطورية الكبرى من جذورها ، حين تغزى في عقر دارها ، ويدفن أحد سادات المسلمين ــ أبو أيوب الأنصاري ــ قريباً من أسوارها .

وهناك إشارة كبيرة وخطيرة إلى هذا الحادث الجلل ؛ هذه الاشارة هي بروز شخصية جديدة على المسرح الاسلامي هي شخصية يزيد بن معاوية الذي قاد هذا الزحف إلى القسطنطينية .

فلقد تعرف على كبار الصحابة ، وكبار القادة المسلمين ، واضطلع بمسؤولية ضخمة على مستوى الأحداث ، وتوجهت له الأنظار ، مما هيأ الجو فيما بعد إلى أن يرشحه أبوه أميراً للمؤمنين من بعده .

---

(١) روى أبو داود بسند صحيح أن أول غزو تم للقسطنطينية كان بقيادة عبد الرحمن بن خالد ، فقد أخرج : (غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ... وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد) وكان ذلك قبل عام ست واربعين،أما غزو يزيد فكان عام خمسين للهجرة. سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٨ .

إنه ليس هناك أخطر من هذه المسؤولية التي انيطت به ، واثبت انه كفؤ لها .

كما حدث في هذا العام أن غاب عن الساحة الاسلامية الحسن ابن علي بن ابي طالب سيد شباب اهل الجنة ، والرجل الوحيد الذي استحق من بين المسلمين هذا اللقب ـ سيد ـ كما سماه عليه الصلاة والسلام .

« إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

ولم يتوفّ رضي الله عنه حتى شهد بأم عينه ثمرة إيثاره وحدة كلمة المسلمين على الجاه والسلطان ، ووجد الفتوحات تزلزل مدينة قيصر ، فلقد كانت هذه الثمار المباركة نتيجة حكمته وترفعه عن هواه ، ولنتصور الوضع لو بقي الحسن رضي الله عنه ينازع معاوية الخلافة ، وكيف سيكون التمزق والصراع والدماء !!

ولعل أفضل ما عبر به عن نفسه يوم قال :

(كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ، ويحاربون من حاربت . فتركتها ـ أي الخلافة ـ ابتغاء وجه الله) .

وقوله كذلك :

(خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون الفاً أو ثمانون الفاً أو اكثر أو أقل تنضح أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم اهريق دمه ؟!) (١) .

---

(١) تتضافر الروايات الموضوعة دائماً لتجعل كل شخصية لها وزن خطير في الأمة ؛ تقضي نحبها بالسم عن طريق معاوية . وكأنما ←

كما توفي الحكم بن عمرو الغفاري الصحابي الذي كان يلي أمر خراسان لزياد . وشهدت السنة الخمسون للهجرة تطورات حاسمة ونهائية في موضوع الولايات ، فلقد توفي فيها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الساعد الأشد لمعاوية ، والذي كان يكفيه الكوفة ــ معقل خصومه ــ بالحكمة واللين والمداراة . ومع وفاته كان لا بد لمعاوية ان ينهي أمر المشرق الاسلامي كله ، وأيقن معاوية أن الأمير الذي يليق بهذا المصر العظيم هو زياد بن أبيه ، فهو الرجل العاقل الحازم الشجاع الذي يليق بالإمرة وتليق هي به .

→

الأمر غدا من المسلمات التي لا نقاش فيها ، علماً بأن الروايات التي تذكر ذلك ليس لها سند ، وتبدأ عادة بـ (وسمعت بعض من يقول) . اما اقرب الروايات إلى الصحة في موضوع وفاة الحسن فهي ما رواه عبد الرحمن بن صالح العتكي ــ هو صدوق يتشيع ــ عن أبي أسامة (صدوق) عن ابن عون (ثقة) عن عمير بن اسحاق (مقبول) قال : دخلت انا ورجل آخر من قريش على الحسن بن علي ، فقام فدخل المخدع ثم خرج ، فقال : (لقد لفظت ــ اخرجت ــ طائفة من كبدي اقلبها بهذا العود . ولقد سقيت السم مراراً ، وما سقيت مرة هي اشد من هذه . قال : وجعل يقول لذلك الرجل : سلني قبل أن لا تسألني ــ أي تفقدني ــ فقال : ما أسألك شيئاً ، يعافيك الله ، قال : فخرجنا من عنده ثم عدنا إليه من الغد وقد اخذ في السوق فجاء حسين حتى قعد عند رأسه . فقال : اي أخي ! من صاحبك ؟ قال: تريد قتله ، قال : نعم ! . قال : لئن كان صاحبي الذي اظن لله اشد نقمة . وإن لم يكنه ما احب ان تقتل بي بريئاً .) أورده ابن كثير عن ابن أبي الدنيا بهذا السند في كتابه البداية ج ٨ ص ٤٢ .

وهكذا اصبح زياد بن ابيه امير الكوفة والبصرة ، وما يليهما من أرض خراسان وسجستان والهند .

وهكذا غدا زياد امير المشرق الاسلامي .

ولقد بقي معاوية يخشى انقضاض العراق عليه ، وكان يحس أن في سيف زياد رهقاً وبطشاً ، وكان يود ان تبقى الرهبة في قلوب اهل العراق حتى لا يفتح مجالاً لثغرات داخلية وحروب جانبية .

ويروى انه كتب لزياد قائلاً :

إنــه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحــدة ، باللين فيمرحوا ، ولا بالشدة فيحمل الناس على المهالك . ولكن كن انت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا اللين والألفة والرحمة . حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه (١) .

ولا شك أن قناعة الناس بحلم معاوية رضي الله عنه ولينــه تبقى مجالاً فسيحاً للأمل ان لا يظلموا عنده ، وتجعل لدى الأمــة قناعة انه مهما كانت سلطة الوالي وسطوته فلدى الخليفة في دمشق ما يحقق العدل ، ويغفر الذنب ، ويعفو عن المسيء .

* * *

وماذا عن المغرب الاسلامي ؟؟

كان لعقبة بن نافع رضي الله عنه دور عظيم في افتتاح افريقية ، وعندما احتاج مرة ان ينصب المعسكر في إحدى غابات افريقيا التي تموج بالسباع والحشرات السامة ، تقدم عقبة ومعه بعض الصحابة ونادى قائلاً :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير . ج ٨ ص ١٣٦ .

أيها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ، فارحلوا فإنا نازلون ، فمن وجدناه بَعْدُ قتلناه .

وما هي إلا لمحات قليلة حتى عمّ هذا الخبر أوساط هذه الحيوانات ، فارتحلت تحمل أولادها (١) .



وكانت سياسة معاوية أمير المؤمنين تقوم على اختيار أعظم الكفاءات وتقليدها أعظم المسؤوليات ، فجمع المغرب الإسلامي كله ؛ مصر وبرقة وافريقية وطرابلس إلى مسلمة بن مخلد .

وهكذا توزع الشرق الاسلامي والمغرب الاسلامي بين مسلمة وزياد ، وبقيا في مسؤوليتهما حتى وفاة معاوية رضي الله عنه بالنسبة لمسلمة بن مخلد وحتى وفاة زياد بالنسبة إلى زياد .

وهكذا قبع الأعداء مذعورين ؛ خاصة الروم الذين كانوا يفكرون في الانقضاض على الدولة الاسلامية منذ ايام الفتنة بين المسلمين في الجمل وصفّين (٢) ، وما إن تفرغ معاوية لهم حتى جعل شأنه أن يقض مضجعهم في عقردارهم .

---

(١) عن كتاب : « اسباب سعادة المسلمين » صفحة ٥٩ طبعة دار القلم بدمشق .

(٢) لما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد بجنود عظيمة وطمع فيه . فكتب إليه معاوية :

(والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصطلحن انا وابن عمي عليك ، ولأخرجنّك من جميع بلادك ، ولأضيقنّ عليك الأرض بما رحبت .) فعندئذ خاف وبعث يطلب الهدنة .

يقول أبو زرعة عن دحيم عن الوليد عن سعيدبنعبدالعزيز قال:

لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو حتى كان عام الجماعة، فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف ويشتوا بأرض الروم ثم تقفل وتعقبها أخرى . وكان في جملة مـن أغزى ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة ، فجاز بهم الخليج ، وقاتلوا اهل القسطنطينية على بابها (١) .

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٣٣ .

هزّة جديدة من الدّاخل

كانت هذه الهزة مقتل حجر بن عدي :

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن محمد بن سيرين (١) قال : خطب زياد يوماً الجمعة ، فأطال الخطبة وأخر الصلاة ، فقال له حجر بن عدي : الصلاة ! فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبته . فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كفٍ من الحصى ، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره ، وكثّر عليه .

(فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم احمله إلي .)

فلقد كانت الصورة التي بلغت معاوية رضي الله عنه ــ على ما يبدو ــ توحي بأن الكوفة على وشك الخروج عليه . ولأول مرة نجد لمعاوية موقفاً مغايراً لطبيعته وحلمه . ولقد تناقلت الآفاق موقف حجر بن عدي ، لأن الكوفة كما قلنا من قبل هي معقل الخصوم ، فأي موقف علني سرعان ما تتناقله الركبان ، يتوقعون

---

(١) أورده ابن جرير عن علي بن حسن (مقبول) عن مسلم الجرمي (مجهول) عن مخلد بن الحسن (مقبول) عن هشام بن عروة (ثقة ربما دلّس) عن محمد بن سيرين (ثقة ثبت) . وهو أقرب الأسناد إلى الصحة .

من خلاله حدثاً جديداً تتلوه احداثٌ جسامٌ ... تغـير موقف معاوية هذه المرة .

وبلغ الخبر ام المؤمنين عائشة ، فسارعت وارسلت عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام إلى معاوية تسأله أن يخلي سبيل حجـر ومن معه (١) .

ولكن هيهات فلم يصل رسول ام المؤمنين إلى معاوية إلا وقد افلت الأمر من يده .

ويتابع ابن جرير حديثه قائلاً :

فكتب إليه معاوية أن شدَّه في الحديد ، ثم احمله إلي . فلما ان جاء كتاب معاوية اراد قوم حجر ان يمنعوه فقال :

لا ، ولكن سمع وطاعة .

فشد في الحديد ، ثم حمل إلى معاوية .

فلما دخل عليه قال :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال له معاوية : أمير المؤمنين ؟!!

أما والله لا أقيلك ولا استقيلك .

اخرجوه فاضربوا عنقه .

فأخرج من عنده .

---

(١) اورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٤ عن محمد ابن سعد في الطبقات عن بعض أهل العلم .

وظاهر من موقف معاوية رضي الله عنه انه موقف الغضبان المنزعج ؛ وذلك لأن كل الأجواء والدلائل تشير إلى اتهام حجر ، فلم يكن نكرة بين الناس ، وكان معروفاً بأنه من اشد شيعة علي واقواهم شكيمة ، وهو لا يخفي حبه لعلي وولاءه له حتى أمام الولاة . وكان المغيرة بن شعبة كثيراً ما ينصحه في إخفاء موقفه العلني فلايستجيب، ولم يكن المغيرة راغباً في الوقت نفسه في فتح معركة مع حجر وشيعة علي خلفه ، إذ قال المغيرة :

إنه قد اقترب اجلي ، وضعف عملي ، ولا احب ان ابتدىء اهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك واشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة . ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت .

لكن سياسة زياد تختلف عن سياسة المغيرة ، ومع هذا لم يجرؤ أن يتصرف بشيء دون إذن معاوية .

واندفع معاوية في موقفه .

وها هو حجر يلقى مصيره .

وقال حجر للذين يلون امره : دعوني حتى أصلي ركعتين .

فقالوا : صلِّ .

فصلى ركعتين خفّف فيهما ، ثم قال :

(لولا أن تظنوا بي غير الذي انا عليه لأحببت ان تكونا اطول مما كانتا) !!

إنه يمضي على سنة خبيب رضي الله عنه الذي ســن ركعتي الموت ، وكانتا ركعتين قصيرتين من خبيب كذلك . وقال :

لولا أن تروا ان ما بي جزع من الموت لزدت .

وهو ما عناه حجر رضي الله عنه،خشي أن يظنوا أن خوف الموت هو الذي دفعه إلى إطالة الصلاة ، إنه احب أن يقابل وجه ربه في آخر لحظات حياته ، ثم استعاد شريط حياته في لحظات قصاروقال:

ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير ، فما في هاتين خير .

وجاؤوا إليــه يفكون وثاقه ، ولمعت في ذهنه بارقة ، فقال لهم في عزمة صادقة وثقة بحقه وموقفه :

لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً . فإني الاقي معاوية غداً على الجادة .

ثم قـدِّم فضربت عنقه !!

وكان معاوية قد جلس بعدما غادره الجند الذين أوكل لهم قتل حجر بن عدي وأصحابه وكانوا أربعة عشر رجلاً . وراح يراجع رأيه وموقفه ، ثم غلب حلمه عليه ، واحب أن يحقن دماءهم ، فلم يضع دمهم في عنقه ؟

الا يمكنه ان يسجنهم ، أو يفرقهم في الأمصار ، فيسكت الفتنة ويجتثهـا ؟!

الم تنجح هذه الخطة معه مع جميع خصومه دون أن يهريق دم احــد ؟ .

ثم استقر رأيه على ذلك بعد حديث نفسي طويل ، وقــرر إنقاذ حياة القتلى قبل إنفاذ القتل ، فبعث رسولاً بذلك على عجل .

ووصل رسول معاوية بأمره إلى الجند . بَيْد أن الأمر كان قد أفلت من يده ، فقد كان القوم قد لقوا مصرعهم ، ومضى حجر إلى ربه شهيداً بأصفاده ، ومضى معاوية قلقاً مهموماً كلما عاد حجر إلى ذاكرته هو وصحبه .

وسادت الأمة المسلمة موجة الم وهم لما نزل بحجر .

حتى كان مقتل حجر بن عدي من اكبر ما أخذ الصالحون على معاوية رضي الله عنه ، فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها آلمها كثيراً مصرع حجر ، والحسن البصري كان يأخذ على معاوية فيما يأخذ قتله حجر بن عدي .

ومعاوية رضي الله عنه كان يأخذ فيما يأخذ على نفسه قتله حجراً ، ويقول :

يومي منك يا حجر يوم طويل (١) .

* * *

(١) أورده ابن جرير عن ابن سيرين في تتمة الرواية السابقة ٢٥٦/٥ .

لِقَـاءٌ مَعَ قادَةِ الأُمَّـةِ

كان معاوية رضي الله عنه قد أجرى هذا اللقاء عندما حج وزار مكة والمدينة وذلك بعد مقتل حجر بن عدي ، فقد التقى بالحسين وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . وها هو يجد نفسه الآن تتوق إلى حـج بيت الله الحرام ، وإلقـاء أوزاره التي تصدر عنه بصفته بشراً يخطىء ويصيب .

لقد أحس بأشواق روحية تدفعه إلى هذه الأماكن المقدسة ، ولعل مايعانيه من مقتل حُجر وصحبه مايزال يؤرقه ، فهو يطمع أن يلقى قادة الأمة ، فيعتذر لهم عن هـذا الحدث الجلل . وكان ما عزم عليه ، فحج بالمسلمين هذا العام ، ثم مضى إلى المدينة .

وكان أهم مايخشاه لقاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فهو يعرف موقفها العنيف من مقتل أخيها محمد بن أبي بكر ، وهو يود أن تكون له سنداً وعوناً في حكمه ، فلو اتخذت موقفاً معادياً منه لزعزعت بنيان حكمه .

وها هـو يستأذن على عائشة فتتردد أولاً في الإذن لـه ، ثم تسمح له بذلك .

قالت عائشة : اقتلت حجراً ؟!

قال : يا أم المؤمنين إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحيائه في فسادهم (١) .

عائشة : يا معاوية قتلت حجراً وأصحابه ، وفعلت الذي فعلت ، أما خشيت أن أخبأ لك رجلاً يقتلك ؟!!

وصمت معاوية قليلاً وقال :

لا . إني في بيت الأمان .

---

(١) لاشك أن الفساد المقصود هنا هو إثارة الناس على الحكم وخلق فتنة جديدة ، وهذا مرتبط بصحة المعلومات الواردة لمعاوية رضي الله عنه في هذا الموضوع ، ولا يبعد أن يكون فيها شيء من المبالغة ، وهذا لا مسؤولية على معاوية فيه ، لقد وجدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقع في بعض الأخطاء في القتل حتى ليتبرأ رسول الله ﷺ من صنيعه في بني جذيمة قائلاً :

(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) !!

ووجدنا عمر رضي الله عنه يطالب بعزل خالد في قضية الأسرى الذين قتلوا خطأً ، قائلاً لأبي بكر : اعزله إن في سيفه لرهقاً .

فكان جواب الخليفة العظيم لعمر رضوان الله عليه :

تأوّل فأخطأ ، كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين !!

ولعل معاوية رضي الله عنه تأول فأخطأ ، كما قال في بعض اعتذاراته :

إنما قتلهم من شهد عليهم .

ومما قاله فيما روي عنه : إن يقتل رجل واحد خير من أن يقتل مائة ألف .

فتعود الدماء من جديد لاترقأ في الأمة ولا تصان .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) .

عائشة : أين ذهب عنك حلمك يا معاويـة حين قتلت حجراً واصحابه ؟!

معاوية : حين غاب عني من قومي مثلك يا أماه .

وسادت فترة صمت قصيرة ، ثم قطعها معاوية قائلاً :

فكيف بري بك يا أماه ؟

عائشة : إنك بي لبار .

معاوية : كيف انا فيما سوى ذلك من حاجاتك وأمرك ؟

عائشة : صالح .

معاوية : فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عزوجل (١) .

وغادر معاوية حجرة عائشة رضي الله عنها ، واتاه وجوه أهل المدينة يسلمون عليه ، فاستقبلهم وبشّ لهم،ثم اتى مسجد الرسول ﷺ وصعد المنبر ، فأعلن سياسته على المسلمين بمصارحة تامـة ووضوح عجيب ، ووضع نفسه في الموضع الملائم ، بـلا غرور ولا تغطرس ولا كبرياء ، وبتواضع متناهٍ وحكمة بالغة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

---

(١) ورد هذا في روايات عديدة وصحيحة ، منها رواية للامام أحمد بسنده عن ابن أبي مليكة .

أما بعد : فإني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنكم لاتسرون بولايتي ولا تحبونها ، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك ، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة .

ويقف المرء أمام هذا التصور موقفاً متأنياً ويتساءل :

لم كان أهل المدينة لايحبون إمرة معاوية ؟!!

والجواب بيّن واضح :

فلئن كانت الكوفة مركز شيعة خصمه وهم الآن جنود وأتباع، فإن المدينــة المنورة مركز القيادات الإسلامية ومستودع الأكفـاء الذين يضارعون معاوية ؛ بل ويسبقونه جهاداً وسابقة وبلاءً .

لايزال في المدينة إلى الآن سعد بن أبي وقاص وهو من أهــل الشورى الستة،ولا يزال فيها سعيد بن زيد أحد المبشرين العشرة.

ولا يزال فيها أنصار رسول الله وعدد من المهاجرين ، وبقية أهل بدر ، وبقية أهل بيعة الرضوان .

إن المدينة هي التي كانت تفرز القادة والولاة ، والحاكمين .

أو ليس معاوية وكثير من ولاته هم من تربية المدينة المنورة ونتاجها المبارك ؟ . وانتقال السلطة من المدينة إلى الشــام يعني الانتقال من الخلافة إلى الملك ، وهذا ما صارح به معاوية الأمــة وقادتها بقوله :

(ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه ، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك ، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت عليَّ،

وأين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على أعمالهم هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم ؟ رحمة الله ورضوانه عليهم) .

إنه يعلن على الأمة أن الخلافة مضت مع ذلك الرعيل ، وأنه لن يقدر أن يكون على مستواهم . فكيف يكون الوضع اليوم ؟ يقول :

(غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مواكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة) .

إنه يعلن خطته الاقتصادية في توفير الرفاه للأمة ، ويرى ارتباط هذا بالاستقامة على منهج الله من قبل الحاكمين ، والطاعة في المعروف من المحكومين .

ولا ينكر على الناس أن يعتقدوا أن فيهم من هو خير منه ؛ فهذا حق شخصي لكل فرد ، لايتدخل فيه ، بل هو لايخالف في واقع هذا الأمر . إذ يقول : (فإن لم تجدوني خيركم ، فأنا خير لكم) .

ويعلن سياسته الأمنية فيقول :

(والله لا أحمل السيف على من لاسيف معه . ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دُبُر أذني) .

ويعلن لهم أن حقهم محفوظ ، ولن يألو جهداً في إبلاغهم إياه ، ولكن نقصان هذا الحق لايقتضي الفتنة والثورة ، لأن الفتنة تأكل النعمة ، وتورث النقمة ، وتأكل الأخضر واليابس ، فيقول :

(وإن لم تجدوني أقوم بحقكم فارضوا مني ببعضه . فإنها

بقابية (١) قوبها ، وإن السيل إذا جاء يبرى ، وإن قل أغنى ــ أي أن الفتنة إذا خرجت فلن تنتهي إلا بالإفناء ــ وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ؛ فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال .

أستغفر الله لي ولكم ، أستغفر الله (٢) .

ثم نزل .

لقد كانت روح هذا البيان تختلف تماماً عن روح البيان الذي قدمه زياد :

بيان زياد ، تظهر منه روح السطوة والسلطة على قوم عاث سفهاؤهم فيهم فساداً .

أما روح بيان معاوية رضي الله عنه فهي أشبه باعترافات لأهل الحقوق بحقوقهم ، وإجلال لقادة الأمة في مراكزهم .

ونتساءل عن أهل المدينة وخليفتهم الراحل علي رضي الله عنه الذي كان آخر العقد في المدينة .

---

(١) قابية : البيضة . القوب : الفرخ (ويعني بانبثاق الفتنة من مهدها . كخروج الفرخ من البيضة) .

(٢) أورد ابن كثير هذه الخطبة عن الأصمعي (ثقة) عن الهذلي (إخباري) عن الشعبي (ثقة). غير أن فيها إشكالاً هو أنها ذكرت في عام الجماعة ؛ علماً بأن معاوية رضي الله عنه لم يحج إلا عام اربعة واربعين وعام خمسين أو واحد وخمسين . وارجح أنها تمت في أحد هذين العامين . ونحن لا يضيرنا العام الذي قيلت فيه لأنها تمثل عرضاً نفسياً لطبيعة معاوية أياً كانت السنة التي قيلت فيها .

فلم يذكر معاوية علياً في خطبته ؛ لانه في الأصل لم يعترف بخلافتـــه .

وكان لابد ان يتعرف على راي خاتمة هذا العقد ، على راي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه احد المرشحين السابقين للخلافة .

وتمت المقابلة بين الشخصيتين .

وبعد حديث قصير أحب معاوية أن يعرف مكنون قلب سعد ، فما امهله ان سأله :

ــ مالك لم تقاتل معنا ؟

سعد : إني مرت بي ريح مظلمة فقلت : أخ أخ ، فانخت راحلتي حتىانجلت عني ، ثم عرفت الطريق فسرت .

معاوية : ليس في كتاب الله أخ أخ ، ولكن قـــال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلـوا فأصلحـوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ...)؛ فوالله ماكنتَ مع الباغية على العادلة ، ولا مع العادلة على الباغية .

سعد : ماكنت لأقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ : أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لانبي بعدي !!

معاوية : من سمع هذا معك ؟

سعد : فلان وفلان وام سلمة .

معاوية : اما إني لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت علياً (١) .

---

(١) رواه كثير النوري عن عبد الله بن بديل . أما كثير النوري: فلم أعثر على اسمــه في تاريخ الرجال ، واما عبد الله بن بديل : فصدوق يخطىء . (البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٧) .

وهكذا وبكل بساطة يقول الحق ويعتذر لأهله ، ولا عجب من ذلك فالزبير عندما قال له علي : أما تذكر يا زبير يوم قال لك رسول الله ﷺ : إنك ستقاتل علياً وأنت ظالم له ؟!

فقال الزبير يومها : لو ذكرت هذا ما خرجت إليك .

إنه الجيل الذي يعيش بالحق ومع الحق ، ولا يجد غضاضة في أن يؤوب إلى الحق ويذل نفسه للحق[1].

---

(١) روى الترمذي عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «أمَّر معاوية بن أبي سفيان سعداً. فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال:

أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم:

سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي وخَلَفَهُ في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله تخلِّفني مع النساء والصبيان فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوّة بعدي وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله فقال: فتطاولنا لها، فقال: ادع لي علياً. فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفع الراية إليه. ففتح الله عليه. وأنزلت هذه الآية: ﴿ قل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحُسيناً فقال: اللّهمّ هؤلاء أهلي».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

لقد كانوا كما وصفهم الله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معــه اشداء على الكفار رحمــاء بينهم ...) .

وكما وصفهم في مكان آخر :

(أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ...) .

وكانوا بحق خير القرون على مدار التاريخ .



يزيد بن معاوية وليٌّ للعهد

العام تلو العام يمر، والأمن يضرب بجرانه في الأرض الإسلامية، والفتوحات تمتد في المشرق والمغرب، والمجاهدون على الثغور مرابطون في سبيل الله .

ونظر معاوية في نفسه ، فرأى أنه يدلف إلى السبعين ، وقد ناءت به السنون ، وطال به العهد ، فراح يفكر في حال الأمة بعد موته كيف تؤول ؟ . كما أن ولاته الكبار قد تقدموا في العمر ، ولابد أن يمارس الجيل من الشباب مسؤولياته ، خاصة بعد وفاة أمير المشرق زياد بن أبيه .

لقد حرص معاوية منذ لقائه مع عائشة رضي الله عنها على التأسي برسول الله ﷺ ، فأرسل إليها قائلاً : أن أرسلي لي بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره .

يقول راوي الحادثة :

(فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت به عليه ، فأخذ الانبجانية فلبسها ، وأخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده[1] ثم احتفظ بالشعر عنده .

---

(1) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج٨ ص١٣٢ عن خالد ابن محمد البجلي (صدوق يتشيع) عن سليمان بن بلال (ثقة) عن علقمة بن أبي علقمة (ثقة علامة) عن أمه واسمها مرجانة (مقبولة).

وكان لايدع فرصة تفوته يستمع فيها إلى صحابة رسول الله ﷺ ، يستشيرهم ويستأنس برأيهم .

هذا المسور بن مخرمة رضي الله عنه يفد على معاوية ، وكان يعلم أن المسور لايفتأ يوجه نقده للخليفة وولاته ، فكانت فرصة سانحة أن يفتح معه هذا الحوار :

معاوية : مافعل طعنك على الأئمة يا مسور ؟

المسور : ارفضنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له (فهو يريد صرف معاوية عن الحديث) .

معاوية : لتكلمني بذات نفسك .

يقول المسور : فلم أدع شيئاً أعيبه عليه إلا أخبرته به .

وساد الجو صمت قصير ، ثم رفع معاوية نظره للمسور وقال له في ثقة وعيناه مركزتان فيه :

فهل لك من ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟

المسور : نعم : إن لي ذنوباً إن لم يغفرها هلكت بسببها .

وأحس المسور وهو يرد الجواب أنه قد أفحم ، لكنه تابع نظره بمعاوية الذي قال له :

فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة أكثر مني ؟؟

ولم يحر المسور جواباً . لكن معاوية مضى في جوابه باندفاع وحرارة يقول :

فوالله لما إلي من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والإصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لايحصيها إلا الله ، ولا تحصيها ؛ اكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

واطرق المسور ملياً يفكر ، ومعاوية لايزال ماض في حديثه :

وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات. والله على ذلك ماكنت لأخير بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله على غيره مما سواه .

واستأذن المغيرة ، ودخل على معاوية ، وكان المسور قد أحرجته كلمات معاوية ، فما عاد يطيق المكث عنده ، فخرج .

يقول المسور رضي اللهعنه يصف ماجرى له بعد الحديث مع معاوية :

ففكرت حين قال لي ما قال ، فعرفت أنه قد خصمني .

قال : فكان المسور إذا ذكره بعد ذلك دعا له بخير (١) .

* * *

كان أهم مايشغل بال معاوية : من يستخلف بعده ؟

كان يستعرض في ذهنه القادة المرموقين فيالساحة الإسلامية، فيراهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس .

---

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٣ . عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن . عن المسور بن مخرمة . ورجال السند كلهم عدول ثقات .

لكنه كان يرى في نفس الوقت أن الأمر لا ينضبط لأي واحد منهم ، فقد تقع الأمة في خلافات ومحن جديدة ، وفي حروب تأكل فيها بعضها بعضاً ، وكفاها ماقدمت من تضحيات . إن يزيد ابنه ليس نِدّاً لهؤلاء ، ولكنه مع ذلك أهل للمسؤولية .

فلقد مارس مسؤولية ضخمة وأثبت جدارته لها يوم حاصر القسطنطينية ، وكانت تلك الغزوة قمينة بأن توجه الأنظار إليه ، خاصة انه التقى فيها مع كبار المجاهدين وسادة المسلمين .

لكنه في هذا يسن سنة جديدة لم يسنها أحد قبله .

أن يجعل في حياته ولاية للعهد أولاً .

وأن يكون ولي العهد ابن امير المؤمنين ثانياً .

ومع ذلك فقد احب أن يتعرف على آراء بعض الصحابة في المدينة ؛ فبعث إلى واليه هناك : أن أوفد لي من شاء .

وكان الوافد الآخر :

(فوفد له عمرو بن حزم الأنصاري يستأذن ، فجاء حاجب معاوية يستأذن فقال :

هذا عمرو قد جاء يستأذن .

معاوية : ماجاء بهم إلي ؟

قال : يا امير المؤمنين يطلب معروفك .

معاوية : إن كان صادقاً فليكتب إلي فأعطيه ما سأله ، ولا أراه .

قال فخرج إليه الحاجب ، فقال : ماحاجتك ؟ اكتب ماشئت) فانفعل عمرو بن حزم رضي الله عنه وقال للحاجب :

(سبحان الله أجيء إلى باب أمير المؤمنين ، فأحجب عنه ، أحب أن ألقاه فأكلمه .

قال معاوية للحاجب : عده يوم كذا وكذا ، فإذا صلى الغداة فليجىء) .

ومضى عمرو مهموماً لهذا الإرجاء ، وكاد يقطع زيارته ويمضي إلى المدينة ؛ لولا أنه كان يشعر أن عنده رأياً خطيراً يود أن يقولـه لمعاوية ، ومرت الساعات ثقيلة عليه لكنه كان يحتسبهـا عند الله ، وحانت صلاة الغداة .

(فلما صلى معاوية الغداة ، أمر بسريره ، فجعل في الإيوان . ثم يخرج الناس عنه فلم يكن عنده إلا كرسي وضع لعمرو . فجاء عمرو فاستأذن ، فأذن له ، فسلّم عليه ثم جلس على الكرسي ، فقال له معاوية : حاجتك ؟

قـــال :

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب من قريش، غنياً عن المال ، غنياً إلا عن كل خير . وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن الله تعالى لم يسترع عبداً رعية إلا وهو سائله عنهـا يوم القيامة ، كيف صنع فيها ؟ .

وإني أذكرك الله يا معاوية في أمـة محمد ﷺ مـن تستخلف عليهـا) . وانتهى كلامه ، ونظر إلى معاوية مـا يكون منه ، ولا يضيره ذلك بالغاً ما بلغ .

اطرق معاوية ، ثم رفع رأسه وشهق شهيقاً طويلاً كاد يغيب فيه عن وعيه ، (فأخذه ربو ونفس في غداة قرٍّ (برد) حتى عرق ، وجعل يمسح العرق عن وجهه ملياً ، ثم أفاق) .

لقد كان الأمر يملك عليه حياته ، فلم يفكر في استخلاف يزيد إلا بعد دراسة مستأنية وطويلة ، وانتهى به التفكير إلى هذا الرأي .

فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

(أما بعد فإنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك بالغاً مابلغ) .

فلقد أسعده جراة عمرو بن حزم وتذكيره له بربه .

وتابع قائلاً : (.. وإنه لم يبق إلا ابني وابناؤهم ، فابني أحق من أبنائهم .

حاجتك .

قال عمرو : مالي حاجة .

قال : قم .

فقال له اخوه : إنما جئنا من المدينة نضرب اكبادها من أجل كلمات ؟!

قال : ماجئت إلا للكلمات ..

قال : فأمر لهم بجوائزهم ، وامر لعمرو مثلها (١) .

عمرو بن حزم يضرب اكباد الإبل من المدينة للشام ليذكر معاوية بحديث رسول الله ﷺ ، وليطلب منه أن يستأني قبل ان يعلن قراره

---

(١) مجمع الزوائد عن ابن سيرين ج٤ . سكت عنه البوصيري. وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

الآخير ، لأن الله سائله عن هذه الأمة من استخلف عليهـا . عمرو هذا يتجشم هذا السفر الطويل ليقول كلمة الحق ، لايخشى في الله لومة لائم ، بالغاً مابلغ . لأنه يعلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ولا بد من نصيحة الإمام استجابة لله ورسوله .

وهذا الخليفة يجد من يتحرك إلى المدينة ليذكره بالله ورسوله، وأن يحسن اختيار الخليفة من بعده . فيشكر له نصحه ، ويشكر له جهده ، ويعطيه جائزته كما يعطيها للوفد غير منقوصة درهماً واحداً عن إخوانه .

ويعلم معاوية رضي الله عنه أن المعارضـة ليزيد إن وجدت ، فلن توجد إلا مـن قـادة الأمة : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي بن أبي طالب .

والمدينة هي المركز الوحيد الذي فيه صفوة خيار المسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ فلابد مـن مواجهة الموقف والمسير إلى المدينة لأخذ البيعة بشخصه لأنه لن يستطيع هذا الأمر أحد غيره .

ومما يسعدنا أن يكون بين أيدينا رواية للمحدثين تصور كيف أخذ معاوية هذه البيعة ، وهي أصح ماورد في هذا الموضوع :

فعن ذكوان مولى عائشة قال : لما أجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حج فقدم مكة في نحو من الف رجل ، فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فلما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ابنه يزيد فقال : من أحق بهذا الأمر منه ؟ !

ثم ارتحل فقدم مكة فقضى طوافه ، ودخل منزله فبعث إلى ابن عمر ، فتشهد وقال :

أما بعد يابن عمر فإنك كنت تحدثني انك لاتحب ان تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير ، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين ، وأن تسعى في فساد ذات بينهم .

فلما سكت تكلم ابن عمر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

(أما بعد : فإنه قد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا في أبنائهم ما رايت انت في ابنك ، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار) .

لقد أدى ابن عمر رضي الله عنهما نصيحته ، وقال كلمة الحق لايهاب لومة لائم ثم قال :

(وإنك تحذرني ان اشق عصا المسلمين ، وأن اسعى في فساد ذات بينهم ؛ ولم أكن لأفعل ، إنما انا رجل من المسلمين ، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما انا رجل منهم) .

وهذه هي وجهة نظر ابن عمر رضي الله عنهما في مواقفه دائماً .

لن يكون أساساً لشق عصا المسلمين .

(وارسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، فتشهد واخذ في الكلام . فقطع عليه كلامه فقال : إنك والله لوددت أن وكلناك في أمر ابنك إلى الله ، وإنا والله لانفعل . والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين او لنعيدنها عليك جذعة . ثم وثب فقام) .

وموقف ابن أبي بكر رضي الله عنهما موقف واضح صريح . لا بد من تطبيق منهج الخلافة ، من تطبيق الشورى في الحكم ، أو الحرب إن لم يكن ذلك .

فقال معاوية : اللهم آلفنيه بما شئت ، ثم خاطبه معاوية :

على رسلك ايها الرجل ، لا تشرفنّ بأهل الشام ؛ فإني اخاف أن يسبقوني بنفسك ، حتى أخبر العشية انك قد بايعت . ثم كن بعد ذلك على ما بدا لك من امرك) .

إن معاوية قد خشي على حياة ابن ابي بكر ، فسارع إلى نصحه أن لا يواجه جماعة الشام بأفكاره ، وترك له أن يتصرف كما يحب بعد إظهار البيعة .

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال :

يا ابن الزبير ، إنما انت ثعلب روّاغ ، كلما خرج من جحر دخل آخر ، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين ــ ابن عمر ، وابن ابي بكر ــ فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رايهما .

فتكلم ابن الزبير فقال :

إن كنت قد مللتَ الإمارة فاعتزلها ، وهلمّ بنا ابنك فلنبايعه ! ارايت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ؟ لأيكما نطيع ؟! لا نجمع البيعة لكما والله أبداً) .

لقد واجه ابن الزبير رضي الله عنهما الأمر من طرف آخر ، من باب الإنكار على اجتماع البيعتين في وقت واحد ، ورفض هذا المنطق الجديد الذي لم يسبق له احد .

إن معاوية بين امرين : إما ان يفرض البيعة بالقوة على معارضيه وهو مقتنع فيها ، وهذا قد يقود إلى إزهاق ارواح أكرم الشخصيات الإسلامية وهذا مالايرضاه ابداً ، ولا شيء أكره له من ذلك .

وإما ان يترك هؤلاء بلا بيعة فيشقون عصا الطاعة ، وقد يقود هذا إلى ان تراق دماء الأمة كلها في تحزبها لقيادات جديدة .

لقد كانت وجهة نظره أن يسكت قادة الأمة على البيعة فلا يشقون عصا الطاعة ، ولا يذلون في البيعة ، وهذا الذي سارع إلى تنفيذه :

(ثم قام فراح معاوية فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ؛ زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد ! قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له .

فقال أهل الشام : لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم . فقال :

مَه ، سبحان الله ، ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء ! لا أسمع هذه المقالة من أحدٍ بعد اليوم . ثم نزل .

فقال الناس : بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ، ويقولون : لا والله ما بايعنا . ويقول الناس : بلى لقد بايعتم . وارتحل معاوية فلحق بالشام)(١) .

ثم ما هي وجهة نظر معاوية في ولاية يزيد للعهد ؟

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط عن وهب بن جرير (ثقة) عن جرير بن حازم (لا بأس به) عن النعمان بن راشد (صدوق فيه ضعف) عن الزهري (الفقيه الحافظ الثقة) . أما الرواية الثانية التي تشير إلى تهديدهم بالقتل فهي مروية عن أشياخٍ من المدينة مجهولين فلا يمكن الاطمئنان إليها (عن وهب بن جرير عن جويرية ابن أسماء عن أشياخٍ من المدينة) .

فلقد كانت بيعة يزيد في حقيقة الأمر من علائم الملك لا من علائم الخلافة ، إنه لا غضاضة أن تتم البيعة في حياة معاوية لأحد قادة الأمة كي يطمئن على الأمة بعد وفاته ، فلقد استخلف قبله من هو خير منه كما فعل الصديق رضي الله عنه .

ولا غضاضة أن يدع الأمر بعده للمسلمين ، فلقد ترك رسول الله ﷺ الأمر للمسلمين من بعده .

ولا غضاضة أن يحدد الأمر في قادة المسلمين من بعده كما فعل من هو خير منه الفاروق رضي الله عنه .

أما أن تكون البيعة لولده من بعده من جهة ، وأن تحدد به في حياة الخليفة نفسه من جهة ثانية ؛ فهو الشيء الخارج على الأصول المرعية في الخلافة الإسلامية ، وهو أشبه ما يكون بالملك لا بالخلافة، وهذا ما حدا ببعض المسلمين أن يطلق على هذا التصرف : هرقلية وكسروية ؛ كلما مات قيصر قام قيصر .

ونعود لنتساءل ثانية : ما هي وجهة نظر معاوية في ولايته للعهد ؟

إن الفتن التي تلاحقت يتلو بعضها بعضاً جعلت من الصعوبة بمكان أن يلتقي المسلمون على خليفة واحد ، خاصة والقيادات الإسلامية المتكافئة في الإمكانيات قد يضرب بعضها بعضاً ، فتقع الفتن والملاحم بين المسلمين مرة ثانية ، ولا يعلم إلا الله مداها .

ومرور قرابة عشرين عاماً ، وذات البين حسنة ، وطاقات المسلمين موجهة إلى عدوهم ؛ هو نموذج رائع لوحدة الكلمة بين المسلمين .

هذا من جهة .

ومن جهة ثانية :

فإمكانيات الحكم ورجاله وسلاحه كلها متوفرة في الشام ، وبنو أمية عصب الملك قد تمرسوا بمسؤوليات الحكم ، وخبروا أساليبه . وجمهور قاعدة الحكم من الجنود وأجهزة الدولة قد انصاعوا على الولاء لمعاوية رضي الله عنه ، فأي تغيير جديد في هذه الأجهزة قد يعيد البلبلة والفوضى من جديد .

وكون يزيد بن معاوية قد تمرس بالسلطة وخبر أساليبها ومارس جوانب من مسؤولياته فيها ، وعرف فنونها وطرائقها ، وقاد الجيوش ، وحاصر العدو ، وعرف نكايته وأساليبه وطرائقه ؛ كان هذا كافياً لأن يقع اختيار معاوية على يزيد .

لقد كانت هذه القناعة واضحة في خط معاوية السياسي كله .

فلقد ذكر ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي قول معاوية :

يا أيها الناس : ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني . عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل . ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم في عدوكم ، وأدرّكم حلباً (١).

ولا ننكر أبداً دور العاطفة البشرية من الأب لابنه ، فقد ساهمت مع الأسباب السابقة في اختيار يزيد ولياً للعهد .

وإنكار دور العاطفة البشرية إنكار لا مبرر له ، وحصر الأسباب من خلال هذه العاطفة هو تعصب كذلك لا مبرر له ، فثقة معاوية بكفاءة يزيد ثقة جيدة .

---

(١) رواه أصحاب محمد عن ابن سعد عن محمد بن مصعب (صدوق كثير الغلط) عن أبي بكر بن أبي مريم (ضعيف) عن ثابت مولى معاوية (البداية والنهاية ج٨ ص١٣٤) .

ولكننا حين نقارن بين الموقفين : موقف علي وموقف معاوية : نلاحظ الفرق بين الملك والخلافة .

علي رضي الله عنه يسأله المسلمون وهو على فراش الموت : أنولي الحسن بعدك ؟

فكان جوابه : لا آمركم ولا أنهاكم .

فرغم ثقته بكفاءة ابنه الحسن ؛ لكنه ابتعد عن ذلك لئلا يكون للعاطفة الأبوية دور في هذا التوجيه ، وأعلن رأيه بصراحة تامة : لا آمركم ولا أنهاكم .

فالأمر أمر المسلمين ، وهم أدرى بشؤونهم منه ، وهو متجه إلى جوار ربه .

يقول ابن كثير رحمه الله :

(فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية ، ورأى أنه لذلك أهلاً ، وذلك من شدة محبة الوالد لولده ، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية ، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك ، والقيام بأبهته . وكان ظن أن لا يقوم أحد من ابناء الصحابة في هذا المعنى . ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به :

إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع) (١) .

ولقد صدّق الواقع حدس معاوية ونبوءته ؛ فبعد هلاك يزيد ابن معاوية ماذا كان الأمر ؟ العراق والحجاز لعبد الله بن الزبير ، والشام لعبد الملك بن مروان .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٨٠ .

ووقعت دماء وسالت أنهاراً حتى انتصر عبد الملك على خصمه عبد الله بن الزبير .

وتلك العراق التي أقضّت مضجع الخلافة الإسلامية ، هي نفسها التي تعلن الثورة على يزيد ، وتستدعي الحسين بـن علي رضي الله عنهما ، ثم تقوده إلى الذبح متخلية عنه ؛ بعد أن منحوه قلوبهم وشهروا عليه سيوفهم .

وعندما دعي ابن الزبير رضي الله عنه إلى أن يمضي إلى الشام، رفض ذلك ؛ لأن اركان الحكم في الشام وجنوده وأعـوانه لا يرتاح إليهم أولاً ، ولا يمكن أن يخلصوا له من جهة ثانية .

إن طبيعة المعركة التي تمت بين علي ومعاوية جعلت جيش معاوية في استقرار تـام ، وطاعة عظيمة ، وانقياد عجيب . بينما كان جيش علي رضي الله عنه يخرج عليه ، ويتلكأ أهل العـراق في طاعته ؛ حتى ليدعو ربه أن يتخلص منهم ومن سلبيتهم وخذلانهم له.

ولقد أصاب الحسنَ بن علي رضي الله عنه من أهل العراق ما أصاب أمير المؤمنين علياً رضوان الله عليه .

ولو قام الحكم في أي مكان غير دمشق فلسوف تكون الشام خطراً عليه .

لقد تركز الملك ومفاهيمه في الشام ، ولقد تبدل كثيرٌ من أسس الخلافة الأولى التي كانت تربط الأمة بالمبدأ أكثر من ربطها بالشخص .

هكذا آل الوضع ، وصدق معاوية حين قال : رضينا بهـا ملكاً .

هل يمكن ان نقول : ان الجيل الثاني من الأمة لم يكن على مستوى الخلافة ؟

نعم ، يمكن أن يكون ذلك .

وفي ميزان الملك : فيزيد جدير به .

وفي ميزان الخلافة : فكل أولئك النفر هم أجدر من يزيد بها : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، والحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين .

لقد كان معاوية رضي الله عنه يدرك هذه الجوانب جميعاً ، وكان على ثقة من كفاءة يزيد ، ولكنه كان يخشى في الوقت نفسه أن يكون اختيار يزيد قد طغت عليه العاطفة ، فدفعته عن الحق في هذا الإطار .

لقد كان يدعو ربه متضرعاً إليه وعلى ملأ من الناس ، وعلى المنبر ، ويقول :

(اللهم إن كنت تعلم اني وليته لأنه فيما أراه أهلاً لذلك ؛ فأتمم له ما وليته . وإن كنت وليته لأني أحبه ؛ فلا تتمم له ما وليته) .

فهذا النص الذي أورده ابن كثير رحمه الله ورواه عن معاوية كاف لأن يعطينا أوضح دليل على نفسية معاوية ودوافعه رضوان الله عليه .

لقد اختلطت العاطفة الأبوية بمفهوم القناعة والكفاءة ، فضرع إلى ربه جل وعلا ان يختار للأمة ما يرضيه ، ولو أن الأمر خرج من يزيد . لقد كان معاوية رضي الله عنه يرى الكفاءة في العديد من قادة الأمة ، ولكنه لم يكن يرى أن يزيد أقل منهم كفاءة ، ولعل هذا الأمر

ترجح له في المرحلة الأخيرة من حياته ، أما قبل فلم يكن الأمر كذلك، فقد ذكر قبيصة بن جابر قوله :

بعثني زياد في شغل إلى معاوية ، فلما فرغت من أموري قلت :

يا أمير المؤمنين لمن يكون الأمر من بعدك ؟

فسكت ساعة ثم قال :

يكون بين جماعة : إما كريم قريش سعيد بن العاص ، وإما فتى قريش حياءً ودهاءً وسخاءً عبد الله بن عامر ، وإما الحسن بن علي فرجل سيد كريم ، وإما القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله مروان بن الحكم ، وإما رجل فقيه عبد الله بن عمر ، وإما رجل يرد الشريعة مع دواهي السباع ، ويروغ روغان الثعلب فعبد الله بن الزبير (١) .

وصدق حدس معاوية ، فما انتهى يزيد حتى آل الأمر لمروان ابن الحكم القارىء الفقيه الشديد في حدود الله .



هذا ولا بد لنا أن نقول كلمة فيما ذكر أن ناساً من أهل المدينة كانوا يتهمون يزيد باللهو ومعاقرة الخمر فنقول :

لم يرد ذلك في رواية صحيحة أبداً وحاشى لمعاوية رضي الله عنه أن يبايع لرجل يفعل هذا ، ولقد تضخم هذا الأمر عند أهل

---

(١) أورده ابن كثير ج٨ ص ٨٥ عن عبد الملك بن عمير (ثقة) عن قبيصة بن جابر (ثقة) .

المدينة ، ولم يوافقهم على هذا الاتهام ليزيد أعظم الصحابة قـدراً في ذلك العهد : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقد روى الإمام أحمد عن نافع مولى ابن عمر قال :

(لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد وقال : أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال : هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الاشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته . فلا يخلعن أحد منكم يزيد ، ولا يسرفن أحد منكم في هـذا الأمر فيكون الفيصل بيني وبينه) ورواه مسلم والترمذي .

(ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيـع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية؛ فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم .

فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب .

فقال لهم : ما رأيت منه ماتذكرون ، وقـد حضرته وأقمت عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عـن الفقه ، ملازماً للسنة .

قالوا : فإن ذلك كان تصنعاً لك .

فقال : ما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع ؟! أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟! فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لاتعلموه !!

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه .

فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ولست من أمركم من شيء .

قالوا : فلعلك تكره أن يتولى غيرك فنحن نوليك أمرنا .

قال : ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً أو متبوعاً .

قالوا : قد قاتلت مع أبيك .

قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه . . .) (١) .

* * *

(١) البداية والنهاية ٢٣٣/٨ .

المَلِك المجاهـد إلى جِوار ربّه

الجهاد لم ينقطع طيلة حياة معاوية رضي الله عنه ؛ خاصة في الحدود المتاخمة للروم ، فهذا سعيد بن عثمان (١) يقاتل الصُغْد وينتصر عليهم ، ويأخذ ابناء عظمائهم رهينـة عنـده عنوانـاً على استسلامهم . وهذا عبد الله بن قيس يجعل مشتاه بأرض الروم في عام ثمانية وخمسين . ولم يخل هذا العام من شرور الخوارج في العراق ، فخرجوا فحوصروا وقتلوا .

---

(١) سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما كان ذا شأن بين الشخصيات الاسلامية . وفد على معاوية وسأله ان يستعمله على خراسان ، قال معاوية : إن بهـا عبيد الله بن زيـاد (وكان قـد تولاها بعد وفاة زياد أبيه) فانفعل سعيد وخاطب معاوية بغلظـة وجفاء قائلاً :

اما لقد اصطنعك ابي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا يسامى ، فما شكرت بلاءه ، ولا جازيته بآلائه ، وقدمت عليَّ هذا (يعني يزيد بن معاوية) وبايعت له ؛ ووالله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً .

فقال معاوية :

اما بلاء ابيك : فقد يحق عليَّ الجزاء به ، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشفت الأمـور ، ولست بلائم لنفسي في التشمير . ←

وها هو معاوية يودع الرعيل الأول الذين كانوا رفاقه في الجهاد أو خصومه ، فيموتون واحداً إثر الآخر : عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ، وزياد بن أبيه ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . وها هي الأوجاع تترى على جسمه الضعيف وقد غدا وله نيِّف وسبعون عاماً .

وكانت أغرب رسالة وصلته من رجل من اهل المدينة ففضها فإذا فيها :

إذا الرجال ولدت أولادها
واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامُها تعتادها
فهي زروع قد دنا حصادها

فطوى الكتاب ، وصمت هنيهة ، ثم قال :

نَعى إلي نفسي .

ورأى أنه غدا ثقيل الحركة ، بطيء الخطا . فخرج إلى الناس،

←

وأما فضل أبيك على أبيه : فأبوك والله خير مني ، وأقرب برسول الله ﷺ . وأما فضل أمك على أمه فما ينكر ؛ امرأة من قريش خير من امرأة من كلب . وأما فضلك عليه : فوالله ما أحب أن الغوطة دَحَستْ ــ أي امتلأت ــ ليزيد رجالاً مثلك .

وكاد أن يتفجر الموقف ؛ لولا حصافة يزيد ولبقاته التي انقذت الموقف فقال لأبيه : يا أمير المؤمنين ابن عمك ، وأنت أحق من نظر في أمره ، وقد عتب عليك لي فأعتبه ــ أرضِه ــ . فولاه حرب خراسان . الطبري ج٥ ص.٥٣٠ عن عمر (صدوق) عن علي (صدوق) عن محمد بن حفص (مقبول) .

وصعد درج المنبر بصعوبة وعيون المسلمين شاخصة إليه ، وهم يرون آثار الجهد بادية على وجهه ، فيعلو وجوههم الهم ، وتبدو عليها مسحة الكآبة . وها هم يستمعون إلى أمير المؤمنين ، ينعي إليهم نفسه ، فيقول بعد ان حمد الله واثنى عليه :

أيها الناس ، إني من زرع قد استحصد ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد بعدي خير مني ، وإنما يليكم من هو شر مني ، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني .

ويا يزيد إذا دنا أجلي فولّ غسلي رجلاً لبيباً ، فإن اللبيب من الله بمكان .

وترقرقت الدموع في المحاجر . وكأن أمير المؤمنين يتحدث امامهم اليوم في الوداع الأخير . وتابع معاوية رضي الله عنه حديثه :

(فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره واظفاره ...) وما كاد يتم كلامه حتى سالت الدموع على الوجوه غزيرة ، فقد ذكر امامهم سيد الأحبة محمداً ﷺ ، ثوبه واظفاره وقراضة من شعره .

وبين هذا السيل الجارف من الذكريات ، وبين أمير المؤمنين الذي يلقي عليهم نظرة الوداع ــ فلعلهم لا يلقونه بعد اليوم ــ كان القوم غارقين . وكلام معاوية كأنما يعصر قلوبهم عصراً من الألم .

وتابع معاوية كلامه :

(فاستودع القراضة انفي وفمي وأذني وعيني ، فإذا ادرجتموني في جريدتي ، ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين)

وغادر معاوية المسجد ، وكان اللقاء الاخير له مع المسلمين في الشام ، ودخل بيته ، وكان البرد قد اشتد عليه فلبس ثوباً ثقيلاً ، فاغتم منه .

ودنا اجل الملك المجاهد ، فرمى ببصره بعيداً بعيداً وراء الأفق. واستعاد شريط ذكرياته الطويل ، وحصيلة سبعين عاماً ونيّفاً انسلخت من عمره ، ورأى تفاهة الدنيا وضآلة شأنها ماثلة بين عينيه ؛ فقال :

تباً لك من دار ، ملكتك اربعين سنة ، عشرين اميراً ، وعشرين خليفة ، وهذا حالي فيك ، ومصيري منك !!

ثم تنهد وقال بصوت متهدج : تباً للدنيا ومحبيها !!



وكان لا بد ان يقدم وصيته لخليفته من بعده ، فهموم الأمة تلاحقه حتى الرمق الأخير ، فاستدعى قائد شرطته الضحاك بن قيس الفهري وطلب منه ان يكتب وصيته إلى يزيد الذي لم يكن حاضراً في ايامه الأخيرة ، كما دعا مسلم بن عقبة المري — وكان من اخص مستشاريه — فأفضى إليهما بخاصة نفسه ، وامرهما ان يبلّغا يزيد وصيته وهي :

١ — انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب .

٢ — وانظر اهل العراق فإن سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ؛ فإن عزل عامل احب إلي من أن تشهر عليك مائة الف سيف .

٣ ـ وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا اصبتهم فاردد اهل الشـام إلى بلادهم ، فإنهم إن اقاموا بغير بلادهم ، اخذوا بغير اخلاقهم .

٤ ـ وإني لست اخاف من قريش إلا ثلاثة :

حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قبلك .

واما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ، وارجو أن يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه . **وإن له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ . ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإني لو اني صاحبه عفوت عنه .**

واما ابن الزبير فإنه خبٌ ضب ، فإذا شخص لك فالبَدْ له ، إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه (١) .

٥ ـ واحقن دماء قومك ما استطعت (٢) .

وهكذا القى لابنه يزيد بحصالة تجاربه خلال ثلاثةارباعالقرن.

---

(١) هناك رواية اخرى للوصية يتهم فيها معاوية عبد الرحمن ابن ابي بكر باللهو والنساء ويوصي فيها يزيد بأن يقطع ابن الزبير إرباً إرباً إن ظفر به . وهي روايــة متهافتة محورهــا أبو مخنف الشيعي الذي كان له دور كبير في تشويه شخصيات الاســلام ، والذي يدل على كذب هذه الرواية ان عبد الرحمن بن أبي بكر توفي في حياة معاوية .

(٢) الطبري ٣٢٣/٥ عن هشام عن عوانة .

وأحس انه قد القى حملاً ثقيلاً عن كتفه ، ثم احس بثقل اكبر ، فقال لأهله : احشوا عيني إثمداً ، وأوسعوا راسي دهناً .

ولم يدر أهله سبباً لذلك ، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن .

وطلب وسادة يتكىء عليها ، فأجلس ، ثم قال :

ائذنوا للناس فليسلموا علي قياماً ، ولا يجلس أحد .

فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً ، فيراه مكتحلاً مدهناً فيقول : يقول الناس : إن امير المؤمنين لمآبه ، وهو أصح الناس .

فلما خرجوا من عنده قال معاوية في صوت متهدّج وهو يتمثل قول الشاعر :

وتجلّدي للشامتين أريهم
اني لريب الدهر لا اتضعضع
وإذا المنية انشبت اظفارها
الفيت كل تميمة لا تنفع

وكان هذا آخر عهده بالناس والدنيا .

وبقي بين يدي أهله ، ففاضت دمعة من مآقيه ، ورسم خط حياته كله ؛ فقال وهو يحتضر ـ وكأن المجد في الدنيا كله يعلن على لسانه ـ :

لعمري لقد عمرت في الدهر برهة
ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
واعطيت حمر المال ، والحكم والنهي
ولي سلمت كل الملوك الجبابر

ثم ماذا جرى بهذا المجد :

فأضحى الذي قد كان مما يسرني
كحكم مضى في المزمنـات الغوابـر

ثم ها هي الأمجاد تتلاشى سريعاً ويفقدها من بين يديه ، وها هو حاكم الدنيا الاسلامية يعلن أمام الموت ، ويتمنى .

وماذا يتمنى ؟!!

فياليتني لـم اعن في الملك ساعـة
ولم أسعَ في لـذات عيش نواضر
وكنت كذي طمريـن عاش ببُلغـة
فلم يـك حتى زار ضيق المقابـر

إيه يا أول الملوك ، تغبط ذا الطمرين الذي عاش ببلغة في حياته؛ وانت أبو المجد والجاه والسؤدد .

وأوصى معاوية .. وماذا كانت وصيته ؟

أوصى بنصف ماله ان يرد إلى بيت المال ، وكأنـه اراد أن يطيب له الباقي وان يكون له اقتداء بالفاروق عمر بن الخطاب الذي قاسم ولاته نصف أموالهم . وهم الذين لايرقى الشك إلى ورعهم وتقـاهم .

وانقطع عن الكلام ، وخيم على المكان صمت رهيب ، إنـه صمت الموت . ثم قال وقد فتح عينيه وهو في وداعه الأخير :

(ياليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى ، ولم ال من هـذا الأمر شيئاً) .

إنه موقف الخليفة الفاروق رضي الله عنه وقد جاءه الموت ، وراح الناس يعرضون عليه ولاية ابنه عبد الله : بحسب آل عمر أن

يحاسب منهم رجل واحد ، إن خرجت من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي ؛ إني إذاً لسعيد !!

إنها اللحظات التي تستجمع فيها الذنوب ، وتغيب فيها الدنيا بهجاتها ولذاتها ، فمن له في هذه اللحظات غير رب العالمين .

هاهم أهله يسمعونه يناجي ربه ، ولا يكاد يلتقط نفسه ، وحشرجة الموت تخالط أنفاسه الضعيفة :

إن تناقش يكن نقاشك يارب
عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو واصفح
عن مسيء ذنوبه كالتراب

وها هو يتقلب على فراشه ، ويعاني من سكرات الموت :

يضع خداً على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ، ويقول :

اللهم إنك قلت في كتابك : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) اللهم اجعلني فيمن تشاء أن تغفر له .

إنه يرى الموت عياناً فأين الفرار منه !!
هو الموت لا منجا من الموت والذي
تحاذر بعد الموت ادهى وافظع

ثم يقول :

اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرجُ غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذي خطيئةمنخطيئته مهرب إلا إليك .

ثم غاب عن الوعي . وأغمي عليه .

فقاموا فتحسسوا يديه .

لا يزال قلبه ينبض ، فلم يسلم الروح بَعْدُ .

ثم فتح عينيه بعد غيبوته ، وكان آخر ما قاله يوصي أهله :

اتقوا الله عز وجل فإن الله سبحانه يقي من اتقاه . ولا واقي لمن لا يتقي الله .

وما هي إلا لحظات حتى أسلم معاوية الروح لبارئها سبحانه .

أسلمها وكل رجائه بالله أن يغفر الله له .

(إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فرفعته. وقلّم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة .. فإذا مت فألبسوني ذلك القميص ، وقطّعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فيّ ، فعسى الله أن يرحمني ببركتها .

يا رحمة الله لك يا معاوية . يا أول الملوك .

يامن كنت تهز الدنيا بيدك ، وتقود الجيوش بإشارتك ، وترتجف كثير من القلوب هيبة من ذكرك .

ها انت على فراش الموت تقلبك ابنتاك دون أن تملك حراكاً . وقد شارفت على الثمانين ، وها أنت واقف على أعتاب قبرك وأنت طامع برحمة ربك ؛ دون أن ينتابك غرور الدنيا بجهدك وجهادك اربعين عاماً أو يزيد . . . ومضيت وبقيت الدنيا بعد أن غاب شخصك تتحدث عنك . . عن أعظم ملوك الاسلام الملك المجاهد ، معاوية بن أبي سفيان .

* * *

قالوا في مُعاوية

١ ــ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب .
محمد رسول الله ﷺ

٢ ــ اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به .
محمد رسول الله ﷺ

٣ ــ لما عزّيت هند (أم معاوية) في يزيد بن ابي سفيان قيل لها :

إنه قد جعل معاوية أميراً مكانه .

قالت : أو مثل معاوية يجعل خلفاً من احد ؟

فوالله لو أن العرب اجتمعت متوافرة ثم رمي به فيها لخرج من أي أعراضها (نواحيها) شاء .

٤ ــ دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك عند الغضب ، ولا ينال منه إلا على الرضا ، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه .
عمر بن الخطاب

٥ ــ هذا كسرى العرب ، تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ؛ وعندكم معاوية ؟!
عمر بن الخطاب

٦ ــ دخل معاوية على عمر وعليه حلّة خضراء ، فنظر إليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها. وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ! الله الله فيّ .

فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم :
لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله ؟

فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته ـ وأشار بيده إلى رأسه ـ فأحببت أن أضع منه ما شمخ .

٧ ـ رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست . فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية، فأدخلا بيتاً وأجيف الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول :
قضي لي ورب الكعبة .

ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول :
غفر لي ورب الكعبة . عمر بن عبد العزيز

٨ ـ أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل .
علي بن أبي طالب (منصرفه من صفين)

٩ ـ ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب ـ يعني معاوية ـ سعد بن أبي وقاص

١٠ ـ ما رأيت أحداً أعظم حلماً ، ولا أكثر سؤدداً ، ولا أبعد أناة ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف ، ولا أشبه سريرة بعلانية من معاوية . قبيصة بن جابر

١١ ـ قد علمت بم غلب معاوية الناس : كان إذا طاروا وقع ، وإذا وقعوا طار !! عبد الله بن عباس

١٢ ــ لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو ، حتى كان عام الجماعة فاغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف وتشتو بأرض الروم ، ثم تقفل وتعقبها أخرى .

سعيد بن عبد العزيز

١٣ ــ أدرك خلافة معاوية عدة من الصحابة منهم : اسامة وسعد وجابر وابن عمر وزيد بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبوسعيد ورافع بن خديج وابو أمامة ، وانس بن مالك ، ورجال اكثر ممن سمينا بأضعاف مضاعفة . كانوا مصابيح الهدى ، وأوعية العلم ، حضروا من الكتاب تنزيله ، ومن الدين جديده ، وعرفوا من الاسلام مالم يعرفه غيرهم ، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويل القرآن . ومن التابعين لهم بإحسان ما شاء الله ، منهم : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن محيريز ، وفي اشباه لهم لم ينزعوا يداً من جماعة في أمة محمد ﷺ .

الأوزاعي

١٤ ــ نظر ابو سفيان يوماً إلى معاوية وهو غلام فقال لهند :

إن ابني هذا عظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومه فقط ؟!!. ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة.

١٥ ــ أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : اوتر معاوية بركعة بعد العشاء !

فقال : دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ ، أصاب ، إنه لفقيه .

١٦ ــ كان معاوية إذا حدّث عن رسول الله ﷺ لم يتهم .

محمد بن سيرين

١٧ ــ كان معاوية يبعث رجلاً يقال له : أبو الجيش في كل يوم؛ فيدور على المجالس يسأل هل ولد لأحد ولد ؟ أو قدم أحد من الوفود ؟ فإذا أخبر بذلك اثبت في الديوان ــ يعني ليجري عليه الرزق ــ .

محمد بن سيرين

١٨ ــ رأيت معاوية في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً ، عليه قميص مرقوع الجيب ، وهو يسير في أسواق دمشق .

يونس بن ميسرة بن حلبس

١٩ ــ لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي .

الأعمش عن مجاهد

٢٠ ــ ما رأيت أحداً أسود (من السيادة) من معاوية . قال : قلت : ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية أسود منه !!

عبد الله بن عمرو

٢١ ــ ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية قيل : ولا أبو بكر ؟ قال : كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود .

العوام بن حوشب

٢٢ ــ ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية ، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب .

عبد الله بن عباس

٢٣ ــ نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينا

أبو الجهم

٢٤ ــ لله در ابن هند ، إن كنا لنفرقه ، وما الليث في براثنه باجرأ منه . فيتفارق لنا ــ يظهر الخوف ــ وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا . والله لوددت أنا متعنا به مادام في هذا الجبل حجر . عبد الله بن الزبير

٢٥ ــ قال معاوية لابن عباس يعزّيه في الحسن رضي الله عنه : لايسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي .

فقال ابن عباس لمعاوية : لا يحزنني الله ولا يسوؤني ما أبقى الله أمير المؤمنين .

٢٦ ــ من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحم على معاوية ؛ كان حقاً على الله أن لا يناقشه الحساب . سعيد بن المسيب

٢٧ ــ تراب في أنف معاوية خير من عمر بن عبد العزيز .
عبد الله بن المبارك

٢٨ ــ سئل المعافى بن عمران أيهما أفضل ؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فغضب وقال للسائل : أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وامينه على وحي الله .

٢٩ ــ معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ماوراءه . الربيع بن نافع

٣٠ ــ ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية ، فإنه ضربه أسواطاً إبراهيم بن ميسرة

٣١ ــ الدهاة أربعة : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة ، وزياد .
الشعبي

٣٢ ــ الدهاة في الفتنة خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وكان معتزلاً ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعبدالله ابن بديل بن ورقاء .

الزهري

٣٣ ــ ما رأيت معاوية متكئاً قط ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، كاسراً عينه يقول لرجل تكلم إلا رحمته .

عمرو بن العاص

٣٤ ــ كان معاوية طويلاً ابيض جميلاً ، إذا ضحك انقلبت شفته العليا وكان يخضب .

ابو بكر بن أبي الدنيا

٣٥ ــ كان أبيض طويلاً أجلح ، أبيض الرأس واللحية ، يخضبهما بالحناء والكتم ، وقد أصابته لوقة في آخر عمره ، فكان يستر وجهه ويقول : رحم الله عبداً دعا لي بالعافية ، فقد رميت في أحسني ــ أي وجهه ــ ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي . وكان حليماً وقوراً ، رئيساً سيداً في الناس عادلاً شهماً .

ابن كثير

٣٦ ــ إياكم والفرقة بعدي ، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام ، وستعلمون إذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها دونكم .

عمر بن الخطاب

٣٧ ــ قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة : يا مذل المؤمنين قال : لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية .

سفيان بن الليل

* * *

مِن كلمات معاوية

١ ــ في خطابه لعائشة بنت عثمان :

يا بنت اخي ، إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد . فبعناهم هذا بهذا ، وباعونا هذا بهذا . فإن أعطيانهم غير ما اشتروا منا شحوا علينا بحقنا ، وغمطناهم بحقهم ، ومع كل إنسان منهم شيعته ، وهو يرى مكان شيعته ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا . وأن تكوني ابنة عثمان امير المؤمنين ، أحب إلي أن تكوني أمَة من إماء المسلمين ، ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك .

٢ ــ في خطبة له على منبر دمشق يوم جمعة :

أيها الناس اعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم .

خذوا على أيدي سفهائكم ، أو ليسلطنّ الله عليكم عدوكم ، فليسومنكم سوء العذاب .

تصدّقوا ولا يقولن الرجل: إني مقلّ، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الفني . إياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول : سمعت وبلغني ، فلو قذف أحدكم امراة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة .

٣ ــ انا أول الملوك وآخر خليفة .

٤ ــ إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم مــن عفوي ، وجهل أكثر من حلمي ، أو عورة لاأواريها بستري ، أو إساءة أكثر من إحساني .

٥ ــ يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس .

ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال .

٦ ــ يابني أمية فارقوا قريشاً بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً ؛ فأرجع وهو لي صديق ، إن استنجدته أنجدني ، وأثور به فيثور معي . وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرماً .

٧ ــ آفة الحلم الذل .

٨ ــ لا يبلغ الرجل مبلغ الراي حتى يغلب حلمه جهلــه ، وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

٩ ــ قيل لمعاوية من أسود الناس فقال :

أسخاهم نفساً حين يُسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقاً ،وأحلمهم حين يستجهل .

١٠ ــ كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات :

فما قتل السفاهة مثل حلــم ... يعــود بــه على الجهل اللئيم
فلا تسفــه وإن ملّيــت غيظاً ... على أحــد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عنــد ذنب ... فإن الــذنب يغفــره الكريــم

١١ ــ كتب معاوية إلى نائبه زياد قائلاً :

إنه لاينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة؛باللين فيمرحوا،

ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك . ولكن كـن أنت للشـدة والفظاظة والفلظة ، وأنا للين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه .

١٢ ــ قال عبد الله بن جعفر لدهقان فارس :
اسجد لله ، واحمل مالك إلى منزلك ، فإنا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن .

فقال معاوية :
لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق .
أبت بنو هاشم إلا كرماً .

١٣ ــ قيل لمعاوية : أيكم كان أشرف ، أنتم أو بنو هاشم ؟
فقال : كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف .
فيهم واحد لم يكن في عبد مناف مثل هاشم .
فلما هلك كنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً .

وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثله ؛ فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً .

ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ؛ فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي .

فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله محمد ﷺ .
فمن يدرك هذه الفضيلة ، وهذا الشرف ؟!

١٤ ــ المروءة في أربع :
العفاف في الاسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الإخـوان ، وحفظ الجار .

١٥ ــ قيل لمعاوية : اسرع إليك الشيب ! قال :

كيف لا ، ولا أزال ارى رجلاً من العرب ، قائماً على راسي يلقح لي كلاماً يلزمني جوابه ؛ فإن اصبت لم احمد ، وإن اخطأت سارت بها البرود .

١٦ ــ العقل والحلم افضل ما اعطي العبد : فإذا ذُكر ذَكر ، وإذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا وعد انجز ، وإذا قدر غفر ، وإذا أساء استغفر .

١٧ ــ ما من شيء ألذ عندي من غيظ اتجرعه .

١٨ ــ زين الشريف العفاف .

١٩ ــ قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص :

يا ابن اخي إنك قد لهجت بالشعر : فإياك والتشبيب بالنساء فتعرّ الشريفة ، والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئيماً ، والمدح فإنه طعمة الوقاح ؛ ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الأمثال ما تزيد به نفسك ، وتؤدب به غيرك .

٢٠ ــ اغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟

فقال : إني لا احول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

٢١ ــ رحم الله أبا بكر ، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيــا . وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه ؛ وأما نحن فتمرغنا فيها .

ثم كأنه ندم فقال : والله انه لملك آتانا الله إياه .

* * *

الفهرس

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.
٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.
٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.
٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.
٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.
٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.
٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.
٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.
١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.
١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.
١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.
١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهر
١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.
١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.
١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب.

تحت الطبع:

٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ الإمام الأوزاعي
تأليف د. عبد الستار أبو غدة.
٣٢ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
٣٣ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف د. محمد الزحيلي